
الأمير المسحور
كامل كيلاني

# الْأَمِيرُ الْمَسْحُورُ

تأليف
كامل كيلاني



# الْأَمِيرُ الْمَسْحُورُ

كامل كيلاني

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org



---

تصميم الغلاف: أحمد رحمي.

الترقيم الدولي: ٨ ١٩٤٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٠
صدر عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

# المحتويات

# الدُّبُّ الصَّغِيرُ

# الضِّفْدِعُ وَالْقُبَّرَةُ

عَاشَتْ «مَاجِدَةُ» الْقَرَوِيَّةُ الْجَمِيلَةُ، فِي دَسْكَرَتِهَا[1] الصَّغِيرَةِ عِيشَةً هَادِئَةً، بَعِيدَةً عَنْ ضَوْضَاءِ النَّاسِ وَجَلَبَةِ الْمَدِينَةِ.

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» تَقْضِي وَقْتَهَا مُنْفَرِدَةً؛ لَا يَشْغَلُهَا غَيْرُ عَمَلِهَا، وَلَا يُؤْنِسُهَا غَيْرُ «حَلِيمَةَ» خَادِمَتِهَا.

وَلَمْ تَكُنْ «مَاجِدَةُ» تَتَّصِلُ بِجِيرَانِهَا، وَلَا تَسْمَحُ لِنَفْسِهَا بِزِيَارَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَكَانَتْ دَسْكَرَتُهَا — عَلَى صِغَرِهَا — مِثَالًا حَسَنًا لِلنِّظَامِ وَالْأَنَاقَةِ وَالتَّرْتِيبِ.

وَلَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهَا شَيْءٌ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ.

فَعِنْدَهَا بَقَرَةٌ سَمِينَةٌ بَيْضَاءُ، تُدِرُّ لَهَا كَثِيرًا مِنَ اللَّبَنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

وَعِنْدَهَا قِطٌّ نَشِيطٌ يَشْغَلُ كُلَّ وَقْتِهِ بِمُطَارَدَةِ الْفِيرَانِ وَالْجِرْذَانِ وَبَنَاتِ عِرْسٍ وَمَا إِلَيْهَا، وَهُوَ مَاهِرٌ فِي اصْطِيَادِهَا وَأَكْلِهَا، دَائِبٌ عَلَى تَخْلِيصِ الدَّسْكَرَةِ مِنْ أَذَاهَا وَشَرِّهَا.

وَعِنْدَهَا — إِلَى ذَلِكَ — حِمَارٌ ضَلِيعٌ،[2] يَنْهَضُ بِكُلِّ مَا تُحَمِّلُهُ إِيَّاهُ مِنْ أَكْدَاسِ الْفَاكِهَةِ وَالْخُضَرِ وَالْجُبْنِ وَالْبَيْضِ: تَذْهَبُ بِهِ إِلَى السُّوقِ الْبَعِيدَةِ فِي أَيَّامِ الْجُمَعِ، فَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ — الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدَّسْكَرَةِ — فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ.

وَكَانَتِ الْخَادِمَةُ «حَلِيمَةُ» تَرْكَبُ الْحِمَارَ — وَهُوَ يَحْمِلُ الْخُضَرَ وَسِوَاهَا — إِلَى السُّوقِ، فَإِذَا انْتَهَتْ مِنْ بَيْعِ مَا مَعَهَا، عَادَتْ بِالْحِمَارِ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ.

---

[1] دسكرتها: عزبتها.

[2] ضليع: قوي.

وَلَم يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْأَهْلِينَ يَعْرِفُ: كَيْفَ جَاءَتْ «مَاجِدَةُ» وَخادِمَتُهَا؟ وَلا مِنْ أَيِّ الْبِلادِ قَدِمَتَا؟

كَمَا لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ: كَيْفَ امْتَلَكَتْ «مَاجِدَةُ» تِلْكَ الدَّسْكَرَةَ؟

وَظَلَّ النَّاسُ يَجْهَلُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهَا زَمَنًا طَوِيلًا!

وَلَعَلَّكَ تَعْجَبُ — أَيُّهَا الْقارِئُ الصَّغِيرُ — إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ جَهْلَهُمْ بِالدَّسْكَرَةِ وَسَاكِنِيهَا كَانَ عَلَى أَتَمِّهِ. وَقَدْ عَرَفُوا هَذِهِ الدَّسْكَرَةَ بِاسْمِ «دَسْكَرَةِ الْخَشَبِ»، دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا لِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ سَبَبًا.

وَفِي مَساءِ يَوْمٍ، كَانَتْ «حَلِيمَةُ» مُنْصَرِفَةً إِلَى بَقَرَةِ سَيِّدَتِهَا «مَاجِدَةَ»، لِتَحْلُبَهَا عَلَى مَأْلُوفِ عَادَتِهَا كُلَّ يَوْمٍ. وَكَانَتْ سَيِّدَتُهَا مَشْغُولَةً حِينَئِذٍ بِإِعْدَادِ الْعَشَاءِ. فَلَمَّا نَضِجَ الطَّعَامُ وَضَعَتْهُ السَّيِّدَةُ عَلَى الْمَائِدَةِ، وَكَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ صَحْفَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا تَحْتَوِي حَساءَ الْكُرُنْبِ الشَّهِيَّ، وَالْأُخْرَى تَحْتَوِي لَذَائِذَ مِنَ الْقِشْدَةِ.

وَكَانَتْ «حَلِيمَةُ» قَدْ أَحْضَرَتْ مِنَ الْحَدِيقَةِ بَعْضَ نَباتِ الْكَرِيزِ مَلْفُوفًا فِي أَوْرَاقِهِ الْخُضْرِ، وَوَضَعَتْهُ فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْحُجْرَةِ.

وَمَا كَادَتْ «مَاجِدَةُ» تَنْتَهِي مِنْ إِعْدَادِ الْمَائِدَةِ، حَتَّى ظَهَرَتْ أَمَامَهَا فَجْأَةً ضِفْدِعٌ كَبِيرَةُ الْجِسْمِ، هَائِلَةُ الْحَجْمِ، بَشِعَةُ الْمَنْظَرِ. وَانْدَفَعَتْ إِلَى الْكَرِيزِ تَلْتَهِمُهُ فِي شَرَهٍ وَنَهَمٍ ...

فَصاحَتْ «مَاجِدَةُ» بِالضِّفْدِعِ مُغْتَاظَةً: «يا لَكِ مِنْ ضِفْدِعٍ خَبِيثَةٍ!

أَتَحْسَبِينَ أَنَّكِ نَاجِيَةٌ مِنَ الْعِقَابِ، أَيَّتُهَا الْحَمْقَاءُ الطَّائِشَةُ؟

كَلَّا، لَا خَلاصَ لَكِ مِنِّي، وَلَنْ أُقَصِّرَ فِي تَأْدِيبِكِ؛ حَتَّى لَا تَعُودِي إِلَى مِثْلِ هَذَا النَّهَمِ الْمَرْذُولِ مَرَّةً أُخْرَى.»

ثُمَّ جَذَبَتْ «مَاجِدَةُ» أَوْرَاقَ الْكَرِيزِ عَلَى الْفَوْرِ، وَرَكَلَتِ الضِّفْدِعَ بِقَدَمِهَا رَكْلَةً عَنِيفَةً، طَوَّحَتْ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ خُطُواتٍ، وَكَادَتْ تَقْذِفُهَا إِلَى الْخارِجِ.

وَلَكِنْ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسْبانِ؛ فَقَدْ ظَهَرَ الْغَضَبُ وَالْغَيْظُ عَلَى وَجْهِ الضِّفْدِعِ، وَبَدَا عَلَيْهَا مَيْلٌ شَدِيدٌ إِلَى الانْتِقَامِ مِنْ «مَاجِدَةَ»، وَالِانْدِفَاعِ فِي مُقَابَلَةِ الْقَسْوَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ!

وَلا تَسَلْ عَنْ فَزَعِ «مَاجِدَةَ» حِينَ رَأَتِ الضِّفْدِعَ الشَّرِسَةَ تَقِفُ عَلَى قَدَمَيْهَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ، وَتَفْتَحُ فَاهَا الْوَاسِعَ، وَتَضُمُّهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى — وَالشَّرَرُ يَكَادُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهَا —

وَقَدِ انْتَظَمَتْهَا[٣] رِعْشَةُ الْغَضَبِ، وَانْبَعَثَ مِنْ حَنْجَرَتِهَا صَوْتٌ مَرْهُوبُ الدَّوِيِّ، يُجَلْجِلُ صَدَاهُ فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ.

وَقَفَتْ «مَاجِدَةُ» مُفَزَّعَةً حَيْرَى، وَتَرَاجَعَتْ مَبْهُوتَةً حَسْرَى، زائِغَةَ اللَّفَتَاتِ، مُتَعَثِّرَةَ الْخُطُواتِ، تُحَاوِلُ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِهَا مِنْ خَطَرِ الزَّائِرَةِ، الْمُتَوَحِّشَةِ الثَّائِرَةِ.

وَأَسْرَعَتْ «مَاجِدَةُ» تَبْحَثُ فِي أَرْجَاءِ الْحُجْرَةِ، لَعَلَّهَا تَعْثُرُ عَلَى مِكْنَسَةٍ أَوْ هِرَاوَةٍ؛[٤] لِتَدْفَعَ أَذَاهَا عَنْ نَفْسِهَا، وَتَطْرُدَهَا مِنْ دَارِهَا.

وَانْتَهَتْ مِنْ بَحْثِهَا إِلَى غَيْرِ طَائِلٍ؛ فَامْتَلَأَ قَلْبُهَا رُعْبًا، وَلَمْ تَدْرِ مَاذَا تَصْنَعُ، وَهِيَ تَرَى الضِّفْدِعَ الْغَضْبَى مُتَحَفِّزَةً لِإِيذائِهَا، قَافِزَةً نَحْوَهَا وَثْبًا.

وَظَلَّتِ الضِّفْدِعُ تُشِيرُ بِإِحْدَى يَدَيْهَا، فِي تَحَدٍّ وَعِنَادٍ، إِشَارَةَ السَّيِّدِ الْآمِرِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُطَاعَ، وَتَقُولُ لَهَا بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ، مُتَهَدِّجٍ مِنَ الْغَيْظِ: «أَكَذَلِكِ تُسِيئِينَ إِلَيَّ، عَلَى غَيْرِ سَابِقِ مَعْرِفَةٍ بِي؟

أَكَذَلِكِ تَنْدَفِعِينَ فِي تَحْقِيرِي — بِلا رَوِيَّةٍ — وَتَرْكُلِينَنِي[٥] بِقَدَمِكِ، وَتَضِنِّينَ عَلَيَّ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْكَرِيزِ، وَهُوَ أَشْهَى فَاكِهَةٍ أُحِبُّهَا؟

أَهَكَذَا تُقَابِلِينَ الْمَعْرُوفَ وَالْإِحْسَانَ، بِالْإِساءَةِ وَالْكُفْرَانِ؟

ثُمَّ مَاذَا أَيَّتُهَا الْمُتَسَرِّعَةُ الْحَمْقَاءُ؟ وَكَيْفَ تَطْرُدِينَنِي مِنْ دَارِكِ، غَيْرَ حَاسِبَةٍ لِلْعَوَاقِبِ حِسابًا، وَلا حَافِلَةٍ بِمَا تُثِيرِينَهُ فِي نَفْسِي مِنَ التَّحَدِّي وَالْغَضَبِ؟»

وَهُنَا وَقَفَتْ «مَاجِدَةُ» مَذْهُولَةً حَائِرَةً، تُحَاوِلُ أَنْ تَعْتَذِرَ إِلَى الضِّفْدِعِ، فَلا تُواتِيهَا الشَّجَاعَةُ عَلَى الْكَلامِ.

وَاسْتَأْنَفَتِ الضِّفْدِعُ قَائِلَةً: «لَقَدْ جِئْتُ إِلَى دَارِكِ فَرْحَانَةً مُسْتَبْشِرَةً، حَامِلَةً إِلَيْكِ أَجْمَلَ مُفَاجَأَةٍ وَأَسْعَدَ بُشْرَى؛ فَلَقِيتِنِي أَشْنَعَ لِقَاءٍ، وَقَابَلْتِنِي أَسْوَأَ مُقَابَلَةٍ.

وَسَتَرَيْنَ كَيْفَ أَجْزِيكِ الْجَزاءَ الْأَوْفَى، وَأَفْجَعُكِ فِي طِفْلِكِ الَّذِي تَلِدِينَ، وَهُوَ أَعَزُّ مَنْ تُحِبِّينَ.

---

[٣] انتظمتها: شملتها.

[٤] هراوة: عصا غليظة.

[٥] تركلينني: ترفسينني.

سَتَرَيْنَ كَيْفَ أُبَدِّلُهُ مِنْ بَشَرَتِهِ الْآدَمِيَّةِ فَرْوَ دُبٍّ؛ لِأُنَغِّصَ عَلَيْكِ سَعَادَتَكِ، وَأُكَدِّرَ هَنَاءَتَكِ.»



وَمَا إِنْ أَتَمَّتِ الضِّفْدِعُ وَعِيدَهَا، حَتَّى قَاطَعَهَا صَوْتٌ رَقِيقٌ عَذْبُ النَّبَرَاتِ، يَفِيضُ حُنُوًّا وَإِشْفَاقًا، وَيَسْتَعْطِفُ الضِّفْدِعَ قَائِلًا: «لَقَدْ أَسْرَفْتِ فِي الِانْتِقَامِ يَا أُخْتَاهُ، وَكَانَ الصَّفْحُ أَلْيَقَ بِكِ وَأَجْدَرَ! فَهَلْ نَسِيتِ أَنَّ الْعَفْوَ مِنْ شِيَمِ[٦] الْكِرَامِ؟»

[٦] شيم: صفات.

فَرَفَعَتْ «مَاجِدَةُ» رَأْسَهَا الْمُنَكَّسَ، فَرَأَتْ فِي أَعْلَى بَابِ حُجْرَتِهَا قُبَّرَةً جَاثِمَةً، تَتَوَسَّلُ إِلَى الضِّفْدِعِ الْغَضْبَى مُسْتَعْطِفَةً، وَتَبْذُلُ جُهْدَهَا لِتُخَفِّفَ مِنْ ثَوْرَتِهَا، وَتَقُولُ فِيمَا تَقُولُ: «لَقَدْ تَجَاوَزْتِ الْمَدَى فِي قَسْوَتِكِ يَا أُخْتَاهُ، وَأَخَذْتِ الْأَمِيرَةَ بِخَطَأٍ غَيْرِ مَقْصُودٍ، وَإِهَانَةٍ غَيْرِ مُتَعَمَّدَةٍ. وَلَوْ عَرَفَتِ الْفَتَاةُ مَنْ أَنْتِ، لَمَا لَقِيَتْكِ بِغَيْرِ الْإِجْلَالِ وَالتَّرْحِيبِ.

وَلَوْ أَنَّكِ تَرَوَّيْتِ قَلِيلًا لَرَأَيْتِهَا فِي سَعَةٍ مِنَ الْعُذْرِ.

فَمَا كَانَ لِيَدُورَ بِخاطِرِهَا أَنَّ أَمِيرَةَ الزَّوَابِعِ جَاءَتْ لِتُسْعِدَهَا بِزِيَارَةِ بَيْتِهَا، مُسْتَخْفِيَةً فِي صُورَةِ حَيَوَانٍ، قَبِيحِ الْهَيْئَةِ، بَشِعَ الْمَنْظَرِ.»

فَقَالَتِ الضِّفْدِعُ: «هَبِيهَا لَا تَعْرِفُ مَنْ أَنَا! فَكَيْفَ يَقْسُو قَلْبُهَا عَلَى ضِفْدِعٍ عَاجِزَةٍ عَنْ إِيذائِهَا؟ إِنَّ مَنْ يَقْسُو قَلْبُهُ عَلَى عَاجِزٍ ضَعِيفٍ، جَدِيرٌ أَنْ يَقْسُوَ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ؛ لِيَرَى أَثَرَ الْقَسْوَةِ فِي نَفْسِهِ.»

وَطَالَ الْحِوارُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ، فَلَمْ يَزِدْ أَمِيرَةَ الزَّوَابِعِ إِلَّا عِنَادًا وَإِصْرَارًا، وَعُتُوًّا وَاسْتِكْبارًا.

فَلَمَّا رَأَتْهَا أُخْتُهَا لَا تُلَبِّي[7] رَجاءَهَا، قَالَتْ لَهَا فِي لَهْجَةٍ حَازِمَةٍ: «ما دُمْتِ لَا تَسْمَعِينَ لِرَجَائِي؛ فَإِنِّي آمُرُكِ — بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنْ قُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ — أَنْ تَبْقَيْ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَشِعَةِ الَّتِي اخْتَرْتِهَا لِنَفْسِكِ، فَلا تُفَارِقِيهَا بَعْدَ الْيَوْمِ.

كَمَا آمُرُكِ أَنْ تُسْجَنِي فِي جِلْدِ الضِّفْدِعِ، جَزاءَ مَا أَشْقَيْتِ الْأَمِيرَةَ، وَسَجَنْتِ مَوْلُودَهَا الْقَادِمَ فِي فَرْوِ دُبٍّ.»

ثُمَّ الْتَفَتَتِ الْقُبَّرَةُ إِلَى الْأَمِيرَةِ، وَهِيَ تَقُولُ: «هَدِّئِي مِنْ رُوعِكِ[8] — أَيَّتُهَا الْأُمُّ الصَّغِيرَةُ الْعَاثِرَةُ الْحَظِّ — واعْتَصِمِي بِالصَّبْرِ، حَتَّى تَنْقَشِعَ هَذِهِ الْغُمَّةُ عَنْكِ.

وَسَتَرَيْنَ كَيْفَ يَسْتَرِدُّ وَلَدُكِ جَمَالَهُ، وَيَسْتَعِيدُ حُسْنَهُ وَبَهَاءَهُ؛ بِفَضْلِ مَا مَيَّزَهُ اللهُ بِهِ مِنْ مُرُوءَةٍ وَكَرَمٍ، وَصَفَاءِ نَفْسٍ.

وَسَتَرَيْنَ كَيْفَ يَنْجُو وَلِيدُكِ مِنَ اللَّعْنَةِ الَّتِي حَاقَتْ بِهِ، مَتَى حَانَ الْوَقْتُ؛ وَكَيْفَ يَخْلَعُ عَنْهُ فَرْوَ الدُّبِّ، وَيَعُودُ إِنْسَانًا بَهِيَّ الطَّلْعَةِ، مُشْرِقَ الصُّورَةِ، كَمَا خَلَقَهُ اللهُ.

---

[7] لا تلبي: لا تجيب.

[8] هدئي من روعك: اطمئني.

وَسَيَتَحَقَّقُ لَهُ ذَلِكَ، مَتَى وَجَدَ مَنْ يَقْبَلُ أَنْ يَفْدِيَهُ، وَيَكْسُوَ وَجْهَهُ بِفَرْوِ الدُّبِّ الَّذِي يُغَطِّيهِ.

وَمَتَى تَمَّ لَهُ هَذَا الْأَمَلُ السَّعِيدُ، عَادَتِ الْبَهْجَةُ إِلَى قَلْبِكِ.

وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ.»

فَقَالَتْ لَهَا «مَاجِدَةُ»، وَعَيْنَاهَا غَاصَّتَانِ[٩] بِالدُّمُوعِ: «شُكْرًا لَكِ يَا أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ، وَإِنْ كَانَ يَحْزُنُنِي أَنْ يَشْقَى وَلَدِي بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ زَمَنًا، طَالَ أَوْ قَصُرَ!

وَإِنِّي لَيُؤْلِمُنِي أَنْ يُمْسَخَ حَيَوَانًا ضارِيًا، قَبِيحَ الْمَظْهَرِ، شَرِسَ الْمَنْظَرِ.

وَيَزِيدُ فِي شِقْوَتِي، وَيُضاعِفُ مِنْ حَسْرَتِي، أَنْ أَرَاكِ عَاجِزَةً عَنْ دَفْعِ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ عَنْ وَلَدِي، بِرَغْمِ مَا تَمْلِكِينَ مِنْ قُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ!»

فَقَالَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «اعْتَصِمِي بِالصَّبْرِ، وَاسْتَسْلِمِي[١٠] لِقَضاءِ اللهِ، وَكُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي لَنْ أَتَخَلَّى عَنْكِ وَلا عَنْ وَلَدِكِ.»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «لا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِي رَدِّ الْقَضَاءِ، وَلَيْسَ لِي بُدٌّ مِنَ الْإِذْعَانِ[١١] لِمَشِيئَةِ اللهِ، وَالرِّضَى بِمَا قَسَمَ.»

فَقَالَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «مَتَى رُزِقْتِ هَذَا الْمَوْلُودَ، وَجَبَ عَلَيْكِ أَنْ تُطْلِقِي عَلَيْهِ اسْمَ: «الدُّبِّ».

وَحَذَارِ أَنْ تُنَادِيهِ بِغَيْرِ هَذَا اللَّقَبِ، حَتَّى يَحِينَ الْيَوْمُ الَّذِي يُؤْذَنُ لَكِ فِيهِ بِتَغْيِيرِ هَذَا الِاسْمِ الْكَرِيهِ، وَمُنَادَاتِهِ بِاسْمِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي أَخْتَارُهُ لَهُ.»

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْجِنِّيَّةُ مِنْ كَلِمَاتِهَا الْحَكِيمَةِ، طَارَتْ فِي الْهَواءِ.

أَمَّا أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ، فَعَادَتْ حَانِقَةً غَضْبَى، يَكَادُ صَدْرُهَا يَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ، لِمَا تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنْ سُخْطِ أُخْتِهَا وَانْتِقَامِهَا.

وَمَشَتِ الضِّفْدِعُ مُتَخاذِلَةً فِي خُطُواتٍ مُتَباطِئَةٍ، كَأَنَّهَا مُقَيَّدَةٌ.

---

[٩] غاصتان: ممتلئتان.

[١٠] استسلمي: اخضعي.

[١١] الإذعان: الخضوع.

وَمَا زالَتْ تَتَلَفَّتُ إِلَى «مَاجِدَةَ» بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَالْغَضَبُ آخِذٌ مِنْهَا كُلَّ مَأْخَذٍ، حَتَّى غابَتْ عَنْ عَيْنَيْهَا؛ فَانْدَفَعَتْ تَنْفُثُ السَّمَّ مِنْ فَمِهَا — فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهَا — لِتُفْسِدَ بِهِ الْأَعْشَابَ، وَتُسَمِّمَ النَّباتَ وَالشُّجَيْرَاتِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا.

وَكَانَ سَمُّهَا زُعَافًا قَاتِلًا، لَا يَنْمُو مَعَهُ نَباتٌ، وَلا يَعِيشُ فِيهِ حَيَوَانٌ؛ فَلا عَجَبَ إِذا أَطْلَقَ عَلَيْهِ النَّاسُ بَعْدَ الْيَوْمِ: «طَرِيقَ الْهَلاكِ».

# ذِكْرَياتٌ حَزِينَةٌ

وَلَمَّا خَلَتْ «مَاجِدَةُ» بِنَفْسِهَا، وَقَابَلَتْ بَيْنَ يَوْمِهَا وَأَمْسِهَا، فَاضَ بِهَا الْحُزْنُ، واشْتَدَّ بِهَا الْأَلَمُ، فَانْخَرَطَتْ فِي الْبُكَاءِ.[1]

وَكَانَتْ «حَلِيمَةُ» — حِينَئِذٍ — قَدْ أَتَمَّتْ عَمَلَهَا؛ فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَيْهَا، تَمَلَّكَتْهَا الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ. وَسَأَلَتْهَا «حَلِيمَةُ»: مَا بَالُهَا مُسْتَسْلِمَةً لِأَحْزانِهَا وَهَواجِسِهَا، غارِقَةً فِي أَوْهَامِهَا وَوَساوِسِهَا؟

فَعَجَزَتْ «مَاجِدَةُ» عَنِ الْجَوابِ.

فَأَعَادَتْ «حَلِيمَةُ» سُؤالَهَا، وَقَالَتْ لَهَا مُتَرَفِّقَةً: «مَا بَالُ مَوْلاتِي الْعَزِيزَةِ خائِفَةً واجِمَةً،[2] مَحْزُونَةً مُتَأَلِّمَةً؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي كَدَّرَ صَفْوَهَا، وَنَغَّصَ عَيْشَهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَدْخُلْ دَارَهَا؟»

فَقَالَتْ لَهَا «مَاجِدَةُ»: «ما أَعْجَبَ مَا حَدَثَ يَا «حَلِيمَةُ»! فَإِنَّ أَمِيرَةً خَبِيثَةً رَعْنَاءَ،[3] مِنْ أَمِيرَاتِ الْجِنِّ، قَدِمَتْ عَلَيَّ فِي صُورَةِ ضِفْدِعٍ مُشَوَّهَةِ الصُّورَةِ، مُفَزِّعَةِ الْهَيْئَةِ، وَانْدَفَعَتْ إِلَى الْكَرِيزِ تَلْتَهِمُهُ فِي شَرَهٍ عَجِيبٍ.

وَكَانَ فِي رُفْقَتِهَا أُخْتُهَا، وَهِيَ — عَلَى الْعَكْسِ مِنْهَا — أَمِيرَةٌ كَرِيمَةُ النَّفْسِ.

---

[1] انخرطت في البكاء: اشتد بكاؤها.

[2] واجمة: حزينة.

[3] رعناء: حمقاء جاهلة.

وَقَدْ أَقْبَلَتْ كِلْتَاهُمَا مُسْتَخْفِيَةً فِي غَيْرِ صُورَتِهَا، فَاتَّخَذَتِ الْأُولَى هَيْئَةَ ضِفْدِعٍ دَمِيمَةٍ، وَتَبَدَّتِ الْأُخْرَى فِي صُورَةِ قُبَّرَةٍ جَمِيلَةٍ وَسِيمَةٍ!»

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «شَدَّ مَا لَقِيتِ مِنَ الْمُفزِّعَاتِ يَا مَوْلاتِي! وَلَكِنْ خَبِّرِينِي: هَلْ عَجَزَتِ الْأُخْتُ الْخَيِّرَةُ الْكَرِيمَةُ عَنْ مَنْعِ إِساءَةِ الْأُخْتِ اللَّئِيمَةِ؟»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «نَعَمْ، عَجَزَتْ بِرَغْمِ قُوَّتِهَا!

عَجَزَتِ الْأُخْتُ الْوَفِيَّةُ الطَّاهِرَةُ عَنْ أَنْ تَمْحُوَ إِساءَةَ أُخْتِهَا الْغادِرَةِ الْمَاكِرَةِ!

عَلَى أَنَّهَا — وَالْحَقُّ يُقَالُ — لَمْ تُقَصِّرْ فِي بَذْلِ مَعُونَتِهَا، لِتَخْفِيفِ شَرِّ أُخْتِهَا، وَتَهْوِينِ كَيْدِهَا، بَعْدَ أَنْ أَعْجَزَهَا مَنْعُهُ.

وَلا شَكَّ فِي أَنَّ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ.»

ثُمَّ قَصَّتْ «مَاجِدَةُ» عَلَى «حَلِيمَةَ» كُلَّ مَا حَدَثَ لَهَا ... وَكَيْفَ انْدَفَعَتْ أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ فِي غَضَبِهَا وَشَرَاسَتِهَا إِلَى الانْتِقَامِ مِنْ مَوْلُودِهَا الْقَادِمِ؛ فَصَبَّتْ عَلَيْهِ نِقْمَتَهَا، وَأَصْدَرَتْ عَلَيْهِ حُكْمَهَا الْقَاسِيَ.

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «أَيَّ حُكْمٍ أَصْدَرَتْ يَا مَوْلاتِي؟»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتَسِيَ جِسْمُهُ الرَّقِيقُ فَرْوَ دُبٍّ.»

فَصَرَخْتَ «حَلِيمَةُ» مِنْ هَوْلِ مَا سَمِعَتْ، وَتَمَلَّكَهَا الْفَزَعُ فَلَمْ تَسْتَطِعْ لِدُمُوعِهَا حَبْسًا ... وَانَخَرَطَتْ مَعَ صَاحِبَتِهَا فِي الْبُكَاءِ.

وَلَمْ تَتَمَالَكْ «حَلِيمَةُ» أَنْ تُخْفِيَ أَلَمَهَا؛ حِينَ تَمَثَّلَتْ مَا اعْتَرَضَ سَيِّدَتَهَا مِنْ سُوءِ حَظٍّ جَلَبَ عَلَيْهَا كَارِثَةً أَلِيمَةً.

وَرَاحَتْ تَسْأَلُهَا، وَهِيَ مُتَفَجِّعَةٌ: «أَيَكُونُ وَلِيُّ الْعَهْدِ فِي صُورَةِ دُبٍّ؟ يَا لَلْهَوْلِ! وَكَيْفَ يَتَلَقَّى زَوْجُكِ الْمَلِكُ هَذَا النَّبَأَ؟ وَبِأَيِّ عَيْنٍ يَرَاكِ؟ وَبِأَيِّ قَلْبٍ يَرْعَاكِ؟»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «بَلْ كَيْفَ أَتَمَثَّلُ نَفْسِي حِينَ تَحُلُّ بِي هَذِهِ الْمُصِيبَةُ؟

إِنَّ قَلْبِي لَيَكَادُ يَنْفَطِرُ[٤] حُزْنًا، كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي هَوْلِ مَا أَنَا قَادِمَةٌ عَلَيْهِ، وَتَمَثَّلْتُ شَنَاعَةَ هَذَا الْمَصِيرِ التَّاعِسِ.

[٤] ينفطر: ينشق.

وَمَا أَظُنُّكِ نَاسِيَةً — طُولَ عُمْرِكِ — أَنَّنَا لَمْ نَظْفَرْ بِالنَّجَاةِ مِمَّا كَانَ يَتَهَدَّدُنَا مِنْ هَلاكٍ مُحَقَّقٍ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ واصَلْنَا الْفِرَارَ زَمَنًا طَوِيلًا.

وَلَعَلَّكِ لَا تَزالِينَ تَذْكُرِينَ عُنْفَ مَا بَذَلْنَاهُ مِنْ جُهْدٍ فِي مُقَاوَمَةِ الْعَاصِفَةِ الَّتِي اعْتَرَضَتْنَا فِي طَرِيقِنَا، وَكَيْفَ ثَبَتْنَا لَهَا — عَلَى قُوَّتِهَا وَضَعْفِنَا — وَهِيَ تُهَدِّدُنَا بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى بِالدَّمَارِ، وَتَكَادُ تُطِيحُ بِنَا فِي كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِنَا، وَتَجْرُفُنَا فِي كُلِّ خُطْوَةٍ مِنْ خُطُواتِنَا؟»

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «ما أَكْثَرَ مَا يُنْسِينَا الزَّمَانُ، غَرَائِبَ مَا نَلْقَاهُ مِنَ الْمَصائِبِ وَالْأَحْزانِ، فِيمَا مَرَّ مِنْ أَيَّامِنَا، وَسَلَفَ مِنْ أَعْمَارِنَا. ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ.

عَلَى أَنَّ فِي الْحَيَاةِ أَحْدَاثًا تَمُرُّ بِالْإِنْسَانِ فَتَثْبُتُ فِي ذاكِرَتِهِ، وَتَرْسَخُ فِي مُخَيِّلَتِهِ طُولَ الْحَيَاةِ، دُونَ أَنْ يَمْحُوَهَا الزَّمَانُ، أَوْ يُعَفِّيَ عَلَيْهَا ذَيْلُ النِّسْيَانِ.

وَهٰذِهِ الْقِصَّةُ مِنْهَا. فَكَيْفَ أَنْسَاهَا وَهِيَ عَالِقَةٌ بِذِهْنِي أَيْنَمَا كُنْتُ، وَحَيْثُمَا حَلَلْتُ! كَيْفَ أَنْسَى مَا لَقِينَاهُ مِنَ الْأَهْوَالِ فِي ذَلِكِ الْيَوْمِ؟

أَلَمْ نُواصِلِ الْجَدْفَ — فِي أَثْنَاءِ الْعَاصِفَةِ — وَالْغَرَقُ يَتَهَدَّدُنَا، وَالْأَمْواجُ مُتَحَفِّزَةٌ لِابْتِلاعِنَا. وَظَلِلْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً كَامِلَةً؟

وَظَلَّ الْفَزَعُ يُطَارِدُنَا؛ فَلَمْ نَطْمَئِنَّ لِلنَّجَاةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَلَغْنَا هَذَا الْمَكَانَ، وَأَصْبَحْنَا مِنْ مَمْلَكَةِ «الْباطِشِ» عَلَى مَسافَةِ عِدَّةِ أَمْيَالٍ؟ أَيَّ جَبَّارٍ كَانَ!

إِنَّ قَسْوَةَ «الْباطِشِ» لَا تَبْرَحُ مُخَيِّلَتِي[٥] أَبَدًا.

لَقَدْ عَرَفْنَاهُ رَمْزًا لِلْحَمَاقَةِ وَالْفَظاظَةِ، واحْتَمَلْنَاهُ بِرَغْمِ ذَلِكِ.

وَلَكِنَّ جُنُونَهُ وَثَوْرَتَهُ عَلَيْكِ قَدْ بَلَغا أَقْصاهُمَا حِينَ تَصَدَّيْتِ لِمَنْعِهِ عَنِ افْتِرَاسِ أَخِيهِ: فَيْرُوزَ وَزَوْجَتِهِ: سَلْوَى!»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «أَيُّ أَلَمٍ كَابَدْنَاهُ أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ، وَأَيُّ هَوْلٍ لَقِينَاهُ!

لَقَدْ كُنَّا فِي عِدَادِ الْهَلْكَى، لَوْلا عِنَايَةُ اللهِ. وَكَانَ مَوْتِي مُحَقَّقًا لَوْ لَمْ أُطْلِقْ سَاقَيَّ لِلرِّيحِ. وَلَوْلا قُدْرَتِي النَّادِرَةُ عَلَى الْجَرْيِ لَوَقَعْتُ فِي يَدِ هَذَا الْمُفْتَرِسِ، وَلَكَانَ نَصِيبِي مِنْهُ أَنْ أَلْقَى حَتْفِي[٦] بِلا رَحْمَةٍ وَلا شَفَقَةٍ.

---

[٥] لا تبرح مخيلتي: لا تفارق خيالي.

[٦] حتفي: هلاكي.

عَلَى أَنَّنِي — بَعْدَ كُلِّ مَا مَرَّ بِي مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَكَارِهِ — لا أَشْعُرُ بِالْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. وَلا أَزالُ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَهْتَدِيَ السَّفَّاحُ إِلَى مَكَانِي، فَيَبْطِشَ بِي بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ.

وَلا يَزالُ قَلْبِي يَمْتَلِئُ خَوْفًا وَرُعْبًا، كُلَّمَا مَرَّ بِي هَذَا الْخاطِرُ.

وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّهُ لَنْ يَكُفَّ عَنْ مُطَارَدَتِي، وَلَنْ يَشْفِيَ غَلِيلَ قَلْبِهِ إِلَّا إِذَا سَلَبَنِي الرُّوحَ، وَحَرَمَنِي الْحَيَاةَ!»

فَقَالَتْ لَهَا «حَلِيمَةُ»: «حَسْبُكِ مَا فَاضَتْ بِهِ نَفْسُكِ مِنَ الْأَحْزانِ.

وَهَلُمِّي[٧] إِلَى الْمَائِدَةِ؛ فَمَا يُجْدِي الْبُكَاءُ. وَلَوْ قَضَيْنَا اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي الْحُزْنِ لَمَا حَالَ ذَلِكِ مِنْ وُقُوعِ الْكَارِثَةِ، وَلا خَفَّفَ مِنْ وَقْعِهَا عَلَيْنَا.

وَهَيْهَاتَ أَنْ يَمْنَعَ الْحَذَرُ شَيْئًا مِمَّا قَضَى بِهِ الْقَدَرُ، وَلا حِيلَةَ لَنَا فِي ذَلِكِ.

وَلا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ الْمَوْلُودُ لِلْوُجُودِ، وَعَلَيْهِ فَرْوُ دُبٍّ.

وَمَا أَجْدَرَكِ أَنْ تَعْتَصِمِي بِالصَّبْرِ، فَلا تَسْتَسْلِمِي لِمَا لَا يُفِيدُ.

وَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ تَشْغَلِي نَفْسَكِ بِمَا يَعُودُ عَلَى مَولُودِكِ الْقَادِمِ بِالنَّفْعِ.

وَفِي هَذَا — وَحْدَهُ — عَزاؤُنَا وَسَلْوَتُنَا.

وَلَيْسَ مِنْ وَسِيلَةٍ لِتَخْفِيفِ هَذَا الْمُصابِ الْجَسِيمِ، إِلَّا أَنْ نُعْنَى بِتَعَهُّدِهِ، وَنُحْسِنَ الْقِيَامَ عَلَى تَرْبِيَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَتَنْشِئَتِهِ عَلَى كَرِيمِ الْفَضائِلِ؛ فَإِنَّهَا كَفِيلَةٌ بِإِسْعَادِهِ، وَتَخْلِيصِهِ مِنْ هَذَا الْبَلاءِ.

فَلْنَعْمَلْ لِهَذِهِ الْغايَةِ النَّبِيلَةِ؛ حَتَّى إِذَا كَبِرَ وَتَرَعْرَعَ، أَصْبَحَ مِثالًا لِطِيبَةِ النَّفْسِ، وَنَمُوذَجًا لِطَهَارَةِ الْخُلُقِ، وَلَنْ تَخْذُلَهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ النَّبِيلَةُ.

وَسَتُتَاحُ لَهُ الْفُرْصَةُ — ذاتَ يَوْمٍ — أَنْ يَلْقَى نَفْسًا كَرِيمَةً تَقْدُرُهُ، فَيَدْفَعُهَا إِعْجَابُهَا بِهِ إِلَى الِانْدِفَاعِ فِي سَبِيلِ إِنْقَاذِهِ، وَلا تُحْجِمُ عَنْ تَفْدِيَتِهِ بِنَفْسِهَا.

وَمَتَى رَضِيَتْ بِذَلِكِ، انْقَضَتْ أَيَّامُ الشَّقَاءِ، وَتَقَشَّعَتْ سُحُبُ النَّحْسِ، وَاسْتَرَدَّ وَلَدُكِ بَهَاءَهُ، وَزايَلَهُ الْفَرْوُ الْقَبِيحُ الَّذِي يَكْسُو وَجْهَهُ الرَّقِيقَ.

ذَلِكِ رَأْيِي، أُعْلِنُهُ لَكِ فِي غَيْرِ مُوارَبَةٍ وَلا الْتِواءٍ.

---

[٧] هلمي: أقبلي.

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِيَدِي، لانْتَقَمْتُ مِنْ أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ أَعْنَفَ انْتِقَامٍ، وَلَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَنْقُلَ فَرْوَ الدُّبِّ إِلَى جِسْمِهَا، فَيَكْسُوَهُ مَدَى حَيَاتِهَا.

وَلَكِنْ «ما كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ»!

وَهُنَا نَهَضَتْ «مَاجِدَةُ» — وَلَعَلَّكَ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ سِيَاقِ الْحَدِيثِ أَنَّهَا مَلِكَةٌ وَلَيْسَتْ قَرَوِيَّةً، كَمَا فَهِمْتَ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ — وَقَدْ أَخَذَتْ بِنَصِيحَةِ رَفِيقَتِهَا الْوَفِيَّةِ «حَلِيمَةَ»، بَعْدَ أَنِ اقْتَنَعَتْ أَنَّ الْأَمِيرَ الدُّبَّ لَنْ يَبْقَى عَلَى هَيْئَتِهِ الْمُنَفِّرَةِ إِلَّا زَمَنًا مَحْدُودًا، تَحُلُّ بَعْدَهُ السَّعَادَةُ مَحَلَّ الشَّقَاءِ.

وَكَمْ تَمَنَّتْ لَوْ قَبِلَتِ الْجِنِّيَّةُ مِنْهَا أَنْ تَفْتَدِيَهُ بِنَفْسِهَا؛ وَلَكِنْ هَيْهَاتَ![٨]

وَعَادَتِ الْمَلِكَةُ إِلَى مَخْدَعِهَا مَعَ وَصِيفَتِهَا، وَلَمْ تَلْبَثا أَنِ اسْتَسْلَمَتَا لِلرُّقَادِ.

---

[٨] هيهات: بعُد.

# الدُّبُّ الصَّغِيرُ

وَمَرَّتْ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ الْمُفَزِّعِ أَشْهُرٌ ثَلَاثَةٌ، لَا يَمُرُّ يَوْمٌ إِلَّا ذَكَّرَهَا بِهِ، وَمثَّلَ لِعَيْنَيْهَا مَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ فَاجِعَةٍ أَلِيمَةٍ.

وَقَلَّمَا خَلَتْ إِلَى نَفْسِهَا إِلَّا تَبادَرَتْ[1] إِلَى خَيَالِهَا صُورَةُ الضِّفْدِعِ الشَّرِسَةِ، وَمَا أَنْذَرَتْهَا بِهِ مِنْ هَوْلٍ فَظِيعٍ، وَانْتِقَامٍ شَنِيعٍ.

ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَحْمَدَ اللهَ عَلَى أَنْ قَيَّضَ لَهَا تِلْكَ الْقُبَّرَةَ الْكَرِيمَةَ؛ وَلَوْلَاهَا لَتَضاعَفَتِ الْكَارِثَةُ، وَعَظُمَتِ الْمُصِيبَةُ.

وَلَمَّا تَمَّتِ الْأَشْهُرُ الثَّلَاثَةُ أَحَسَّتِ الْمَلِكَةُ آلامَ الْوَضْعِ.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَهَا الْمَخاضُ،[2] فَوَلَدَتْ طِفْلَهَا التَّاعِسَ، الَّذِي نَحَسَتْهُ أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ، وَكَتَبَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَشْقَى بِجِلْدِ الدُّبِّ.

وَمَا كَادَ الْأَمِيرُ يَخْرُجُ لِلْوُجُودِ، حَتَّى أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ أُمُّهُ الِاسْمَ الَّذِي اخْتَارَتْهُ الْقُبَّرَةُ لَهُ، وَأَمَرَتْ «حَلِيمَةَ» أَلَّا تُنَادِيَ وَلِيدَهَا بِغَيْرِ هَذَا اللَّقَبِ الْكَرِيهِ.

وَهَكَذَا كَانَتْ وِلادَةُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»!

---

[1] تبادرت: أسرعت.

[2] المخاض: وجع الولادة.

وَقَدْ حَاوَلَتِ الْأُمُّ وَوَصِيفَتَهَا أَنْ تَتَعَرَّفَا هَيْئَةَ الطِّفْلِ أَوْ تَتَبَيَّنَا وَجْهَهُ فَلَمْ تَسْتَطِيعَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا؛ فَقَدْ غَطَّاهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ قَاتِمٌ، سَتَرَ جِسْمَهُ كُلَّهُ، فَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ لِرَائِيهِ مَا يَتَعَرَّفُ بِهِ شِيئًا مِنْ حَقِيقَتِهِ، أَوْ يَتَبَيَّنُ مَا يُخْفِيهِ مِنْ مَلاحَةٍ أَوْ دَمَامَةٍ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ خِلالِ الشَّعْرِ الْكَثِيفِ غَيْرُ فَمِهِ وَعَيْنَيْهِ.

وَكَانَتْ عَيْنَاهُ حِينَئِذٍ مُغْمَضَتَيْنِ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» أَنْ تَرَيَاهُمَا، قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَهُمَا.

وَلَوْلا مَا تُضْمِرُهُ «حَلِيمَةُ» مِنْ فَرْطِ الْمَحَبَّةِ[3] وَصادِقِ الْوَلاءِ، لَكَانَ الْهَلاكُ مَصِيرَ هَذَا التَّاعِسِ الْمِسْكِينِ، وَلَكَانَ الْإِهْمَالُ أَوَّلَ مَا يَلْقَاهُ.

وَلا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ كَانَ لِدَمَامَتِهِ، وَقُبْحِ صُورَتِهِ، كَفِيلًا بِتَنْفِيرِ النَّاسِ مِنْ رُؤْيَتِهِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مِنَ الشَّنَاعَةِ مَبْلَغًا لَمْ يُصِبْ غَيْرَهُ مِنْ قَبْلِهِ.

لَمْ تَكَدْ «مَاجِدَةُ» تَضَعُ وَلِيدَهَا، حَتَّى ضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا حَانِيَةً،[4] وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مُنَاجِيَةً، تَقُولُ لَهُ، وَهِيَ بَاكِيَةٌ: «أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، مَنْ ذا الَّذِي يُحِبُّكَ أَكْثَرَ مِنِّي؟ وَأَيُّ إِنْسَانٍ غَيْرِي يَرْضَى أَنْ يَفْدِيَكَ بِنَفْسِهِ؟

فَلَيْتَ الْجِنِّيَّةَ تَقْبَلُ مِنِّي الْفِدَاءَ، وَتَرْضَى أَنْ أُبادِلَكَ بِهَذَا الْكِساءِ! وَلَيْتَ مَحَبَّتِي لَكَ تُمَكِّنُنِي مِن أَنْ أَرْفَعَ عَنْ وَجْهِكَ هَذَا الشَّعْرَ الْقَاتِمَ الْكَثِيفَ!»

وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَلَّا تَسْمَعَ مِنْهُ جَوابًا عَنْ سُؤالِهَا؛ فَهُوَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِهَذَا الْعَالَمِ، لَمْ يَجِئْ إِلَيْهِ إِلَّا مُنْذُ لَحَظاتٍ، وَهُوَ — إِلَى ذَلِكَ — مُسْتَغْرِقٌ فِي النَّوْمِ.

وَجَلَسَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى جَانِبِ «مَاجِدَةَ» تُهَوِّنُ عَلَيْهَا مِنْ آلامِهَا، وَتَشْرَكُهَا فِي أَحْزانِهَا.

ثُمَّ كَفْكَفَتْ مِنْ دَمْعِهَا، وَقَالَتْ لـ «مَاجِدَةَ»: «لا زِلْتُ أَقُولُ لَكِ: إِنَّهَا غَمْرَةٌ[5] مِنَ الْغَمَرَاتِ، لَا تَلْبَثُ أَنْ تَزُولَ، وَمُصِيبَةٌ مِنَ الْمَصائِبِ، لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْقَضِيَ، كَمَا يَنْقَضِي كُلُّ شَيْءٍ مِنْ مَسَرَّاتِ الْحَيَاةِ وَمَساءاتِهَا.

وَلَنْ يَدُومَ حُزْنُكِ طَوِيلًا إِنْ شَاءَ اللهُ. ذَلِكِ يَقِينٌ ثابِتٌ لا يُساوِرُنِي فِيهِ شَكٌّ. وَسَيَعُودُ لِوَلَدِكِ الصَّغِيرِ رَوْنَقُهُ وَبَهَاؤُهُ، مَتَى انْتَهَتْ أَيَّامُ الشَّقَاءِ.

---

[3] فرط المحبة: زيادة المحبة.

[4] حانية: عاطفة.

[5] غمرة: شدة ومصيبة.

وَمَاذَا عَلَيْنَا إِذَا أَطْلَقْنَا عَلَيْهِ — مُنْذُ الْآنَ — اسْمَ: الْأَمِيرِ «فَائِقٍ»؟»

فَصَرَخَتْ بِهَا «مَاجِدَةُ»، وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُهَا فَزَعًا مِنْ جُرْأَتِهَا، وَانْدِفَاعِهَا وَتَهَوُّرِهَا. وَقَالَتْ لَهَا تُحَذِّرُهَا، وَقَدْ تَهَدَّجَ مِنَ الرُّعْبِ صَوْتُهَا: «إِيَّاكِ — يَا «حَلِيمَةُ» — أَنْ تُكَرِّرِي هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَإِلَّا سَاءَتِ الْعَاقِبَةُ، وَتَعَرَّضْنَا لِسُخْطِ الْجِنِّيَّةِ وَعِقَابِهَا.

واعْلَمِي أَنَّ قَضاءَ اللهِ لَا يُقَابَلُ بِالتَّمَرُّدِ وَالْعِصْيَانِ، بَلْ بِالطَّاعَةِ وَالِامْتِثالِ،[6] وَلَنْ يُثْمِرَ الْعِنَادُ إِلَّا شَرًّا، وَلَنْ تَعُودَ عَلَيْنَا الْمُخَالَفَةُ بِغَيْرِ الْوَبالِ.»[7]

فَأَطَاعَتْ «حَلِيمَةُ» أَمْرَ سَيِّدَتِهَا، وَاسْتَصْوَبَتْ رَأْيَهَا.

وَأَقْبَلَتْ «مَاجِدَةُ» عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» تَلُفُّهُ فِي الثِّيَابِ الَّتِي أَعَدَّتْهَا لَهُ.

وَانْحَنَتْ عَلَيْهِ لِتُقَبِّلَهُ؛ فَأَدْمَى شَعْرُهُ وَجْهَهَا، وَجَرَحَ شَفَتَيْهَا.

فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا مَذْعُورَةً مُتَأَلِّمَةً، وَجَمْجَمَتْ[8] بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ: «يا لَلشَّقَاءِ! لَقَدْ أَعْجَزْتَنِي عَنْ تَقْبِيلِكَ، بِمَا تَكَاثَفَ حَوْلَ جِسْمِكَ مِنْ شَعْرٍ شَائِكٍ شَدِيدِ الْوَخْزِ، كَأَنَّهُ الْقَنَافِذُ.»

وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَمِيرِ الصَّغِيرِ مَا يُعَابُ إِلَّا مَنْظَرُهُ وَفَرْوُهُ. أَمَّا حَقِيقَةُ نَفْسِهِ الشَّفَّافَةِ، فَكَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ مَظْهَرِهِ الْخَشِنِ الْمُنَفِّرِ.

كَانَ — فِي الْحَقِّ — آيَةً مِنْ آياتِ الظَّرْفِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَسَمَاحَةِ النَّفْسِ، وَدَمَاثَةِ الْخُلُقِ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ — فِي هَذِهِ الْخِلالِ الْكَرِيمَةِ — نَظِيرٌ بَيْنَ الْأَطْفَالِ جَمِيعًا؛ فَلا عَجَبَ إِذَا أَحَبَّتْ «حَلِيمَةُ» فِيهِ تِلْكَ الْمَزايا النَّبِيلَةَ، وَشُغِفَتْ بِهِ.

وَهَكَذَا عَاشَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، وَمَا زالَ كَذَلِكَ حَتَّى نَمَتْ سِنُّهُ، وَأَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدَّسْكَرَةِ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَرَاهُ حَتَّى يَفِرَّ مِنْهُ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عُرِفَ أَمْرُهُ، وَذَاعَ صِيتُهُ بَيْنَ سُكَّانِ الْقَرْيَةِ وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الْقُرَى، وَأَصْبَحَ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي دَمَامَتِهِ، وَقُبْحِ صُورَتِهِ.

---

[6] الامتثال: الخضوع.

[7] الوبال: الهلاك.

[8] وجمجمت: تكلمت كلامًا لا يبين.

وَكَانَ الصِّغارُ لَا تَقَعُ أَبْصارُهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُسْلِمُوا سَيقَانَهُمْ لِلْفِرَارِ هَرَبًا مِنْ رُؤْيَتِهِ. وَلا يَرَاهُ أَحَدٌ — مِنَ الرِّجَالِ أَوِ النِّساءِ عَلَى السَّواءِ — حَتَّى يَطْرُدَهُ وَيَزْجُرَهُ، وَيُقْصِيَهُ عَنْهُ وَيَنْهَرَهُ.

وَكَانَتْ «حَلِيمَةُ» إِذَا صَحِبَتْهُ مَعَهَا — وَهِيَ ذاهِبَةٌ إِلَى السُّوقِ — نَفَرَ الشَّارُونَ مِنْهُ، وَتَحَامَوْا رُؤْيَتَهُ.[٩]

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» تَبْكِي فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ، نَادِبَةً سُوءَ حَظِّهَا، وَشَقَاءَ وَلَدِهَا، وَلا تَكُفُّ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُ بِانْقِضاءِ عَهْدِ التَّعَاسَةِ وَالنَّحْسِ.

وَطَالَمَا نَادَتْ أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ، تَسْتَعْجِلُهَا أَنْ تُنْقِذَ وَلَدَهَا، وَتُخَلِّصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ.

وَكَانَ الْأَمَلُ يُعَاوِدُهَا كُلَّمَا لَمَحَتْ عَيْنَاهَا قُبَّرَةً عَلَى غُصْنِ شَجَرَةٍ جَاثِمَةً، أَوْ طَائِرَةً فِي الْفَضاءِ هائِمَةً.

وَكَانَتْ تُعَلِّلُ نَفْسَهَا[١٠] بِكَاذِبِ الرَّجَاءِ: أَنْ تَكُونَ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ مُسْتَخْفِيَةً فِي صُورَةِ إِحْدَى الْقَنَابِرِ. ثُمَّ لَا تَلْبَثُ الْحَقِيقَةُ أَنْ تَنْكَشِفَ لَهَا، فَتُدْرِكَ أَنَّ مَا تَرَاهُ لَمْ يَكُنْ — لِسُوءِ حَظِّهَا — إِلَّا قَنَابِرَ حَقِيقِيَّةً، وَأَنَّ أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ لَيْسَتْ بَيْنَهُنَّ، وَلَيْسَتْ مُسْتَخْفِيَةً فِي صُورَةِ إِحْدَاهُنَّ.

---

[٩] تحاموا رؤيته: اجتنبوها.

[١٠] تعلل نفسها: تلهي نفسها.

# نَرْجِسُ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَانْقَضَتِ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ، وَنَمَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَتَرَعْرَعَ، حَتَّى بَلَغَ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهِ؛ فَصَلُبَ عُودُهُ، واشْتَدَّ جِسْمُهُ، وَقَوِيَ سَاعِدُهُ.

وَكَانَ لَهُ — بِرَغْمِ فَرْوِهِ الْخَشِنِ — صَوْتٌ عَذْبٌ يَفِيضُ رِقَّةً وَحَنَانًا، وَعَيْنَانِ نَجْلاوَانِ، يَتَأَلَّقُ فِيهِمَا الْحُسْنُ، وَيُشْرِقُ فِي نَظَرَاتِهِمَا نُورُ الذَّكَاءِ.

وَتَبَدَّلَ شَعْرُهُ الشَّائِكُ، فَلانَ مَلْمَسُهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ...

وَكَانَ شَعْرُهُ — كَمَا حَدَّثْتُكَ — أَلِيمَ الْوَخْزِ، كَأَنَّهُ أَسْنَانُ الْإِبَرِ، وَأَطْرَافُ الشَّوْكِ، تَجْرَحُ مَنْ يَلْمُسُهَا وَتُدْمِيهِ، وَتُعَذِّبُهُ وَتُشْقِيهِ.

وَلَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ مَا لَقِيَتْهُ «مَاجِدَةُ» مِنَ الْأَلَمِ، حِينَ هَمَّتْ بِتَقْبِيلِهِ عَقِبَ وِلادَتِهِ، فَجَرَحَهَا شَعْرُهُ الْكَثِيفُ، فَلَمْ تَجْرُؤْ عَلَى تَقْبِيلِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَقْضِي أَغْلَبَ أَوْقَاتِهِ مُنْفَرِدًا بِنَفْسِهِ، مُسْتَسْلِمًا لِآلامِهِ، غارِقًا فِي تَفْكِيرِهِ الْحَزِينِ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنَ الْعُزْلَةِ وَالِانْفِرَادِ؛ فَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى مِثْلِهِ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى صَاحِبٍ يُؤْنِسُهُ؛ فَقَدْ كَانَتْ بَشَاعَةُ مَنْظَرِهِ كَفِيلَةً بِتَنْفِيرِ كُلِّ مَنْ يَدْنُو مِنْهُ: سِيَّانِ فِي ذَلِكَ صِغارُ الْأَطْفَالِ، وَكِبارُ النِّساءِ وَالرِّجَالِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ سَاقَتْهُ قَدَمَاهُ إِلَى الْغَابَةِ — وَهِيَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ دَسْكَرَتِهِ — فَقَضَى فِيهَا وَقْتًا جَمِيلًا، هادِئَ النَّفْسِ، مُطْمَئِنَّ الْخاطِرِ.

ثُمَّ اشْتَدَّ الْحَرُّ فَجْأَةً، فَكَادَ يُنَغِّصُ عَلَيْهِ نُزْهَتَهُ، فَالْتَمَسَ[١] مَكَانًا يَأْوِي إِلَيْهِ، لِيَسْتَرْوِحَ فِيهِ النَّسَمَاتِ.

وَلَمْ يَمْشِ بِضْعَ خُطُواتٍ، حَتَّى رَأَى — عَلَى مَدِّ الْبَصَرِ مِنْهُ — كُتْلَةً بَيْضاءَ وَرْدِيَّةً، مُلْقَاةً تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ وارِفَةِ الظِّلالِ ... فَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا فِي حَذَرٍ لِيَتَعَرَّفَهَا.

وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتَهُ حِينَ تَبَيَّنَ أَنَّ تِلْكَ الْكُتْلَةَ الصَّغِيرَةَ الْمُوَرَّدَةَ اللَّوْنِ لَيْسَتْ إِلَّا طِفْلَةً صَغِيرَةً فِي ظِلِّ الشَّجَرَةِ.

وَكَانَتِ الطِّفْلَةُ تَبْدُو لِرَائِيهَا فِي الْعَامِ الثَّالِثِ مِنْ عُمْرِهَا، وَقَدْ مَيَّزَهَا اللهُ بِجَمَالٍ نَادِرٍ، وَحُسْنٍ بَاهِرٍ.



فَلَمَّا رَآهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَقَفَ أَمَامَهَا، وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ الْعَجَبُ كُلَّ مَأْخَذٍ.

وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسَائِلُهَا: «كَيْفَ جَاءَتِ الطِّفْلَةُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْمُوحِشِ الْقَفْرِ؟ وَكَيْفَ تَرَكَهَا أَهْلُوهَا تَخْرُجُ مِنَ الدَّارِ وَحْدَهَا، وَهِيَ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِهَا؟»

واشْتَدَّتِ الْحَيْرَةُ بِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْحَرَكَةَ، وَجَمَدَ فِي مَكَانِهِ مُرْتَبِكًا لَا يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ! فَقَدْ كَانَ مَنْظَرُهَا — فِي الْحَقِّ — يَدْعُو إِلَى الْإِشْفَاقِ عَلَيْهَا مِنْ عَادِيَاتِ الْوُحُوشِ الضَّارِيَةِ،

[١] التمس: طلب.

وَلَمْ يَدْرِ الْأَمِيرُ كَيْفَ تَرْقُدُ مِثْلُ هَذِهِ الطِّفْلَةِ الصَّغِيرَةِ وَحِيدَةً فِي الْغَابَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْعَاهَا أَحَدٌ!

وَزادَ فِي دَهْشَتِهِ مَا رَآهُ عَلَى أَسارِيرِهَا[٢] مِنْ دَلائِلِ الرِّضَى وَالاطْمِئْنَانِ.

فَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَرْقُدُ عَلَى سَرِيرٍ، فَوْقَ فِرَاشٍ وَثِيرٍ،[٣] وَسائِدُهُ مِنْ حَرِيرٍ!

وَكَانَتْ تَرْتَدِي ثَوْبًا مِنَ الْحَرِيرِ الْأَزْرَقِ الْمُطَرَّزِ بِالذَّهَبِ. وَجَوْرَبُهَا الْحَرِيرِيُّ غايَةٌ فِي الرِّقَّةِ، وَقَدِ الْتَمَعَ فِي مِعْصَمِهَا الصَّغِيرِ سِوارٌ مِنَ الذَّهَبِ، يَنْتَهِي بِإِطَارٍ صَغِيرٍ فِيهِ صُورَةٌ مِنَ الصُّوَرِ، لَعَلَّهَا تَنْطَوِي عَلَى سِرٍّ مِنَ الْأَسْرَارِ! وَتَدَلَّى مِنْ جِيدِهَا عِقْدٌ مِنْ نَفِيسِ اللُّؤْلُؤِ.

وَظَلَّتِ الطِّفْلَةُ مَثارَ اهْتِمَامِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَمَبْعَثَ حَيْرَتِهِ.

فَرَاحَ يُفَتِّشُ فِي ذاكِرَتِهِ، بَاحِثًا عَنْ حَلٍّ مَعْقُولٍ لِذَلِكَ اللُّغْزِ الْغامِضِ الْخَفِيِّ؛ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ يَرْتَاحُ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ لَمْ يَرَ — فِي كُلِّ مَا رَآهُ فِي حَيَاتِهِ — مَا يُشْبِهُ تِلْكَ الطِّفْلَةَ الْمَلائِكِيَّةَ، أَوْ يُدَانِيهَا بَهَاءً وَإِشْرَاقًا.

ثُمَّ حَانَتْ مِنْهُ الْتِفَاتَةٌ، فَرَأَى قُبَّرَةً ظَرِيفَةَ الشَّكْلِ، جَمِيلَةَ الْهَيْئَةِ، تَحُومُ حَوْلَ الطِّفْلَةِ، وَتَدْنُو مِنْ رَأْسِهَا، فَتُوقِظُهَا مِنْ نَوْمِهَا.

وَرَأَى الطِّفْلَةَ تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا، وَتَسْتَيْقِظُ مِنْ رُقَادِهَا، ثُمَّ تُسْرِعُ إِلَى النُّهُوضِ، مُتَلَفِّتَةً حَيْرَى، تُنَادِي وَصِيفَتَهَا؛ فَلا يُجِيبُ نِدَاءَهَا أَحَدٌ.

ثُمَّ تَفْطُنُ الصَّغِيرَةُ التَّائِهَةُ إِلَى وُجُودِهَا فِي الْغَابَةِ وَحْدَهَا، فَيَتَمَلَّكُهَا الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ، وَيُسْلِمَانِهَا إِلَى الْبُكَاءِ.

فَلَمْ يَسْتَطِعِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنْ يَكْتُمَ مَا سَاوَرَهُ مِنَ الْإِشْفَاقِ وَالْحُزْنِ، لِمَا شَهِدَهُ مِنْ فَزَعِ الطِّفْلَةِ وَبُكَائِهَا.

وَتَمَلَّكَتْهُ الْحَيْرَةُ، فَقَالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «تُرَى مَاذَا أَصْنَعُ؟ وَكَيْفَ أُنْقِذُ هَذِهِ الطِّفْلَةَ الْمِسْكِينَةَ، دُونَ أَنْ أُرِيَهَا صُورَتِي الدَّمِيمَةَ الْمُفَزِّعَةَ؟!

كَيْفَ أُعَاوِنُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَظْهَرَ أَمَامَهَا؟

[٢] على أساريريها: على خطوط جبهتها.

[٣] وثير: ليِّن.

مَاذَا أَصْنَعُ يَا رَبَّاهُ؟
وَلَوْ ظَهَرْتُ أَمَامَهَا لَنَفَرَتْ مِنْ هَيْئَتِي، وَهَرَبَتْ مِنْ بَشَاعَتِي!»

وَبَيْنَا هُوَ يُسائِلُ نَفْسَهُ، وَهُوَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، إِذْ أَدارَتِ الصَّغِيرَةُ رَأْسَهَا إِلَى نَاحِيَتِهِ، وَحَانَتْ مِنْهَا الْتِفاتَةٌ عابِرَةٌ إِلَيْهِ.

وَمَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَيْهِ، حَتَّى صَرَخَتْ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ، وَتَمَلَّكَهَا الْخَوْفُ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَتْ؛ فَلَجَأَتْ إِلَى الْفِرَارِ، وَأَسْلَمَتْ سَاقَيْهَا لِلرِّيحِ!

وَلَمْ تَخْطُ خُطُواتٍ قَلِيلَةً، حَتَّى عَثَرَتْ قَدَمَاهَا، فَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ خائِفَةً.

فَلَمْ يَتَمَالَكِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنْ يُنَادِيَهَا بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ الرَّقِيقِ، فِي لَهْجَةٍ تَفِيضُ عُذُوبَةً وَحُنُوًّا، وَهُوَ يَقُولُ: «اطْمَئِنِّي — أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ — وَلا تَخافِي؛ فَلَنْ يَلْحَقَ بِكِ مَا تَكْرَهِينَ، وَلَنْ تَلْقَيْ عِنْدِي إِلَّا مَا تُحِبِّينَ.

هَلُمِّي إِلَيَّ — أَيَّتُهَا الْأُخْتُ الْعَزِيزَةُ — وَلا تَتَفَزَّعِي مِنْ بَشَاعَةِ مَرْآيَ؛ فَأَنَا عَلَى الْعَكْسِ مِمَّا تَظُنِّينَ، وَسَتَحْمَدِينَ الْعَاقِبَةَ إِذَا أَخْلَدْتِ إِلَيَّ[٤] بِالثِّقَةِ.

وَسَتَرَيْنَ كَيْفَ أَبْذُلُ لَكِ كُلَّ مَا أَمْلِكُ — مِنْ قُوَّةٍ وَجَهْدٍ وَإِخْلاصٍ — حَتَّى تَبْلُغِي أَبَوَيْكِ، سَالِمَةً مِنْ كُلِّ سُوءٍ، آمِنَةً مِنْ كُلِّ خَوْفٍ.»

وَكَانَتِ الصَّغِيرَةُ مَا تَزالُ تَنْظُرُ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» — وَهِيَ مُلْقَاةٌ عَلَى الْأَرْضِ — بِعَيْنَيْنِ جاحِظَتَيْنِ،[٥] مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ.

فَاسْتَأْنَفَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» حَدِيثَهُ قَائِلًا: «هَلُمِّي إِلَيَّ يَا صَغِيرَتِي، وَأَقْبِلِي عَلَيَّ يَا عَزِيزَتِي.

واعْلَمِي أَنَّنِي إِنْسَانٌ مِثْلُكِ، وَلَسْتُ — كَمَا تَتَوَهَّمِينَ — حَيَوَانًا شَرِسًا، وَلا دُبًّا مُفْتَرِسًا، كَمَا يُخَيِّلُ لَكِ مَظْهَرِي.

كُونِي عَلَى ثِقَةٍ — أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ — أَنَّنِي كَمَا تُرِيدِينَ أَنْ أَكُونَ؛ وَلَكِنَّنِي مَسْحُورٌ تاعِسُ الْحَظِّ، وَقَدْ نَفَّرَتْ بَشَاعَةُ صُورَتِي كُلَّ مَنْ رَآنِي مِنَ النَّاسِ وَخَوَّفَتْهُمْ؛ فَلَمْ يَرْتَاحُوا لِمُحَادَثَتِي، وَأَصْبَحُوا — لِفَرْطِ شَقَاوَتِي — يَخْشَوْنَ الدُّنُوَّ مِنِّي.»

---

[٤] أخلدتِ إليَّ: ركنتِ إليَّ واعتمدتِ عليَّ.

[٥] جاحظتين: بارزتين.

وَمَا إِنْ سَمِعَتِ الصَّغِيرَةُ صَوْتَهُ الْعَذْبَ، وَأَنْصَتَتْ إِلَى شَكْوَاهُ الْحَزِينَةِ، حَتَّى زَايَلَهَا الْخَوْفُ؛[٦] فَحَلَّ الْأَمْنُ — فِي قَلْبِهَا — مَحَلَّ الْفَزَعِ.

فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ لَطِيفَتَيْنِ، بَعْدَ أَنْ سَكَنَ خَوْفُهَا، وَهَدَأَتْ ثَائِرَتُهَا.

فَتَشَجَّعَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، حِينَ رَأَى دَلَائِلَ الطُّمَأْنِينَةِ بَادِيَةً عَلَى وَجْهِهَا … وَتَقَدَّمَ مِنْهَا بِضْعَ خُطُواتٍ.

فَلَمْ يَقْتَرِبْ مِنْهَا، حَتَّى عَاوَدَهَا الْفَزَعُ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ تَصْرُخَ مِنَ الْخَوْفِ … وَهَمَّتْ بِالْفِرَارِ.

وَوَقَفَ أَمَامَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَاكِيًا حَزِينًا، وَقَالَ لَهَا مُتَأَلِّمًا: «ما أَشَدَّ تَعَاسَتِي وَشَقَائِي إِذَا عَجَزْتُ عَنْ إِسْدَاءِ الْمُسَاعَدَةِ إِلَيْكِ، وَأَنْتِ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُوحِشِ!»

ثُمَّ جَعَلَ يُنَاجِي نَفْسَهُ قَائِلًا: «تُرَى مَاذَا أَصْنَعُ لِأُنْقِذَ هَذِهِ الصَّغِيرَةَ، الَّتِي امْتَلَأَ قَلْبُهَا — مِنْ رُؤْيَتِي — رُعْبًا وَخَوْفًا؟

وَهَا هِيَ ذِي تُؤْثِرُ[٧] أَنْ تَتِيهَ فِي أَرْجَاءِ الْغَابَةِ، وَتَضِلَّ فِي أَنْحَائِهَا، عَلَى أَنْ أُخَلِّصَهَا مِنْ عَذَابِهَا، وَأُنْقِذَهَا مِنْ حَيْرَتِهَا!»

وَلَمْ يَنْتَهِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مِنْ شَكْوَاهُ، حَتَّى أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَفْنَيْهِ، وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ …

ثُمَّ أَفَاقَ بَعْدَ قَلِيلٍ، فَذَكَرَ مَا أَصَابَهُ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ يَبْكِيَ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ.

وَلَمْ تَنْقَضِ لَحْظَةٌ يَسِيرَةٌ، حَتَّى شَعَرَ بِيَدِ الصَّغِيرَةِ تَمْتَدُّ إِلَى يَدَيْهِ فِي رِفْقٍ وَحَنَانٍ، فَتَرْفَعُهُمَا عَنْ جَفْنَيْهِ، مُعْتَذِرَةً عَمَّا بَدَرَ مِنْهَا مِنَ الْجَفْوَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ.

فَرَفَعَ الدُّبُّ رَأْسَهُ؛ فَإِذَا بِهِ يَرَى الصَّغِيرَةَ أَمَامَهُ، وَقَدْ غَصَّتْ[٨] عَيْنَاهَا بِدُمُوعِ النَّدَمِ وَالْعَطْفِ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مُوَاسِيَةً[٩] تَقُولُ: «خَفِّفْ مِنْ حُزْنِكَ — أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» — وَلَا

---

[٦] زايلها الخوف: فارقها.

[٧] تؤثر: تُفضل.

[٨] غصت: امتلأت.

[٩] تواسيه: تصبِّره وتعزيه.

تَسْتَسْلِمْ لِلْبُكَاءِ؛ فَقَدِ اطْمَأَنَّتْ إِلَيْكَ «نَرْجِسُ»، وَزايَلَهَا الْخَوْفُ مِنْكَ، وَلَمْ تَعُدْ تُفَكِّرُ فِي الْهَرَبِ بَعْدَ الْآنَ.

إِنَّ «نَرْجِسَ» لَيَحْزُنُهَا أَنْ تَرَاكَ بَاكِيًا، وَيُؤْلِمُهَا أَنْ تَسْمَعَكَ شَاكِيًا.

أَلَا تَزَالُ تَبْكِي؟!

هَوِّنْ عَلَيْكَ أَيُّهَا الدُّبُّ الْمِسْكِينُ؛ فَلَنْ تَرَى «نَرْجِسَ» — بَعْدَ الْآنَ — إِلَّا صَدِيقَةً وَفِيَّةً لَكَ.»

وَلَمَّا رَأَتْهُ «نَرْجِسُ» لَا يَزالُ مُسْتَسْلِمًا لِلْبُكَاءِ، رَبَّتَتْ وَجْنَتَيْهِ الْمَمْلُوءَتَيْنِ بِالشَّعْرِ الْكَثِيفِ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ بَاسِمَةً تُلاطِفُهُ، وَتَقُولُ لَهُ: «هَا أَنْتَ ذا، أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، تَرَى أَنَّ «نَرْجِسَ» لَيْسَتْ بِخائِفَةٍ مِنْكَ.

وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ «نَرْجِسَ»!

أَسَمِعْتَ مَا أَقُولُهُ لَكَ؟

إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ «نَرْجِسَ»!

إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَهَا أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»!

إِنَّ «نَرْجِسَ» لَنْ تُفَارِقَكَ، وَلَنْ تَتْرُكَكَ مُسْتَسْلِمًا لِأَحْزانِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ.»

# التَّائِهَةُ

وَلَمْ يَكُنْ أَشْهَى إِلَى قَلْبِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مِنْ سَمَاعِ هَذَا الْكَلامِ؛ فَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا بِمَا قَالَتْهُ «نَرْجِسُ»، وَرَأَى — فِيمَا أَظْهَرَتْهُ لَهُ — مِنَ الأُنْسِ بِهِ، وَالْعَطْفِ عَلَيْهِ، بَلْسَمًا يَأْسُو[1] جُرْحَ قَلْبِهِ الْمَحْزُونِ.

وَحَاوَلَ أَنْ يَشْكُرَ لَهَا فَضْلَهَا، فَلَمْ يَجِدْ فِي كُلِّ مَا عَرَفَهُ مِنْ عِبارَاتِ الشُّكْرِ مَا يُؤَدِّي شُعُورَهُ بِجَمِيلِهَا، وابْتِهَاجَهُ بِصَنِيعِهَا.[2]

وَكَانَ أَخْشَى مَا يَخْشَاهُ أَلَّا تَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ.

فَلَمَّا رَآهَا قَدْ أَنِسَتْ بِهِ الْآنَ، عَاوَدَهُ الْأَمَلُ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا بَاسِمًا مُتَوَدِّدًا، وَهُوَ يَقُولُ: «أَلْفُ شُكْرٍ لَكِ أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ الْكَرِيمَةُ، وَأَلْفُ حَمْدٍ للهِ عَلَى أَنْ أزالَ مِنْ قَلْبِكِ التَّرَدُّدَ وَالْخَوْفَ.

وَا عَجَباهُ! أَحَقًّا كُنْتِ تَحْسَبِينَ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» وَحْشًا ضارِيًا يُرِيدُ افْتِرَاسَكِ؟

أَلا تَعْلَمِينَ أَنَّهُ لا يُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا حِمَايَتَكِ وَإِينَاسَكِ!»

فَقَالَتْ لَهُ: «عُذْرًا أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»؛ فَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَدَاعَةِ.

أَمَّا الْآنَ فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لَطِيفٌ، لَا يُؤْذِي وَلا يُخِيفُ، وَأَنَّهُ — بِرَغْمِ خُشُونَةِ مَظْهَرِهِ — طَيِّبٌ كَرِيمٌ.»

---

[1] يأسو: يداوي.

[2] صنيعها: معروفها.

وَعَرَفَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مِنْ حَدِيثِ الْفَتَاةِ أَنَّ اسْمَهَا «نَرْجِسُ»؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ — عَلَى أَيِّ حَالٍ — إِلَى سَبَبٍ مَعْقُولٍ يُسَوِّغُ وُجُودَهَا فِي الْغَابَةِ.

وَكَانَتْ ثِيَابُهَا الْفَاخِرَةُ وَحُلِيُّهَا الثَّمِينَةُ تَنُمُّ[٣] عَلَى رِفْعَةِ أَهْلِهَا، وَتَدُلُّ عَلَى شَرَفِ مَنْبِتِهَا، وَكَرَمِ أُسْرَتِهَا.

فَكَيْفَ وَصَلَتْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْبَعِيدِ؟

وَأَيْنَ وَصِيفَتُهَا الَّتِي تُنَادِيهَا؟

أَسْئِلَةٌ مُحَيِّرَةٌ، لَمْ يَهْتَدِ إِلَى جَوابٍ واحِدٍ مِنْهَا.

فَقَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا: «وَأَيْنَ تَسْكُنُ عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ» الصَّغِيرَةُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ فِي سَذَاجَةٍ عَجِيبَةٍ: «هُنَاكَ أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»!

هُنَاكَ تَسْكُنُ «نَرْجِسُ» مَعَ أُمِّهَا وَأَبِيهَا.»

فَقَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا: «وَمَا اسْمُ أَبِيكِ؟»

فَقَالَتْ لَهُ الطِّفْلَةُ الْغَرِيرَةُ: «أَلا تَعْرِفُ اسْمَ أَبِي؟ إِنَّهُ الْمَلِكُ!

وَاسْمُ أُمِّي، أَلا تَعْرِفُهُ؟ إِنَّهَا الْمَلِكَةُ!»

فَاشْتَدَّتْ دَهْشَتُهُ مِمَّا سَمِعَ، وَسَأَلَهَا مُتَحَيِّرًا: «وَلِمَاذَا أَنْتِ وَحْدَكِ فِي الْغَابَةِ؟»

فَقَالَتْ لَهُ مُتَعَجِّبَةً، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تُجِيبُهُ: «إِنَّ «نَرْجِسَ» لَا تَدْرِي شَيْئًا!

كَانَتْ «نَرْجِسُ» الْمِسْكِينَةُ رَاكِبَةً كَلْبًا كَبِيرًا.

وَكَانَ الْكَلْبُ الْكَبِيرُ يَجْرِي بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ.

وَظَلَّ يَجْرِي زَمَنًا طَوِيلًا. حَتَّى قَطَعَ مَسافَةً طَوِيلَةً.

وَتَعِبَتْ «نَرْجِسُ» تَعَبًا شَدِيدًا، فَنَزَلَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَجَلَسَتْ فِيهِ، وَنَامَتْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.»

فَقَالَ لَهَا: «وَأَيْنَ الْكَلْبُ الَّذِي حَمَلَكِ إِلَى هُنَا؟»

---

[٣] تنم: تدل.

فَتَلَفَّتَتْ «نَرْجِسُ» يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَأَجَالَتْ بَصَرَهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَواحِي الْغَابَةِ، تَبْحَثُ عَنْ كَلْبِهَا، فَلا تَجِدُهُ.

فَصَرَخَتْ تُنَادِيهِ بِأَعْلَى صَوْتِهَا الرَّقِيقِ: «وَثَّابُ! هَلُمَّ يَا «وَثَّابُ»!

أَيْنَ أَنْتَ يَا «وَثَّابُ»؟»

فَلَمْ تَسْمَعْ غَيْرَ رَجْعِ صَدَاهَا!

فَأَرْدَفَتْ قَائِلَةً: «أَيْنَ ذَهَبْتَ يَا «وَثَّابُ»؟

كَيْفَ تَرَكْتَ نَرْجِسَ؟»

ثُمَّ قَالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا مُرْتَبِكَةً: «وَثَّابٌ تَرَكَ «نَرْجِسَ» وَحْدَهَا! لِمَاذَا تَرَكَهَا؟

أَيْنَ «وَثَّابٌ»؟ «نَرْجِسُ» لَا تَدْرِي!»

فَأَمْسَكَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِيَدِ «نَرْجِسَ» يُرَبِّتُهَا، وَيُهَوِّنُ عَلَيْهَا وَيُؤْنِسُهَا، وَهُوَ يَقُولُ: «أَتُوافِقِينَ عَلَى أَنْ تَبْقَيْ فِي هَذَا الْمَكَانِ رَيْثَمَا أَذْهَبُ إِلَى الدَّارِ وَأُحْضِرُ لَكِ أُمِّي؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ» وَقَدِ اشْتَدَّ بِهَا الْخَوْفُ: «كَلَّا، لَا تَتْرُكْنِي هُنَا أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ».

إِنَّ «نَرْجِسَ» لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْقى فِي الْغَابَةِ وَحْدَهَا، وَلا بُدَّ لَهَا أَنْ تَذْهَبَ مَعَ الدُّبِّ الصَّغِيرِ!»

فَقَالَ لَهَا: «ما أَسْعَدَنِي بِصُحْبَتِكِ أَيَّتُهَا الْأُخْتُ الْعَزِيزَةُ!

فَهَلُمِّي مَعِي إِلَى الدَّارِ، حَيْثُ تَلْقَيْنَ مِنْ رِعَايَةِ أُمِّي مَا يُنْسِيكِ حُزْنَكِ.»

وَسارَ «الدُّبُّ الصَغِيرُ»، وَ«نَرْجِسُ» فِي صُحْبَتِهِ، نَحْوَ الدَّسْكَرَةِ.

وَكَانَ يَقْطِفُ لَهَا مِمَّا يَجِدُهُ مِنَ الْكَرِيزِ، وَيُقَدِّمُهُ لَهَا لِتَأْكُلَهُ، فَلَمْ تَرْضَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا إِذَا قَاسَمَهَا فِيهِ.

وَهَكَذَا مَشَيَا فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى الدَّارِ، يَقْتَسِمَانِ مَا يَأْكُلانِ مِنْ لَذَائِذِ الْفَاكِهَةِ، وَيُؤْثِرُ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَلَى نَفْسِهِ.

وَكَانَتْ لَا تَأْكُلُ شَيْئًا إِلَّا إِذَا أَكَلَ مِثْلَهُ.

وَكَثِيرًا مَا قَالَتْ لَهُ: «كُلْ! كُلْ أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»!

«نَرْجِسُ» لَا تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الدُّبُّ الْمِسْكِينُ تاعِسًا مَهْمُومًا.

«نَرْجِسُ» لَا تُرِيدُ أَنْ تَرَى الدُّبَّ الْمِسْكِينَ بَاكِيًا مَحْزُونًا.

«نَرْجِسُ» تُرِيدُ أَنْ تُسْعِدَ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، وَتَمْلَأَ قَلْبَهُ فَرَحًا.»

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيْهِ لِتَتَبَيَّنَ حَقِيقَةَ مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنَ السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاءِ؛ فَابْتَهَجَتْ لِمَا رَأَتْهُ عَلَى أَسارِيرِهِ[٤] مِنْ دَلَائِلِ الْغِبْطَةِ وَالْمَرَحِ.

وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَدِبَّ السَّعَادَةُ إِلَى ذَلِكَ الْقَلْبِ الْكَسِيرِ، أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ، وَأَنْ تَغْمُرَ الْبَهْجَةُ قَلْبَهُ الْمُعَذَّبَ وَتُنْسِيَهِ آلامَهُ، بَعْدَ أَنْ سَاقَ إِلَيْهِ الْحَظُّ السَّعِيدُ تِلْكَ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ السِّنِّ، الْكَبِيرَةَ الْقَلْبِ، الَّتِي عَرَفَتْ كَيْفَ تُبَدِّلُ شَقَاوَتَهُ هَنَاءَةً، وَحُزْنَهُ بَهْجَةً، وَوَحْشَتَهُ أُنْسًا!

وَقَدِ اشْتَدَّ عَجَبُهُ لِمَا رَآهُ مِنْ عِنَايَتِهَا بِهِ، واهْتِمَامِهَا بِأَمْرِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُ عَلَيْهِ فَرَحَهُ وابْتِهَاجَهُ إِلَّا شُعُورُهُ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ شَنَاعَةِ الْخِلْقَةِ وَقُبْحِ الصُّورَةِ.

عَلَى أَنَّهُ أَحَسَّ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ أَنَّ آخِرَةَ النَّحْسِ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَخَامَرَهُ شُعُورٌ خَفِيٌّ بِأَنَّ شَقَاءَهُ لَنْ يَطُولَ، وَأَنَّ السَّعَادَةَ الْحَقَّ فِي طَرِيقِهَا إِلَيْهِ.

وَقَدْ أُعْجِبَتْ «نَرْجِسُ» بِحَدِيثِهِ الْعَذْبِ، وَأَنِسَتْ بِصَوْتِهِ الْحَنُونِ؛ فَلَمْ تَشْعُرْ بِطُولِ الطَّرِيقِ، وَلَمْ تَدْرِ أَنَّهَا مَشَتْ زُهَاءَ نِصْفِ سَاعَةٍ …

وَلَمَّا أَصْبَحَا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الدَّارِ، الْتَفَتَ إِلَيْهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَاسِمًا، وَقَالَ: «إِذَا صَحَّ ظَنِّي، وَصَدَقَ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ، فَإِنَّ «نَرْجِسَ» لَنْ تَخْشَى — بَعْدَ الْيَوْمِ — صَدِيقَهَا «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، وَلَنْ تَخَافَهُ أَبَدًا!»

فَصاحَتْ «نَرْجِسُ» مُتَعَجِّبَةً: «كَيْفَ تَقُولُ؟

كَلَّا، لَنْ تَخَافَهُ «نَرْجِسُ» أَبَدًا؛ لِأَنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لَطِيفٌ وَدِيعٌ؛ لَطِيفٌ جِدًّا، وَوَدِيعٌ جِدًّا … وَ«نَرْجِسُ» لَا تُرِيدُ أَنْ يَتْرُكَهَا الدُّبُّ الصَّغِيرُ.»

فَقَالَ لَهَا، وَهُوَ يُرَبِّتُ كَتِفَهَا فِي حُنُوٍّ وَإِشْفَاقٍ: «أَلْفُ شُكْرٍ لَكِ يَا «نَرْجِسُ» عَلَى مَا وَهَبَكِ اللهُ مِنْ رِقَّةِ قَلْبٍ وَطَهَارَةِ نَفْسٍ.

وَإِنْ أَنْسَ، لَا أَنْسَ — مَا حَيِيتُ — أَنَّكِ أَنْتِ الطِّفْلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي عَطَفَتْ عَلَيَّ، وَرَحَّبَتْ بِي، وَلَمْ تَنْفِرْ مِنْ صُحْبَتِي!»

---

[٤] أساريره: خطوط جبينه.

# سِوَارُ الْأَمِيرَةِ

وَمَا زَالَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَ«نَرْجِسُ» يَتَجَاذَبَانِ الْحَدِيثَ حَتَّى بَلَغَا الدَّسْكَرَةَ.

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» تَتَحَدَّثَانِ أَمَامَ بَابِ الدَّارِ فِي بَعْضِ شَأْنِهِمَا؛ فَلَمَحَتَا «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا، وَقَدِ اشْتَبَكَتْ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِ طِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ، بَارِعَةِ الْجَمَالِ، فَاخِرَةِ الثِّيَابِ.

فَاشْتَدَّتْ دَهْشَتُهُمَا، وَعَقَدَتِ الْحَيْرَةُ لِسانَيْهِمَا، فَلَمْ تَنْبِسا[1] بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ.

فَابْتَدَرَهُمَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مُنَادِيًا: «هَا هِيَ ذِي «نَرْجِسُ» قَادِمَةً عَلَيْكِ يَا أُمَّاهُ!

أَرَأَيْتِ كَيْفَ هِيَ جَمِيلَةٌ!

لَقَدْ أَسْعَدَنِي الْحَظُّ بِالْعُثُورِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَشْجَارِ الْغَابَةِ.

وَهِيَ — كَمَا تَرَيْنَ — آيَةٌ فِي الْوَدَاعَةِ وَاللُّطْفِ، غَايَةٌ فِي دَمَاثَةِ الْخُلُقِ وَصَفَاءِ النَّفْسِ.

وَسَيَزِيدُكِ حُبًّا لَهَا، وَشَغَفًا بِهَا، أَنَّهَا لَمْ تَنْفِرْ مِنِّي وَلَمْ تَهْرُبْ؛ بَلْ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ، وَأَنِسَتْ بِي.

وَقَدْ حَزَنَهَا بُكَائِي، فَلَمْ تَدَّخِرْ وُسْعًا فِي إِسْعَادِي.»

فَسَأَلَتْهُ «مَاجِدَةُ»: «وَمَاذَا حَزَنَكَ — يَا وَلَدِيَ الْعَزِيزَ — وَأَبْكَاكَ؟»

فَأَجَابَهَا فِي صَوْتٍ أَبَحَّ،[2] مُتَهَدِّجٍ مِنْ فَرْطِ التَّأَثُّرِ: «كَيْفَ لَا أَبْكِي، وَقَدْ رَأَيْتُهَا خائِفَةً مِنِّي، مُتَفَزِّعَةً مِنْ لِقَائِي، هارِبَةً مِنْ رُؤْيَتِي أَوَّلَ مَا لَقِيَتْنِي فِي الْغَابَةِ؟»

---

[1] لم تنبسا: لم تتكلما.

[2] صوت أبح: صوت غليظ خشن.

فَقَاطَعَتْهُ الصَّغِيرَةُ عَلى الْفَوْرِ: «وَلَكِنَّ «نَرْجِسَ» الْآنَ غَيْرُ خائِفَةٍ مِنْكَ، عَلى أَيِّ حَالٍ.

لَقَدْ فَرِحَتْ «نَرْجِسُ» بِلِقَاءِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَرَضِيَتْ بِهِ أَخًا وَصَدِيقًا، وَقَاسَمَتْهُ مَا قَطَفَهُ لَهَا مِنَ الْكَرِيزِ!»

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «أَيَّ أَلْغازٍ نَسْمَعُ؟

تُرَى مَاذَا يَعْنِيَانِ بِمَا يَقُولانِ؟

أَيُّ طِفْلَةٍ هَذِهِ الَّتِي أَحْضَرَهَا مَعَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»؟

وَكَيْفَ عَثَرَ عَلَيْهَا؟

وَكَيْفَ سَاقَتْهَا إِلَى الْغَابَةِ قَدَمَاهَا؟ دُونَ أَنْ يَصْحَبَهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا وَيَرْعَاهَا؟ وَمَنْ عَسَاهَا تَكُونُ؟ وَمَنْ أَبَوَاهَا؟

خَبِّرْنِي — أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» — بِحَقِيقَةِ الطِّفْلَةِ، وَمَا يُحِيطُ بِقِصَّتِهَا الْعَجِيبَةِ مِنَ الْمُعَمَّيَاتِ، وَمَا يَكْتَنِفُهَا[٣] مِنَ الطَّلَاسِمِ وَالْأَلْغَازِ!»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «ما الْمَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ!

فَمَا أَدْرِي مِنْ أَمْرِهَا غَيْرَ مَا أَخْبَرْتُكِ بِهِ، وَلا أَعْلَمُ مِنْ قِصَّتِهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّنِي لَقِيتُهَا مُصَادَفَةً فِي الْغَابَةِ وَهِيَ نَائِمَةٌ، وَرَأَيْتُهَا تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهَا بَاكِيَةً مَحْزُونَةً.

وَمَا وَقَعَتْ عَيْنَاهَا عَلَيَّ، حَتَّى عَلَا صُرَاخُهَا، واشْتَدَّ خَوْفُهَا.

وَأَرَدْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا رَأَتْنِي أَدْنُو مِنْهَا، عَاوَدَتْ صُرَاخَهَا فَزَعًا مِنْ رُؤْيَتِي؛ فَاشْتَدَّ لِذَلِكِ أَلَمِي وَحَيْرَتِي.»

وَهُنَا وَضَعَتْ «نَرْجِسُ» يَدَهَا عَلَى فَمِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حَتَّى لا يُتِمَّ حَدِيثَهُ، وَقَالَتْ لَهُ ضَارِعَةً مُتَوَسِّلَةً، وَقَدْ غَصَّتْ[٤] عَيْنَاهَا بِالدُّمُوعِ: «صَهٍ، صَهٍ أَيُّهَا الدُّبُّ الْعَزِيزُ!

إِنَّ «نَرْجِسَ» مَحْزُونَةٌ بِمَا أَسْلَفَتْهُ مِنْ إِسَاءَةٍ إِلَيْكَ، عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهَا.

إِنَّ «نَرْجِسَ» شَدِيدَةُ الْأَلَمِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ سَبَبَ بُكَائِكَ، وَمَصْدَرَ شَقَائِكَ، وَمَبْعَثَ عَنَائِكَ!»

فَأَسْرَعَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى «نَرْجِسَ» تُقَبِّلُهَا حَانِيَةً عَلَيْهَا، فَرِحَةً بِهَا، شَاكِرَةً لِصَنِيعِهَا، قَائِلَةً: «مَا أَكْرَمَ نَفْسَكِ وَأَصْدَقَ وَفَاءَكِ؛ إِذْ تَعْطِفِينَ عَلَى هَذَا الطِّفْلِ الْمِسْكِينِ، بَعْدَ أَنْ تَحَالَفَتْ عَلَيْهِ التَّعَاسَةُ وَالشَّقَاءُ!»

---

[٣] يكتنفها: يحيط بها.

[٤] غصت: امتلأت.

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «مَا أَسْعَدَنِي بِلِقَائِهِ دَائِمًا!

إِنَّ «نَرْجِسَ» تُحِبُّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» بِلا شَكٍّ، وَسَتَبْقَى «نَرْجِسُ» مَعَهُ دَائِمًا.»

وَعَجِبَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» مِمَّا سَمِعَتَاهُ مِنَ الْغَرَائِبِ، وَسَأَلَتَا «نَرْجِسَ» عَمَّا تَعْرِفُهُ عَنْ أَهْلِهَا؛ فَلَمْ تُخْبِرْهُمَا بِجَدِيدٍ، واقْتَصَرَتْ عَلَى مَا قَالَتْهُ لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» وَهُوَ: أَنَّ أَبَاهَا مَلِكٌ وَأُمَّهَا مَلِكَةٌ.

ثُمَّ لَمْ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا.

وَلَهَا مَوْفُورُ الْعُذْرِ فِي جَهْلِهَا؛ فَمَا كَانَتِ الطِّفْلَةُ الْمِسْكِينَةُ تَدْرِي: كَيْفَ وُجِدَتْ فِي الْغَابَةِ؟ وَلا تَعْرِفُ أَيْنَ نَشَأَتْ؟ وَمِنْ أَيِّ مَكَانٍ خَرَجَتْ؟

وَكَانَ مَبْلَغُ عِلْمِهَا: أَنَّهَا رَكِبَتْ كَلْبًا كَبِيرًا، وَأَنَّهُ ظَلَّ يَجْرِي بِهَا فِي الْغَابَةِ إِلَى حَيْثُ لَا تَعْلَمُ؛ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ بِهَا التَّعَبُ، تَرَكَهَا تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ حَيْثُ وَجَدَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» نَائِمَةً، بَعْدَ مَا كَابَدَتْهُ مِنَ التَّعَبِ.

وَلَمْ تُقَصِّرْ «مَاجِدَةُ» فِي بَذْلِ عِنَايَتِهَا، لِتَكْفُلَ لِلطِّفْلَةِ التَّائِهَةِ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهَا مِنْ رِعَايَةٍ.

وَقَدْ شَعَرَتْ «مَاجِدَةُ» بِانْعِطَافٍ إِلَيْهَا، بَعْدَ مَا غَمَرَتْ بِهِ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» مِنْ فُنُونِ الْبَهْجَةِ وَأَلْوَانِ الْهَنَاءِ.

وَشَكَرَتْ لَهَا مَا أَظْهَرَتْهُ لِوَلَدِهَا مِنْ حُنُوٍّ وَإِخْلاصٍ، فَتَحَا لَهُ سَبِيلَ السَّعَادَةِ، وَكَشَفَا عَنْهُ مَا كَانَ يُظَلِّلُهُ مِنْ سُحُبِ الْيَأْسِ الْمُتَرَاكِمَةِ.

وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الْعَشَاءِ، أَعَدَّتْ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» مَائِدَةَ الطَّعَامِ.

فَاخْتَارَتْ «نَرْجِسُ» أَنْ تَجْلِسَ إِلَى جَانِبِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَكَانَتْ دَلَائِلُ الْبَهْجَةِ وَالْإِينَاسِ بَادِيَةً[٥] عَلَى أَسَارِيرِهَا،[٦] وَجَلَسَتْ «نَرْجِسُ» بِجِوارِهِ، ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً.

وَتَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَفَاضَ وَجْهُهُ بِشْرًا وابْتِهَاجًا ... وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِالسَّعَادَةِ عَهْدٌ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

---

[٥] بادية: ظاهرة.

[٦] أساريرها: خطوط جبينها.

وَفَاضَ قَلْبُ «حَلِيمَةَ» بِالْبَهْجَةِ، بَعْدَ أَنْ رَأَتِ الطِّفْلَ الْعَزِيزَ وَقَدْ أَتَاحَ لَهُ الْحَظُّ السَّعِيدُ تِلْكَ الطِّفْلَةَ النَّبِيلَةَ، الَّتِي مَلَأَتْ حَيَاتَهُ مَحَبَّةً وَإِينَاسًا.

وَكَانَتْ تَسِيرُ مُبْتَهِجَةً طَرُوبًا، فَتَقْفِزُ قَفَزَاتٍ مَرِحَةً؛ فَعَثَرَتْ إِحْدَى قَدَمَيْهَا — وَهِيَ تَقْفِزُ — بِإِنَاءِ قِشْدَةٍ، فَانْسَكَبَ مَا فِيهِ عَلَى الْأَرْضِ.

عَلَى أَنَّ الْقِشْدَةَ لَمْ تَذْهَبْ ضَيَاعًا؛ فَكَانَتْ مِنْ نَصِيبِ الْقِطِّ. وَقَدْ وَجَدَ فِيهَا عَشَاءً سَائِغًا شَهِيًّا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَلْتَهِمُهَا، فَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا أَيَّ أَثَرٍ.

وَنَامَتْ «نَرْجِسُ» عَلَى كُرْسِيِّهَا، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّتْ عَشَاءَهَا.

وَهُنَا تَحَيَّرَتْ «مَاجِدَةُ»، فَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ تُهَيِّئُ فِرَاشًا لِرُقَادِ «نَرْجِسَ»؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ سَرِيرٌ لِنَوْمِهَا.

وَرَأَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» حَيْرَتَهَا، فَقَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا: «كَيْفَ تَتَحَيَّرِينَ فِي ذَلِكِ — يَا أُمَّاهُ — وَسَرِيرِي حَاضِرٌ لِنَوْمِهَا؟

وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِي مِنْ تَوْفِيرِ الرَّاحَةِ لَهَا، كَمَا وَفَّرَتْ لِي سَعَادَتِي!»

فَعَجِبَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» مِنْ وَفَائِهِ، وَنُكْرَانِهِ ذَاتَهُ، وَإِيثَارِهِ رَاحَةَ غَيْرِهِ عَلَى رَاحَتِهِ.

وَدَفَعَهُمَا حُبُّهُمَا إِيَّاهُ إِلَى رَفْضِ اقْتِرَاحِهِ. ثُمَّ أَذْعَنَتَا لِمَشُورَتِهِ آخِرَ الْأَمْرِ حِينَ رَأَتَا إِصْرَارَهُ عَلَى رَأْيِهِ، وَتَشَبُّثَهُ[٧] بِتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ.

وَذَهَبَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى «نَرْجِسَ» وَهِيَ رَاقِدَةٌ عَلَى الْكُرْسِيِّ، وَحَمَلَتْهَا بَيْنَ يَدَيْهَا حَانِيَةً مُتَرَفِّقَةً، وَاسْتَبْدَلَتْ بِمَلَابِسِهَا ثِيَابَ النَّوْمِ دُونَ أَنْ تُوقِظَهَا؛ ثُمَّ أَرْقَدَتْهَا فِي سَرِيرِ وَلَدِهَا، وَهُوَ مِنْ سَرِيرِهَا قَرِيبٌ.

وَأَبَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَّا أَنْ يَنَامَ عَلَى الْقَشِّ، حَيْثُ تَنَامُ الدَّوَابُّ فِي الْإِصْطَبْلِ، وَاسْتَسْلَمَ لِرُقَادٍ هَانِئٍ سَعِيدٍ، يَسُودُهُ الْهُدُوءُ وَالِاطْمِئْنَانُ وَرَاحَةُ الضَّمِيرِ.

أَمَّا «مَاجِدَةُ» فَكَانَ لَهَا شَأْنٌ آخَرُ؛ فَلَمْ يَزُرِ النَّوْمُ عَيْنَيْهَا، وَقَضَتْ لَيْلَتَهَا سَاهِرَةً.

وَقَدْ عَجِبَتْ «حَلِيمَةُ» حِينَ دَخَلَتْ حُجْرَةَ «مَاجِدَةَ» وَرَأَتْهَا مُسَهَّدَةً[٨] شَارِدَةَ الْفِكْرِ، وَقَدِ اعْتَمَدَتْ رَأْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا.

[٧] تشبثه: تمسُّكه.

[٨] مسهدة: ساهرة لا تنام.

فَقَالَتْ لَهَا «حَلِيمَةُ»: «فِيمَ تُفَكِّرِينَ يَا سَيِّدَتِي الْعَزِيزَةَ؟
وَمَا لِيَ أَرَى الْحُزْنَ بَادِيًا عَلَى عَيْنَيْكِ، مُرْتَسِمًا عَلَى أَسَارِيرِكِ، وَقَدْ غَاضَتْ الِابْتِسَامَةُ فَلا أَثَرَ لَهَا عَلَى فَمِكِ؟»

فَلَمْ تُجِبْهَا «مَاجِدَةُ» بِشَيْءٍ.

فَقَالَتْ لَهَا «حَلِيمَةُ»: «لَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكِ — فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ — لِأُفْضِيَ إِلَيْكِ بِنَبَأٍ خَطِيرٍ!»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «أَيُّ نَبَأٍ تَحْمِلِينَهُ؟»

فَقَالَتْ: «يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ فِي سِوَارِ الطِّفْلَةِ الصَّغِيرَةِ سِرًّا مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي تَهْدِينَا إِلَى حَقِيقَةِ أَهْلِهَا، وَتُرْشِدُنَا إِلَى اسْمِ أُسْرَتِهَا.

وَلَقَدْ حَاوَلْتُ جَهْدِي أَنْ أَفْتَحَ إِطَارَهُ فَلَمْ أَسْتَطِعْ وَضَاعَتْ جُهُودِي عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ!»

وَكَانَ أَكْبَرُ مَا يَشْغَلُ «مَاجِدَةَ»، وَيُبَدِّدُ نَوْمَهَا فِي لَيْلَتِهَا، وَيُقْلِقُ رَاحَتَهَا، أَنَّهَا كَانَتْ تُطِيلُ التَّفْكِيرَ فِي حَلِّ هَذَا اللُّغْزِ، فَلا تَظْفَرُ بِمَا يُنِيرُ لَهَا الطَّرِيقَ، وَيَهْدِيهَا إِلَى مَا خَفِيَ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الضَّيْفِ الصَّغِيرَةِ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا تَقُولُ «حَلِيمَةُ»، عَاوَدَهَا الْأَمَلُ فِي الْوُصُولِ إِلَى بَصِيصٍ مِنَ النُّورِ، يَكْشِفُ لَهَا ظُلُمَاتِ الْيَأْسِ؛ فَقَالَتْ لـ «حَلِيمَةَ» مُتَعَجِّبَةً: «لَقَدْ جِئْتِ فِي وَقْتٍ، أَنَا فِيهِ أَشَدُّ مَا أَكُونُ حَاجَةً إِلَيْكِ.

وَرُبَّمَا سَاعَدَنِي هَذَا السِّوارُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ؛ فَقَدْ كَانَ يَدُورُ بِرَأْسِي — قَبْلَ مَجِيئِكِ — أَفْكَارٌ غَامِضَةٌ، حَجَبَهَا النِّسْيَانُ عَنِّي، فَلَمْ أَتَبَيَّنْهَا، بِرَغْمِ مَا بَذَلْتُهُ!»

ثُمَّ أَمْسَكَتْ «مَاجِدَةُ» بِالسِّوَارِ، وَظَلَّتْ تَضْغَطُ إِطَارَهُ بِأَصَابِعِهَا — فِي كُلِّ جِهَةٍ مِنْهُ — لِتَفْتَحَهُ؛ فَلَمْ تَظْفَرْ بِشَيْءٍ مِمَّا تُرِيدُ.

وَحَانَتْ مِنْهَا الْتِفَاتَةٌ، فَرَأَتِ امْرَأَةً يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهَا نُورًا فِي وَسَطِ الْحُجْرَةِ؛ كَمَا تَتَلَأْلَأُ الشَّمْسُ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.

وَتَبَدَّى وَجْهُهَا نَاصِعَ الْبَيَاضِ رَائِعَ الْحُسْنِ، وَاسْتَرْسَلَ شَعْرُهَا الذَّهَبِيُّ وازْدَانَ جَبِينُهَا الْوَضَّاحُ بِتَاجٍ مِنَ النُّجُومِ الْمُتَأَلِّقَةِ.

وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ مُتَوَسِّطَةَ الْقَامَةِ، بَدِيعَةَ الصُّورَةِ، شَفَّافَةَ الْجِسْمِ، تَنْبَعِثُ أَنْوارُهَا فِي كُلِّ الْأَرْجَاءِ، وَقَدْ تَبَدَّى ثَوْبُهَا الْفَضْفَاضُ مُزْدَانًا بِمِثْلِ لَأْلَاءِ النُّجُومِ عَلَى جَبِينِهَا، وَانْبَعَثَتْ مِنْ

عَيْنَيْهَا نَظَرَاتٌ تَشِعُّ مِنْهَا دَلَائِلُ الْعَطْفِ، وَتَفِيضُ عَذُوبَةً وَإِشْرَاقًا، وارْتَسَمَتْ عَلَى سِيمَاهَا أَسْمَى مَعَانِي الْمَحَبَّةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَأَشْرَقَتْ عَلَى فَمِهَا ابْتِسامَةٌ يَتَجَلَّى فِيهَا صَادِقُ الْوَفَاءِ، وَتَنُمُّ عَنْ ذَكَاءٍ وَتَجْرِبَةٍ، وَلَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ نَفْسٍ مُهَذَّبَةٍ، نَزَّاعَةٍ إِلَى الْخَيْرِ.

# حَدِيثُ الْجِنِّيَّةِ

وَالْتَفَتَتِ الْجِنِّيَّةُ إِلَى «مَاجِدَةَ» وَعَلَى فَمِهَا ابْتِسامَةٌ عَذْبَةٌ، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا: «لَعَلَّكِ لَا تَذْكُرِينَنِي الْآنَ؛ فَقَدْ تَبَدَّيْتُ[1] أَمَامَكِ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي أَلِفْتِهَا مِنْ قَبْلُ ... عَلَى أَنَّنِي لَنْ أُطِيلَ حَيْرَتَكِ: أَنَا الْجِنِّيَّةُ «لُؤْلُؤَةُ»؛ حَارِسَةُ وَلَدِكِ، وَحَارِسَةُ الْأَمِيرَةِ «نَرْجِسَ». وَلَعَلَّكِ لَا تَزَالِينَ تَجْهَلِينَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ مِنْ ذَواتِ قُرْباكِ الْأَدْنَيْنَ!

وَرُبَّمَا عَجِبْتِ، إِذَا عَرَفْتِ أَنَّهَا بِنْتُ سِلْفِكِ: «فَيْرُوزَ»؛ أَنْجَبَهَا مِنْ زَوْجَتِهِ الْمَلِكَةِ «سَلْوَى».

وَقَدْ كَانَ لَكِ فَضْلُ إِنْقَاذِهِمَا مِنَ الْهَلاكِ، وَتَخْلِيصِهِمَا مِنِ انْتِقَامِ «الْبَاطِشِ».

وَسَتَتَأَلَّمِينَ أَشَدَّ الْأَلَمِ حِينَ تَعْلَمِينَ أَنَّ «الْباطِشَ» لَمْ تَهْدَأْ ثَائِرَتُهُ، وَلَمْ تَنْطَفِئْ نَارُ غَضَبِهِ عَلَيْهِمَا، إِلَّا بَعْدَ أَنْ صَرَعَهُمَا، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُ فِيهِمَا رَحْمَةٌ وَلَا شَفَقَةٌ!

وَمِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنَّهُمَا لَمْ يُسِيئَا بِهِ الظَّنَّ يَوْمًا واحِدًا.

وَقَدْ خَدَعَهُمَا «الْباطِشُ» بِمَا أَظْهَرَهُ لَهُمَا مِنْ تَوَدُّدٍ كَاذِبٍ، وَقَضَيَا فِي ضِيَافَتِهِ لَيْلَةً وادِعَةً، حَافِلَةً بِفُنُونِ الْمَسَرَّاتِ، وَجَالِباتِ الْبَهْجَةِ.

وَكَانَ مِنْ دَواعِي أَسَفِي وَحَيْرَتِي، أَنِ اغْتَالَهُمَا «الْباطِشُ» وَأَنَا فِي شُغْلٍ عَنْهُمَا بِحِرَاسَةِ أَمِيرِنَا، فَلَمْ يُتَحْ لِي إِنْقَاذُهُمَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ.

وَهَكَذَا تَمَّتِ الْجَرِيمَةُ الشَّنْعَاءُ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ.

وَلَوْلَا لُطْفُ اللهِ وَعِنَايَتُهُ بِهَذِهِ الصَّغِيرَةِ الْمِسْكِينَةِ، لَفَتَكَ بِهَا وَأَلْحَقَهَا بِأَبَوَيْهَا، بَعْدَ أَنْ صَفَا لَهُ الْجَوُّ بِقَتْلِهِمَا، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُلْكِ وَرِيثٌ — بَعْدَهُمَا — غَيْرُ هَذِهِ الطِّفْلَةِ.

---

[1] تبديت: ظهرت.

وَكَانَتْ — لِحُسْنِ حَظِّهَا — تَلْعَبُ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ وَلَمْ تَكُنْ بِجِوارِ أَبَوَيْهَا حِينَ صَرَعَهُمَا «الْباطِشُ».

فَلَمَّا أَتَمَّ جَرِيمَتَهُ الشَّنْعَاءَ، ذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْهَا فِي أَرْجَاءِ الْقَصْرِ، وَفِي يَدِهِ خِنْجَرٌ مَاضٍ، أَعَدَّهُ لِقَتْلِهَا بِهِ.

وَشَاءَ اللهُ — سُبْحَانَهُ — أَنْ أَعُودَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ! وَلَوْ تَأَخَّرْتُ لَحْظَةً أُخْرَى، لَأَنْفَذَ فِيهَا قَضَاءَهُ.

وَمَا كِدْتُ أَتَبَيَّنُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، حَتَّى أَرْكَبْتُهَا ظَهْرَ كَلْبِيَ الْأَمِينِ «وَثَّابٍ» بَعْدَ أَنْ أَمَرْتُهُ أَنْ يَجْرِيَ بِهَا إِلَى الْغَابَةِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ، وَلا يَدَّخِرَ وُسْعًا فِي الْفِرَارِ بِهَا مَا وَسِعَهُ جُهْدُهُ، كَمَا أَمَرْتُهُ أَلَّا يَتْرُكَهَا إِلَّا عَلَى بُعْدِ خُطُواتٍ مِنْ وَلَدِكِ.

وَقَدْ أَخْفَيْتُ عَنْ وَلَدِكِ وَ«نَرْجِسَ» كِلَيْهِمَا سِرَّ مَوْلِدِهِمَا. فَحَذَارِ أَنْ تُفْضِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكِ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمَا قَبْلَ الْأَوَانِ.

وَحَذَارِ أَنْ تَرَى الْأَمِيرَةُ صُورَتَيْ أَبِيهَا وَأُمِّهَا، وَلَا الثِّيَابَ الثَّمِينَةَ الَّتِي أَعَدَدْتُهَا لَهَا؛ لِتَكُونَ — فِيمَا بَعْدُ — مُلائِمَةً لِلْحَيَاةِ الَّتِي سَتَدْرُجُ عَلَيْهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ.»

وَصَمَتَتِ الْجِنِّيَّةُ لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «هَاكِ[٢] — أَيَّتُهَا الْمَلِكَةُ الْكَرِيمَةُ — صُنْدُوقًا مَمْلُوءًا بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ.

وَقَدِ احْتَوَى هَذَا الصُّنْدُوقُ النَّفِيسُ سِرَّ سَعَادَةِ «نَرْجِسَ»!

فَلا تَتَهَاوَنِي فِي أَمْرِهِ، واتَّبِعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، وَتَقَيَّدِي بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَسْمَعِينَهَا مِنِّي.

وَإِيَّاكِ أَنْ تُخَالِفِي نَصِيحَتِي، وَإِلَّا عَرَّضْتِ نَفْسَكِ وَمَنْ تُحِبِّينَ لِكَارِثَةٍ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهَا، وَلا قُدْرَةَ لَكُمْ عَلَى احْتِمَالِهَا.»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «لَنْ تَجِدِي مِنِّي إِلَّا أُذُنًا سَمِيعَةً، وَقَلْبًا واعِيًا.»

فَقَالَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «عَلَيْكِ أَنْ تُخْفِي هَذَا الصُّنْدُوقَ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَتَضَعِيهِ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ، فَلا تُخْرِجِيهِ مِنْ مَخْبَئِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَتَعَرَّضَ الْأَمِيرَةُ لِلضَّيَاعِ، وَيَسْتَحْكِمَ الْيَأْسُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْهَا.»

---

[٢] هاك: خذي.



فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «سَمْعًا وَطَاعَةً يَا سَيِّدَتِي، وَلَنْ أُخَالِفَ لَكِ أَمْرًا، وَسَأُعْنَى بِاتِّبَاعِ نَصِيحَتِكِ، مُتَوَخِّيَةً إِنْجَازَهَا فِي دِقَّةٍ وَإِخْلَاصٍ وَإِحْكَامٍ.

وَلَكِنَّ لِي رَجَاءً واحِدًا، يُسْعِدُنِي لَوْ كَانَ فِي مَقْدُورِكِ أَنْ تُحَقِّقِيهِ لِي!»

فَقَالَتِ الْجِنِّيَّةُ: «مَا أَسْعَدَنِي بِتَلْبِيَةِ رَجَائِكِ، مَتَى كَانَ ذَلِكِ فِي مَقْدُورِي.»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «كَانَ يُسْعِدُنِي لَوْ أَخْبَرْتِنِي: هَلْ يَطُولُ زَمَنُ الشَّقَاءِ لِوَلَدِي؟

وَمَتَى يَزُولُ عَنْهُ السِّحْرُ، فَيُزايِلُهُ الْفَرْوُ الْكَرِيهُ، وَيَسْتَبْدِلُ بِصُورَةِ الدُّبِّ هَيْئَةَ الْأَنَاسِيِّ؟»

فَقَالَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «صَبْرًا — يَا «مَاجِدَةُ» — صَبْرًا، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَوْعِدًا، وَلَنْ يَظْفَرَ الْإِنْسَانُ بِالسَّعَادَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ[٣] عَلَى الِاحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ.

وَمَنْ تَعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ، عُوقِبَ بِحِرْمَانِهِ.

فَلا يُساوِرْكِ الِانْزِعَاجُ وَالْقَلَقُ، وَأَسْلِمِي أَمْرَكِ لله.

واعْلَمِي أَنَّنِي سَاهِرَةٌ عَلَيْهِ وَعَلَى «نَرْجِسَ»، مَعْنِيَّةٌ بِأَمْرِهِمَا جَمِيعًا.

وَلَيْسَ عَلَيْكِ إِلَّا وَاجِبٌ وَاحِدٌ، هُوَ أَنْ تُعْنَيْ بِتَعْلِيمِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَفْقَ الْخُطَّةِ الَّتِي رَسَمْتُهَا لَهُ، لِتُساعِدِيهِ بِذَلِكِ عَلَى الْخَلاصِ مِنَ السِّحْرِ.

[٣] يرُوض نفسه: يُعوِّدها.

وَلَيْسَ أَمَامَكِ إِلَّا طَرِيقٌ واحِدٌ، هُوَ أَنْ يَظْفَرَ وَلَدُكِ بِمَنْ يَدْفَعُهَا إِخْلاصُهَا لَهُ إِلَى أَنْ تَقْبَلَ — رَاضِيَةً مُخْتَارَةً — أَنْ يَكْتَسِيَ وَجْهُهَا بفَرْوِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

وَمَتَى قَبِلَتْ ذَلِكِ — رَاضِيَةً مُخْتَارَةً، عَنْ طِيبِ نَفْسِهَا — بَطَلَ السِّحْرُ، وَزَايَلَهُ عَهْدُ الشَّقَاءِ، وَاسْتَرَدَّ وَلَدُكِ جَمَالَ وَجْهِهِ وَبَهَاءَهُ.

وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ بِغَيْرِ إِخْفَاءِ السِّرِّ، وَكِتْمَانِهِ عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَإِلَّا خابَ السَّعْيُ، وَحَلَّ الْيَأْسُ مَحَلَّ الرَّجَاءِ.

فَهَلْ تُعَاهِدِينَنِي عَلَى أَنْ تَبْقَى هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي طَيِّ الْكِتْمَانِ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَهَا كَائِنٌ كَانَ، أَوْ يَطَّلِعَ أَحَدٌ عَلَى حَقِيقَةِ وَلَدِكِ وَقَرِيبَتِهِ «نَرْجِسَ»، أَوْ يَعْرِفَ مَكَانَتَهُمَا مِنَ السُّمُوِّ، وَمَنْزِلَتَهُمَا مِنَ الرِّفْعَةِ؟

هَذَا سِرٌّ يَجِبُ أَلَّا يَعْرِفَهُ أَحَدٌ. لَا أَسْتَثْنِي مِنْ ذَلِكِ غَيْرَ «حَلِيمَةَ»؛ فَهِيَ وَحْدَهَا جَدِيرَةٌ بِالثِّقَةِ، بِمَا مَيَّزَهَا اللهُ مِنْ مَزَايَا نَادِرَةٍ، وَأَخْلاقٍ مَتِينَةٍ طَاهِرَةٍ.

هَذِهِ وَحْدَهَا جَدِيرَةٌ أَنْ تُفْضِي إِلَيْهَا بِسِرِّكِ، وَلا تَكْتُمِي عَنْهَا شَيْئًا مِنْ قِصَّتِكِ.

وَعَلَيْكِ أَنْ تَسْتَشِيرِيهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَلَنْ تُشِيرَ عَلَيْكِ إِلَّا بِمَا فِيهِ الْخَيْرُ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَلَكِ أَنْ تَعْتَمِدِي عَلَى حِمَايَتِي، دُونَ أَنْ تَخْشَيْ سُوءًا.

وَسَأَمْنَحُكِ هَذَا الْخَاتَمَ النَّفِيسَ هَدِيَّةً لَكِ وَتَذْكَارًا؛ فَضَعِيهِ فِي خِنْصَرِكِ ... وَكُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّه مَا دَامَ فِي حَوْزَتِكِ، فَلَنْ يَنَالَكِ سُوءٌ.»

وَلَمَّا أَتَمَّتِ الْجِنِّيَّةُ نُصْحَهَا، أَسْرَعَتْ بِتَوْدِيعِهَا بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَتْ قُبَّرَةً كَمَا رَأَتْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ أَسْلَمَتْ جَنَاحَيْهَا لِلْفَضَاءِ، وَأَسْرَعَتْ فِي طَيَرَانِهَا مُغَرِّدَةً!

وَلا تَسَلْ عَنْ عَجَبِ «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» مِمَّا رَأَتَا؛ فَقَدْ كَانَتْ دَهْشَتُهُمَا لِذَلِكَ لَا تَقِلُّ عَنْ دَهْشَتِكَ — أَيُّهَا الصَّغِيرُ الْعَزِيزُ — فَلَمْ تَتَمَالَكَا أَنْ وَقَفَتَا حَائِرَتَيْنِ، لَا تَكَادَانِ تُصَدِّقَانِ مَا مَرَّ بِهِمَا.

ثُمَّ تَنَهَّدَتْ «مَاجِدَةُ» ... وابْتَسَمَتْ لَهَا «حَلِيمَةُ»، وَقَالَتْ: «لَقَدْ سَمِعْتِ نَصِيحَةَ الْجِنِّيَّةِ؛ فَلا تَتَهَاوَنِي فِي تَنْفِيذِهَا عَلَى الْفَوْرِ يَا مَلِيكَتِي الْعَزِيزَةَ.

وَهَلُمِّي، فَبادِرِي إِلَى إِخْفَاءِ هَذَا الصُّنْدُوقِ — بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مَلابِسَ — فِي مَكَانٍ أَمِينٍ. وَسَأُعَجِّلُ بِالذَّهَابِ لِأَرَى مَا أَعَدَّتْهُ الْجِنِّيَّةُ لِلْغَدِ مِنْ ثِيَابٍ.»

وَأَسْرَعَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى الْحُجْرَةِ، وَفَتَحَتِ الصِّوَانَ؛ فَرَأَتْهُ غَاصًّا بِفَاخِرِ الثِّيَابِ وَالْأَحْذِيَةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْبَساطَةِ وَالرَّاحَةِ.

فَاخْتَارَتْ «حَلِيمَةُ» لـ «نَرْجِسَ» مَا يُلائِمُهَا مِنْهَا، بَعْدَ أَنْ سَاعَدَتْهَا فِي خَلْعِ ثِيَابِهَا.

ثُمَّ ذَهَبَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى فِرَاشِهَا، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنِ اسْتَسْلَمَتْ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ.

# فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ

وَكَانَ خُوارُ الْبَقَرَةِ أَوَّلَ مَا طَرَقَ سَمْعَ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» — وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْإِصْطَبْلِ — فَأَيْقَظَهُ.

وَلَمْ يَكَدْ صَاحِبُنَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَنْتَبِهُ مِنْ رُقَادِهِ، وَيُجِيلُ لِحَاظَهُ فِيمَا حَوْلَهُ، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسائِلُهَا: «كَيْفَ جِئْتُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟ وَلِمَاذَا قَضَيْتُ لَيْلَتِي فِي الْإِصْطَبْلِ وَلَمْ أَقْضِهَا فِي دَارِي؟

وَمَا بَالِي أَسْتَبْدِلُ بِفِرَاشِيَ النَّاعِمِ الْوَثِيرِ، حُزَمًا مِنَ الْقَشِّ وَالْعَلَفِ!»

وَسُرْعَانَ مَا عَادَتْ بِهِ ذَاكِرَتُهُ؛ فَتَجَلَّى لَهُ كُلُّ مَا وَقَعَ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ مِنْ غَرِيبِ الْمُصَادَفَةِ، وَعَجِيبِ الِاتِّفَاقِ.

فَعَاوَدَهُ الْفَرَحُ بِمَا ظَفِرَ بِهِ — فِي أَمْسِهِ — مِنَ النَّجَاحِ، وَنَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ، أَتَمَّ مَا يَكُونُ صِحَّةً، وَأَوْفَرَ نَشَاطًا وَأَعْظَمَ رَجَاءً.

وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ سُرُورًا وَبَهْجَةً؛ فَانْطَلَقَ فِي وَثَبَاتٍ سَرِيعَةٍ، وَرَاحَ يَقْفِزُ — مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ — قَفَزَاتٍ مُتَتَابِعَةً مُتَلاحِقَةً، حَتَّى بَلَغَ النَّافُورَةَ، فَاغْتَسَلَ عَلَى عَادَتِهِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ.

وَبَكَرَتْ «حَلِيمَةُ» تَحْلُبُ الْبَقَرَةَ، عَلَى مَأْلُوفِ عَادَتِهَا فِي كُلِّ صَبَاحٍ ... وَخَرَجَتْ دُونَ أَنْ تُغْلِقَ الْبَابَ.

فَلَمَّا جَاءَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» دَخَلَ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى إِيقَاظِ أَحَدٍ مِنْ نَوْمِهِ.

وَانْسَلَّ إِلَى حُجْرَةِ أُمِّهِ فِي غَيْرِ جَلَبَةٍ وَلا ضَوْضاءَ.

فَرَأَى «مَاجِدَةَ» أُمَّهُ لَا تَزالُ مُسْتَغْرِقَةً فِي نَوْمِهَا، وَإِلَى جِوَارِهَا سَرِيرُ «نَرْجِسَ»، وَهِيَ لَا تَزَالُ نَائِمَةً أَيْضًا.

وَلا تَسَلْ عَنِ ابْتِهَاجِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حِينَ رَأَى ابْتِسَامَةَ الْفَرَحِ مُرْتَسِمَةً عَلَى فَمِهَا، وَهِيَ — فِيمَا تَبْدُو لِرَائِيهَا — تُتَابِعُ فِي مَنَامِهَا حُلْمًا سَعِيدًا.

عَلَى أَنَّ فَرَحَهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَبَدَّلَ غَمًّا حِينَ رَأَى ابْتِسَامَةَ «نَرْجِسَ» تَغِيضُ فِي مِثْلِ لَمْحَةِ الْبَصَرِ، وَيَحُلُّ مَحَلَّهَا التَّقْطِيبُ وَالْعُبُوسُ.

وَلا تَسَلْ عَنْ فَزَعِهِ مِمَّا بَدَا عَلَى وَجْهِ الْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ مِنْ دَلائِلِ الرُّعْبِ؛ فَقَدْ تَعَاظَمَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالدَّهَشُ حِينَ رَأَى وَجْهَ الْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ يَنْقَبِضُ بَعْدَ انْطِلاقٍ، وَيَتَقَلَّصُ بَعْدَ انْبِسَاطٍ.

وَتَضَاعَفَ أَلَمُهُ حِينَ سَمِعَ صَرْخَةَ رُعْبٍ تَنْبَعِثُ مِنْهَا وَهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فِي نَوْمِهَا، بَعْدَ أَنِ انْقَلَبَتْ أَحْلَامُهَا السَّعِيدَةُ فَجْأَةً.

وَأَدْرَكَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنَّ صَاحِبَتَهُ قَدْ شَهِدَتْ فِي أَحْلَامِهَا مَشْهَدًا خَطِيرًا، فَلَمْ تَمْلِكْ أَنْ تَفَزَّعَتْ لِمَرْآهُ.

وَلا تَسَلْ عَنْ حَيْرَةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حِينَ رَأَى الطِّفْلَةَ تَهُمُّ بِالنُّهُوضِ فَلا تُتِمُّهُ، وَتُحَاوِلُ الْقِيَامَ فَلا تَزِيدُ عَنْ نِصْفِ قَوْمَةٍ.

ثُمَّ تَمْتَدُّ يَدَاهَا — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهَا — وَتَسْتَقِرَّانِ عَلَى عُنُقِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، فَتُطَوِّقُهُ بِذِرَاعَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ، وَهِيَ تُجَمْجِمُ أَلْفَاظَ اسْتِغَاثَةٍ، تَدْعُوهُ بِهَا إِلَى نَجْدَتِهَا، وَتَخْلِيصِهَا مِنْ وَرْطَتِهَا.

ثُمَّ تَخْتِمُ ذَلِكَ بِأَلْفَاظٍ مُتَقَطِّعَةٍ، اسْتَطَاعَ — بَعْدَ جُهْدٍ شَدِيدٍ — أَنْ يُؤَلِّفَ مِنْ كَلِمَاتِهَا الْجُمَلَ التَّالِيَةَ: «هَلُمَّ أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» ...

أَيْنَ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّهْمُ الْكَرِيمُ.

دَرَاكِ،[١] أَيُّهَا الشُّجَاعُ الْمِقْدَامُ.

خَلِّصْ «نَرْجِسَ» مِنَ الْغَرَقِ ...

إِلَيَّ، إِلَيَّ ... الْأَمْوَاجُ الثَّائِرَةُ تُرِيدُ أَنْ تَبْتَلِعَ «نَرْجِسَ» ... الْأَمْوَاجُ تُرِيدُ أَنْ تَخْنُقَهَا ...

اُنْظُرْ ... هَا هِيَ ذِي ضِفْدِعٌ شَرِسَةٌ تَجُرُّ «نَرْجِسَ» ...

الضِّفْدِعُ تَدْفَعُ «نَرْجِسَ» إِلَى الْقَاعِ لِتُغْرِقَهَا وَتُزْهِقَ رُوحَهَا!»

[١] دراك أيها الشجاع: أدركني.

وَهُنَا أَفَاقَتْ «نَرْجِسُ» مِنْ حُلْمِهَا الْمُزْعِجِ بَاكِيَةً حَزِينَةً، وَقَدِ ارْتَسَمَ الْفَزَعُ وَالرُّعْبُ عَلَى أَسارِيرِهَا — مِمَّا شَهِدَتْهُ فِي الْأَحْلامِ مِنْ هَوْلٍ — وَتَشَبَّثَتْ ذِرَاعَاهَا الصَّغِيرَتَانِ بِخَيَالِهِ، كَأَنَّمَا تَسْتَغِيثُ بِهِ مِنْ هَوْلِ مَا فَزَّعَهَا فِي أَحْلامِهَا قَائِلَةً: «ابْتَعِدِي، أَيَّتُهَا الضِّفْدِعُ الشِّرِّيرَةُ.

هَلُمَّ، أَيُّهَا الشُّجَاعُ! خَلِّصْنِي مِنْهَا.»

وَهَبَّتْ «مَاجِدَةُ» مِنْ نَوْمِهَا الْعَمِيقِ، عَلَى أَثَرِ هَذِهِ الصَّرَخَاتِ، وَهِيَ لَا تَدْرِي لِفَزَعِ الطِّفْلَةِ سَبَبًا.

وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تُلاطِفُهَا، وَتُهَدِّئُ مِنْ رُوْعِهَا، وَتَسْأَلُهَا فِي حُنُوٍّ وَإِشْفَاقٍ عَمَّا أَخَافَهَا وَأَزْعَجَهَا.

فَقَالَتْ لَهَا بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ[٢] مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ: «أَلا تَعْلَمِينَ مَا حَدَثَ؟ «نَرْجِسُ» تَتَنَزَّهُ … «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَسِيرُ مَعَهَا.

كَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يُمْسِكُ يَدَ «نَرْجِسَ»، ثُمَّ يَتْرُكُ يَدَهَا … ابْتَعَدَ «الدُّبُّ» عَنْ «نَرْجِسَ».

ضِفْدِعٌ قَبِيحَةُ الشَّكْلِ، دَمِيمَةُ الْخِلْقَةِ تَجْرِي نَحْوَ «نَرْجِسَ».

«نَرْجِسُ» تَهْرُبُ إِلَى الْمَاءِ خَوْفًا مِنَ الضِّفْدِعِ.

الضِّفْدِعُ تَقْتَرِبُ …

«نَرْجِسُ» الْمِسْكِينَةُ تَسْقُطُ فِي الْمَاءِ.

الْأَمْوَاجُ تُرِيدُ أَنْ تَبْتَلِعَ «نَرْجِسَ» …

«نَرْجِسُ» تُنَادِي «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لِيُنْقِذَهَا مِنَ الْغَرَقِ.

«الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يُسْرِعُ إِلَى «نَرْجِسَ»، لِيُنَجِّيَهَا مِنَ الْغَرَقِ.

«نَرْجِسُ» تُحِبُّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، وَتَشْكُر لَهُ صَنِيعَهُ النَّبِيلَ!»

وَهُنَا سَكَتَتْ «نَرْجِسُ» لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا فِي صَوْتٍ خافِتٍ رَقِيقِ الْجَرْسِ، عَذْبِ النَّبَرَاتِ: «نَرْجِسُ لَا تَنْسَى «الدُّبَّ» الْكَرِيمَ الشَّهْمَ طُولَ الْحَيَاةِ.»

وَهُنَا ارْتَمَتْ «نَرْجِسُ» بَيْنَ ذِرَاعَيِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» دُونَ أَنْ يَصُدَّهَا عَنْ ذَلِكَ بَشَاعَةُ فَرْوِهِ، وَشَنَاعَةُ مَنْظَرِهِ.

---

[٢] صوت متهدج: متقطع مرتعش.

فَأَقْبَلَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يُؤَسِّيهَا.[٣] وَمَا زَالَ يُرَوِّحُ عَنْهَا، حَتَّى أَعَادَ إِلَيْهَا الطُّمَأْنِينَةَ.

وَأَيْقَنَتْ «مَاجِدَةُ» أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا كَانَتْ — بِلا شَكٍّ — نَذِيرَ شَرٍّ مِنْ أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ الْخَبِيثَةِ؛ فَأَصَرَّتْ عَلَى أَنْ تُضَاعِفَ مِنْ عِنَايَتِهَا بِـ «نَرْجِسَ»، وَعَقَدَتْ عَزْمَهَا عَلَى أَلَّا تَدَّخِرَ وُسْعًا فِي مُرَاقَبَتِهَا وَالسَّهَرِ عَلَيْهَا، بِكُلِّ مَا أُوتِيَتْ مِنْ قُوَّةٍ وَجَهْدٍ، كَمَا اعْتَزَمَتْ أَنْ تُفْضِي إِلَى وَلَدِهَا الصَّغِيرِ بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَهُ بِهِ، دُونَ أَنْ تُخَالِفَ أَمْرَ الْجِنِّيَّةِ، أَوْ تَعْصِيَ لَهَا نُصْحًا.

وَلَمْ تُقَصِّرْ «مَاجِدَةُ» فِي مُلاطَفَةِ «نَرْجِسَ» وَإِينَاسِهَا، حَتَّى تُسَرِّيَ عَنْ نَفْسِهَا مَا كَانَ قَدْ أَلَمَّ بِهَا مِنَ الْفَزَعِ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، أَلْبَسَتْهَا ثَوْبًا فَاخِرًا مِنَ الثِّيَابِ الَّتِي أَعَدَّتْهَا لَهَا، ثُمَّ دَعَتْهَا إِلَى مُشَارَكَتِهَا فِي الْفَطُورِ مَعَ وَلَدِهَا.

وَكَانَتْ «حَلِيمَةُ» قَدْ أَعَدَّتِ الْمَائِدَةَ، وَعَلَيْهَا طَبَقٌ مَمْلُوءٌ بِمَا جَلَبَتْهُ مِنَ اللَّبَنِ فِي الصَّباحِ الْباكِرِ، وَإِلَى جَانِبِهِ الْخُبْزُ.

فَأَقْبَلَتْ «نَرْجِسُ» عَلَى الْمَائِدَةِ، وَقَدْ نَسِيَتْ أَحْزانَهَا، وَحَلَّتِ الْبَهْجَةُ فِي قَلْبِهَا مَحَلَّ الْفَزَعِ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَا قَامَتْ بِهِ — وَهِيَ تَهُمُّ بِالْجُلُوسِ عَلَى الْمَائِدَةِ — قَوْلُهَا لِـ «مَاجِدَةَ»: «إِنَّ «نَرْجِسَ» لَا يَطِيبُ لَهَا أَنْ تَأْكُلَ وَحْدَهَا.

وَلا يُسْعِدُهَا شَيْءٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَشْرَكَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» فِي طَعَامِهَا.

وَيَزِيدُ مِنْ سَعَادَتِهَا أَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْهَا أُمُّ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».»

فَقَالَتْ لَهَا «مَاجِدَةُ»، وَهِيَ تُغالِبُ الضَّحِكَ: «أَنَا لَا أُدْعَى أُمَّ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

فَإِنْ شِئْتِ أَنْ تُنَادِينِي، فَحَسْبُكِ أَنْ تَعْتَبِرِينِي أُمًّا ثانِيَةً لَكِ، فَتُنَادِينِي — إِذَا أَرَدْتِ — كَمَا تُنَادِينَ أُمَّكِ.»

فَقَالَتْ لَهَا «نَرْجِسُ» وَهِيَ تَهُزُّ رَأْسَهَا مَحْزُونَةً مُتَأَلِّمَةً: «آهٍ ... أَأَنْتِ أُمِّي؟ كَيْفَ؟ أَيْنَ أَنْتِ يَا أُمَّاهُ؟

[٣] يؤسيها: يصبِّرها ويسلِّيها.

أُمِّي هِيَ الَّتِي هُنَاكَ! أُمِّي لَيْسَتْ هُنَا. أُمِّي! إِنَّهَا تَنَامُ هُنَاكَ دَائِمًا. إِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَنَزَّهَ مَعَ «نَرْجِسَ»، وَلا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَبِّلَ «نَرْجِسَ» أَبَدًا.

إِنَّ «نَرْجِسَ» تُحِبُّ أُمَّهَا، وَتُحِبُّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» وَتُعِزُّهُ كَثِيرًا.»

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» مُتَشَبِّثَةً بِيَدِ «مَاجِدَةَ» وَهِيَ تَنْطِقُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، ثُمَّ قَبَّلَتْهَا فِي خِتَامِهَا.

فَلَمْ تُجِبْهَا «مَاجِدَةُ» بِأَكْثَرَ مِنْ قُبْلَةٍ تَفِيضُ حُنُوًّا وَمَحَبَّةً.

وامْتَلَأَ قَلْبُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حُزْنًا وَأَسًى لِمَا تُعَانِيهِ «نَرْجِسُ» مِنْ آلَامٍ؛ فَغَصَّتْ[٤] عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ.

وَلَاحَظَتْ «نَرْجِسُ» مَا يُعَانِيهِ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى وَالتَّأَثُّرِ؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مُتَوَدِّدَةً، وَأَمَرَّتْ عَلَى جَبِينِهِ يَدَيْهَا، وَمَسَحَتْ دُمُوعَهُ بِمِنْدِيلِهَا.

ثُمَّ قَالَتْ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ ضَارِعَةً: «بِرَبِّكَ لَا تَحْزَنْ أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ».

«نَرْجِسُ» تَرْجُو مِنْكَ أَلَّا تَبْكِيَ.

إِذَا بَكَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَكَتْ «نَرْجِسُ».»

فَأَجَابَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» حَانِيًا مُتَوَدِّدًا: «إِنَّمَا يَبْكِي «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» لِبُكَائِكِ يَا عَزِيزَتِي.

فَإِذَا كَفَفْتِ أَنْتِ عَنِ الْبُكَاءِ كَفَفْتُ أَنَا عَنْهُ.»

ثُمَّ سَكَتَ لَحْظَةً وَقَالَ: «هَلُمِّي نُفْطِرْ، ثُمَّ نَذْهَبْ لِنَتَنَزَّهَ.»

وَهَكَذَا حَلَّ السُّرُورُ مَحَلَّ الْحُزْنِ، وَأَقْبَلَ الْجَمِيعُ عَلَى الْمَائِدَةِ يَأْكُلُونَ مُبْتَهِجِينَ.

[٤] غصت: امتلأت.

# بَيْنَ الْأُمِّ وَالْوَلَدِ

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، خَرَجَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَفِي صُحْبَتِهِ «نَرْجِسُ»، وَخَلَّفَا «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» تُعْنَيَانِ بِشَأْنِ الْمَنْزِلِ.

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» لَا يَأْلُو جُهْدًا[1] فِي مُلاطَفَةِ «نَرْجِسَ»، وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَهَا.

وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَجْمَعَ لَهَا طَاقَةً مِنْ بَدِيعِ الْأَزْهَارِ، وَأَنْ يَمْلَأَ لَهَا سَلَّةً حَافِلَةً بِالْكَرِيزِ الشَّهِيِّ، الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهَا.

وَكَذَلِكَ لَمْ تَنْسَ «نَرْجِسُ» أَنْ تَشْكُرَ لَهُ عِنَايَتَهُ بِهَا، واهْتِمَامَهُ بِأَمْرِهَا.

وَقَدْ كَاشَفَتْهُ بِأَنَّهَا تَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ كُلَّمَا لَقِيَتْهُ.

وَلَمْ تَكُنْ سَعَادَتُهُ بِهَا لِتَقِلَّ عَنْ سَعَادَتِهَا بِهِ.

وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيُضِيعَ أَكْثَرَ وَقْتِهِ فِي اللِّعِبِ، وَلَمْ يَكُنْ يَأْذَنُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَلْعَبَ إِلَّا بِمِقْدَارٍ.

فَلَا عَجَبَ إِذَا قَالَ لـ «نَرْجِسَ»: «لَقَدْ أَخَذْنَا حَظَّنَا مِنَ اللَّعِبِ أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ الْعَزِيزَةُ.

وَأَرَى أَنَّ وَاجِبِي يَدْعُونِي إِلَى مُسَاعَدَةِ أُمِّي وَمُشَارَكَةِ «حَلِيمَةَ» فِيمَا تَقُومَانِ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبَيْتِ.»

فَقَالَتْ لَهُ «نَرْجِسُ»: «وَبِمَاذَا تُساعِدُهُمَا أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ؟»

فَأَجَابَهَا: «مَا أَكْثَرَ الْعَمَلَ لِمَنْ يُرِيدُ!

---

[1] لا يألو: لا يقصر.

فَأَنَا أُسَاعِدُهُمَا فِيمَا تَقُومَانِ بِهِ مِنْ كَنْسٍ وَمَسْحٍ وَرَشٍّ، كَمَا أُسَاعِدُهُمَا فِي رَعْيِ الْبَقَرَةِ وَحَلْبِهَا، واجْتِثَاثِ الْحَشَائِشِ وَالْأَعْشَابِ، وَجَلْبِ مَا تَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنْ حَطَبٍ وَمَاءٍ.»

فَقَالَتْ لَهُ: «أَتُحِبُّ أَنْ تُسَاعِدَكَ «نَرْجِسُ» فِي ذَلِكَ؟»

فَقَالَ مُتَعَجِّبًا: «إِنَّكِ يَا عَزِيزَتِي لَا تَزَالِينَ صَغِيرَةً جِدًّا. فَبِمَاذَا تُساعِدِينَنِي؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «أُسَاعِدُكَ بِكُلِّ مَا أَسْتَطِيعُ!»

فَقَالَ لَهَا بَاسِمًا: «فَلْيَكُنْ لَكِ مَا تَشَائِينَ، وَلَنْ أَحُولَ بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمُشَارَكَةِ فِي ذَلِكِ بِقَدْرِ مَا يَسْمَحُ بِهِ سِنُّكِ وَجُهْدُكِ.»

وَلَمَّا عَادَا إِلَى الْمَنْزِلِ، بَدَأَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» عَمَلَهُ الْيَوْمِيَّ — فِي نَشَاطٍ واهْتِمَامٍ — وَإِلَى جَانِبِهِ «نَرْجِسُ» تَتْبَعُهُ أَيْنَمَا ذَهَبَ، بَاذِلَةً كُلَّ مَا فِي وُسْعِهَا مِنْ جُهْدٍ فِي مُعَاوَنَتِهِ.

وَكَانَتْ — لِصِغَرِهَا — لَا تَكَادُ تَقْدِرُ عَلَى أَدَاءِ شَيْءٍ نَافِعٍ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى.

وَلَكِنَّ رَغْبَتَهَا الشَّدِيدَةَ فِي أَنْ تَكُونَ عَامِلَةً نَافِعَةً قَدْ تَغَلَّبَتْ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ.

فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ عَرَفَتْ كَيْفَ تَغْسِلُ الْأَكْوَابَ وَتُنَظِّفُ الصِّحَافَ،[٢] وَكَيْفَ تَرْفَعُ غِطَاءَ الْمَائِدَةِ وَتَمْسَحُهُ وَتَطْوِيهِ، وَكَيْفَ تَذْهَبُ مَعَ «حَلِيمَةَ» إِلَى حُجْرَةِ اللَّبَنِ؛ لِتَسْتَخْرِجَ الْجُبْنَ وَالزُّبْدَ وَالْقِشْدَةَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» — كَمَا تَعْلَمُ — آيَةً مِنْ آيَاتِ الْوَدَاعَةِ وَالْمُسَالَمَةِ؛ فَلَمْ تَجْنَحْ مَرَّةً إِلَى مُشَاكَسَةٍ، وَلَمْ تَهُمَّ ذَاتَ يَوْمٍ بِمُعَاكَسَةٍ، وَلَمْ يَخْطُرْ لَهَا أَنْ تَعْصِيَ لِمُضِيفِيهَا أَمْرًا، أَوْ تُخَالِفَ رَأْيًا.

وَلَمْ تَبْدُ عَلَيْهَا — خِلَالَ إِقَامَتِهَا مَعَهُمْ — إِشَارَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى سُخْطٍ أَوْ تَذَمُّرٍ.

فَلَا عَجَبَ إِذَا أَكْسَبَتْهَا تِلْكَ الْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ مَحَبَّةَ الْجَمِيعِ، وَأَصْبَحَتْ مَوْضِعَ تَقْدِيرِهِمْ وَإِعْزَازِهِمْ.

وَضَاعَفَ مِنْ عَطْفِ «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» عَلَيْهَا مَا عَلِمَتَاهُ مِنْ قَرَابَتِهَا الْوَثِيقَةِ بـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

فَهِيَ بِنْتُ عَمِّهِ، وَهِيَ لِذَلِكَ أَجْدَرُ بِالرِّعَايَةِ وَأَحَقُّ بِالْعِنَايَةِ.

[٢] الصحاف: الأطباق.

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» تُبَادِلُهُمَا الْمَحَبَّةَ، وَتَخُصُّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ إِخْلَاصٍ وَوَفَاءٍ.

وَلَمْ يَكُنْ بِمُسْتَكْثَرٍ عَلَى الصَّبِيِّ الْوَادِعِ الْعَظِيمِ؛ فَقَدْ كَانَ — كَمَا عَلِمْتَ — مِثَالًا رَائِعًا لِلْإِيثَارِ وَإِنْكَارِ الذَّاتِ.

وَطَالَمَا نَسِيَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ إِسْعَادِ غَيْرِهِ، وَكَانَ لَا يَكُفُّ لَحْظَةً عَنْ تَيْسِيرِ أَسْبابِ السُّرُورِ لَهَا، وَتَوْفِيرِ وَسَائِلِ السَّعَادَةِ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا يَتَوَانَى فِي جَلْبِ مَا يُسَلِّيهَا وَيُرْضِيهَا، وَلا يَسْتَكْثِرُ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ فِي سَبِيلِهَا.

وَذَاتَ يَوْمٍ انْتَهَزَتْ «مَاجِدَةُ» فُرْصَةَ ذَهَابِ «حَلِيمَةَ» وَ«نَرْجِسَ» إِلَى السُّوقِ، فَقَصَّتْ عَلَى وَلَدِهَا «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مَا وَقَعَ لَهَا مُنْذُ أَعْوامٍ، مِنْ حَادِثٍ أَلِيمٍ لَمْ يَكُنْ يَدُورُ لَهَا فِي حِسَابٍ، وَلا يَخْطُرُ لَهَا عَلَى بَالٍ.

وَكَاشَفَتْهُ بِأَنَّ السَّبِيلَ مَيْسُورٌ أَمَامَهُ إِذَا شَاءَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ هَذَا الْفَرْوِ، مَتَى اسْتَطَاعَ أَنْ يَظْفَرَ بِإِعْجَابِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مِمَّنْ تَدْفَعُهُ مَحَبَّتُهُ لَهُ وَافْتِتَانُهُ بِهِ إِلَى تَفْضِيلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَلا يَتَرَدَّدُ فِي مُبادَلَتِهِ بِسَعَادَتِهِ شَقَاءً، وَبِبَشَرَتِهِ ذَلِكَ الْفَرْوَ!

وَقَالَتْ لَهُ: «أَرْجُو أَنْ تُوَفَّقَ إِلَى هَذِهِ الْفِدَائِيَّةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تُؤْثِرُ سَعَادَتَكَ عَلَى سَعَادَتِهَا، وَلا تُحْجِمُ عَنْ ذَلِكَ، مُكَافَأَةً لَكَ عَلَى مَا تُسْدِيهِ إِلَيْهَا مِنْ مَعْرُوفٍ، وَتُقَدِّمُهُ لَهَا مِنْ جَمِيلٍ.»

فَصاحَ وَلَدُهَا مُنْزَعِجًا: «كَلَّا، لَنْ أَقْبَلَ أَنْ يَكُونَ شَقَاءُ غَيْرِي ثَمَنًا لِسَعَادَتِي، وَلَنْ أَرْضَى أَنْ يَكُونَ جَزاءُ مَنْ يُفْرِدُنِي بِإِخْلاصِهِ وَوَفَائِهِ، أَنْ تُشَوَّهَ خِلْقَتُهُ، وَتُسْلَبَ هَنَاءَتُهُ.

كَلَّا، لَا أَرْضَى لِمَنْ يُحِبُّنِي هَذِهِ الْخاتِمَةَ الْقَاسِيَةَ.

وَلا بُدَّ مِنَ الرِّضَى بِمَا قَسَمَهُ الْقَدَرُ لِي مِنْ تَعَاسَةٍ، وَكَتَبَهُ عَلَيَّ مِنْ شَقَاءٍ.

وَسَتَرَيْنَ كَيْفَ أَحْتَمِلُ مَا جَلَبَتْهُ عَلَيَّ أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ، بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ رَاضِيَةٍ، دُونَ أَنْ أَتَنَصَّلَ مِنْ تَبِعَاتِهِ،[٣] أَوْ أَرْمِيَ بِهِ غَيْرِي مِنَ الْخُلَصَاءِ الْأَبْرِيَاءِ الْوادِعِينَ.

وَمَا أَدْرِي كَيْفَ تَخَيَّلْتِ أَنَّ مِثْلِي يَقْبَلُ مِثْلَ هَذَا الِاقْتِرَاحِ؟!

[٣] أتنصل من تبعاته: أتخلص من مسئولياته.

وَكَيْفَ دَارَ بِذِهْنِكِ أَنَّنِي أَرْضَى بِأَنْ يَشْقَى غَيْرِي بِهَذَا الْفَرْوِ الْبَشِعِ، وَأَنْ أَجْلُبَ عَلَيْهِ نُفُورَ مَنْ يَرَاهُ مِنَ النَّاسِ وَكَرَاهِيَتَهُمْ لَهُ، وَاحْتِقَارَهُمْ إِيَّاهُ؟!

كَيْفَ أَرْضَى بِتَحْقِيرِ غَيْرِي لِأَظْفَرَ بِإِعْجَابِ النَّاسِ وَمَحَبَّتِهِمْ؟!

كَلَّا، لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى أَيِّ حَالٍ.»

وَبَذَلَتْ «مَاجِدَةُ» قُصَارَى جُهْدِهَا فِي سَبِيلِ إِقْنَاعِهِ بِرَأْيِهَا؛ فَلَمْ تَلْقَ مِنْهُ أُذُنًا سَمِيعَةً.

وَرَأَتْ مِنْ إِصْرَارِهِ عَلَى رَأْيِهِ مَا أَيْأَسَهَا مِنْ بُلُوغِ مَا تَتَمَنَّاهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ.

وَكَانَتْ كُلَّمَا زَادَتْهُ إِلْحَاحًا، زَادَهَا نُفُورًا وَإِعْرَاضًا.

وَانْتَهَتِ الْمُنَاقَشَةُ بَيْنَهُمَا بِأَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهَا — فِي إِصْرَارٍ وَحَزْمٍ — أَلَّا تُعِيدَ عَلَى سَمْعِهِ ذَلِكَ الْحَدِيثَ مَرَّةً أُخْرَى.

وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي تَحْذِيرِهَا مِنْ مُفَاتَحَةِ «نَرْجِسَ» بِذَلِكَ السِّرِّ، أَوِ الْإِفْضَاءِ بِهِ إِلَى أَحَدٍ مِمَّنْ يَخْطُرُ لَهَا أَنَّهُ يَحْرِصُ عَلَى مُساعَدَتِهِ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ فَرْوِهِ.

فَلَمْ تَتَمَالَكْ «مَاجِدَةُ» أَنْ وَعَدَتْهُ بِتَحْقِيقِ مَا أَرَادَ.

وَكَانَتْ — بِرَغْمِ عَجْزِهَا عَنْ مُقَاوَمَةِ رَغْبَتِهَا فِي إِسْعَادِهِ، وَتَخْلِيصِهِ مِنَ الْمِحْنَةِ — تَشْعُرُ بِإِجْلَالٍ لِوَلَدِهَا لِمَا مَيَّزَهُ اللهُ بِهِ مِنْ طَبْعٍ فَيَّاضٍ بِالشَّهَامَةِ وَالنُّبْلِ، وَتُحِسُّ لَهُ بِإِكْبَارٍ عَظِيمٍ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهَا، لِمَا رَأَتْهُ مِنْ مَتَانَةِ خُلُقِهِ، وَطَهَارَةِ نَفْسِهِ.

عَلَى أَنَّهَا — بِرَغْمِ إِصْرَارِهِ عَلَى رَأْيِهِ — لَمْ تَرْكَنْ إِلَى الْيَأْسِ مِنَ السَّعَادَةِ؛ فَقَدْ دَبَّ الرَّجَاءُ إِلَى نَفْسِهَا أَنْ يُلْهِمَ اللهُ الْجِنِّيَّةَ أَنْ تَقْدُرَ لِوَلَدِهَا الصَّغِيرِ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ نَبِيلِ الْخِصالِ، فَلا تُحْوِجَهُ إِلَى بَذْلِ مَا تَأْبَاهُ نَفْسُهُ الطَّاهِرَةُ مِنْ إِيذَاءِ غَيْرِهِ، فِي سَبِيلِ تَخْلِيصِ وَجْهِهِ مِنَ الْفَرْوِ الْبَغِيضِ.

وامْتَلَأَ قَلْبُهَا أَمَلًا فِي أَنْ تَعْمَلَ الْجِنِّيَّةُ — بِبَاعِثٍ مِنْ ضَمِيرِهَا — عَلَى تَخْلِيصِهِ مِنْ فَرْوِهِ، مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى طَهَارَتِهِ، وَصَفَاءِ قَلْبِهِ وَعَظِيمِ مُرُوءَتِهِ.

# عَوْدَةُ الضِّفْدِعِ

وَمَضَتِ الْأَيَّامُ مُتَتَابِعَةً بَعْدَ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ ذُو بَالٍ، أَوْ حَادِثٌ غَيْرُ عَادِيٍّ.

وَمَا زَالَتْ «نَرْجِسُ» تَشِبُّ وَتَنْمُو وَتَتَرَعْرَعُ ...

وَقَدْ نَسِيَتْ «مَاجِدَةُ» — عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ — تِلْكَ الرُّؤْيَا الْمُفَزِّعَةِ، الَّتِي شَهِدَتْهَا «نَرْجِسُ» فِي مَنَامِهَا، فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ حَلَّتْ عِنْدَهَا ضَيْفًا، وَلَمْ يَعُدْ ذَلِكَ الْحُلْمُ الْهَائِلُ يَمُرُّ لـ «مَاجِدَةَ» عَلَى بَالٍ.

فَلا عَجَبَ إِذَا كَفَّتْ عَنْ مُرَاقَبَتِهَا، بَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّتْ عَلَيْهَا، وَزايَلَهَا الْخَوْفُ مِنْ تَعَرُّضِهَا لِلْكَوارِثِ، فَأَصْبَحَتْ «نَرْجِسُ» تَخْرُجُ مِنَ الدَّارِ لِتَتَنَزَّهَ، تَارَةً وَحْدَهَا، وَتَارَةً فِي صُحْبَةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

وَكَانَ صَاحِبُهَا قَدْ أَدْرَكَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ؛ فَنَمَا جِسْمُهُ، وَقَوِيَ بَأْسُهُ، واشْتَدَّ سَاعِدُهُ.

وَكَانَ يَتَمَيَّزُ بِالنَّشَاطِ وَرَشَاقَةِ الْحَرَكَةِ ... وَأَصْبَحَ النَّاظِرُ لَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالدَّمَامَةِ وَلا بِالْجَمَالِ، بَعْدَ أَنْ غَطَّى شَعْرُهُ الْحَرِيرِيُّ الطَّوِيلُ الْأَسْوَدُ وَجْهَهُ.

وَكَانَ لِقَاؤُهُمَا — وَحْدَهُ — يُنْسِيهِ حُزْنَهُ وَأَلَمَهُ.

وَلَمْ يَكُنْ يُضْجِرُهُ نُفُورُ النَّاسِ مِنْهُ وَانْزِعَاجُهُمْ مِنْ رُؤْيَتِهِ؛ لِأَنَّهُ عَرفَ كَيْفَ يَنْجُو مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِطْ بِهِمْ، واكْتَفَى بِالْبَقَاءِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُتَعَاطِفَةِ الْمُتَحَابَّةِ الْمُؤْتَلِفَةِ مِنْ ثَلاثٍ، يُعِزُّهُنَّ وَيُعْزِزْنَهُ، وَلا يُطِقْنَ فِرَاقَهُ، وَلا يُطِيقُ عَنْهُنَّ بُعْدًا.

وَكَانَتْ سَعَادَتُهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» وَ«نَرْجِسَ».

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» قَدْ بَلَغَتِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهَا؛ فَزادَتْهَا الْأَيَّامُ وَالسِّنُونَ حُسْنًا عَلى حُسْنِهَا.

وَقَدْ تَعَلَّمَتْ «نَرْجِسُ» كَثِيرًا مِنَ الْمَعَارِفِ فِي خِلالِ هَذِهِ السَّنَواتِ السَّبْعِ الَّتِي قَضَتْهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ.

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ تَعَهَّدَتْهَا «مَاجِدَةُ» بِالتَّهْذِيبِ وَالتَّعْلِيمِ، وَلَمْ تُقَصِّرْ فِي الْعِنَايَةِ بِتَنْشِئَتِهَا عَلى أَكْمَلِ مِثالٍ.

كَمَا عُنِيَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِتَزْوِيدِهَا بِكُلِّ مَا بَرَعَ فِيهِ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ، بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهَا الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ.

وَكَانَ حَرِيصًا عَلى الْوَقْتِ، دَائِمَ الْعِنَايَةِ بِالِاسْتِفَادَةِ مِنْهُ، فَلَمْ يُضِعْ عَلَيْهَا يَوْمًا بِلا فَائِدَةٍ؛ فَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى عَمَلِ الْبَيْتِ، رَاحَ يَتْلُو عَلَيْهَا مَا يَقْرَؤُهُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، لِيَشْرَكَهَا فِي فَوَائِدِ مَا يَجْنِيهِ مِنَ الْقِرَاءَةِ.

وَقَدْ وَجَدَتْ «نَرْجِسُ» كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ فِي حُجْرَةِ الْمُطَالَعَةِ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْهَا نَفَائِسُ الْكُتُبِ.

كَمَا وَجَدَتْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ؛ لَهَا وَلـ «مَاجِدَةَ»، وَ«حَلِيمَةَ»، وَ«الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

وَهَكَذَا وَجَدَتِ الْأُسْرَةُ كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، دُونَ أَنْ تُضْطَرَّ إِلَى الذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِبَيْعِ شَيْءٍ أَوْ شِرَاءِ شَيْءٍ.

وَقَدِ اسْتَطَاعَتْ «مَاجِدَةُ»، بِفَضْلِ الْخَاتَمِ الَّذِي وَضَعَتْهُ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ فِي خِنْصَرِهَا أَنْ تَجِدَ كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْحَالِ.

وَكَانَتْ لَا تَكَادُ تُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَجَدَتْهُ أَمَامَهَا، دُونَ أَنْ تَنْقُلَ إِلَيْهِ قَدَمًا، أَوْ تَبْذُلَ — لِلْحُصُولِ عَلَيْهِ — جُهْدًا.

وَكَانَ عَيْشُهُمْ سَعِيدًا، لَوْ دَامَ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؛ وَلَكِنَّ دَوامَ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ.

فَقَدْ حَدَثَ — ذَاتَ يَوْمٍ — مَا نَغَّصَ عَلَيْهِمْ صَفْوَ الْحَيَاةِ الْوَادِعَةِ الْهَانِئَةِ.

وَإِلَيْكَ تَفْصِيلَ مَا حَدَثَ:

كَانَتْ «نَرْجِسُ» تَتَنَزَّهُ مَعَ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»؛ فَاصْطَدَمَتْ قَدَمُهَا بِحَجَرٍ، فَأَدْمَاهَا وَسَلَخَهَا، وَاشْتَدَّ انْزِعَاجُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حِينَ رَأَى الدَّمَ يَسِيلُ مِنْهَا.

وَحَاوَلَ أَنْ يَضْمِدَ جُرْحَهَا،[1] فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ يُحَقِّقُ لَهُ طِلْبَتَهُ.

وَرَأَى الْأَلَمَ يَشْتَدُّ بِهَا؛ فَزادَتْ حَيْرَتُهُ، وَآلَمَهُ مَا شَهِدَهُ فِي عَيْنَيْهَا مِنْ دُمُوعٍ.

وَقَدْ بَذَلَتِ الْمِسْكِينَةُ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهَا لِتَحْبِسَ دُمُوعَهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ.

وَلَمْ يَرَ وَسِيلَةً يَلْجَأُ إِلَيْهَا غَيْرَ الذَّهَابِ بِهَا إِلَى الْغَدِيرِ، وَهُوَ عَلَى مَسَافَةِ عَشْرِ خُطُوَاتٍ مِنْهَا.

فَقَالَ لَهَا: «خَفِّفِي مِنْ حُزْنِكِ — يَا «نَرْجِسُ» — وَاعْتَمِدِي عَلَيَّ.

وَابْذُلِي جُهْدَكِ حَتَّى تَصِلِي إِلَى الْغَدِيرِ،[2] لَعَلَّ مَاءَهُ يُخَفِّفُ عَنْكِ بَعْضَ مَا تُكَابِدِينَ مِنْ أَلَمٍ.»

وَبَذَلَتْ «نَرْجِسُ» جُهْدَهَا لِتَسِيرَ بِمَعُونَةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، حَتَّى بَلَغَا ضِفَّةَ الْغَدِيرِ … وَثَمَّ نَزَعَتْ حِذاءَهَا وَجَوْرَبَهَا، وَوَضَعَتْ قَدَمَهَا فِي الْمَاءِ الْجَارِي.

فَقَالَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «اصْبِرِي هُنَا قَلِيلًا يَا عَزِيزَتِي، رَيْثَمَا أَذْهَبُ إِلَى الدَّارِ، وَأَعُودُ إِلَيْكِ بِقِطْعَةٍ مِنَ النَّسِيجِ، أَلُفُّ بِهَا رِجْلَكِ.

وَلَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْكِ إِلَّا لَحَظَاتٍ يَسِيرَةً.

وَحَذَارِ أَنْ تَتَقَدَّمِي إِلَى الْغَدِيرِ خُطْوَةً واحِدَةً أَكْثَرَ مِمَّا أَنْتِ؛ فَإِنَّهُ — فِيمَا أَعْلَمُ — عَمِيقُ الْغَوْرِ، وَشَاطِئُهُ وَحِلٌ تَنْزَلِقُ فِيهِ الْأَقْدَامُ.

وَأَخْشَى أَنْ تَتَعَرَّضِي لِلْخَطَرِ فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِي، وَأَنَا عَاجِزٌ عَنْ مُسَاعَدَتِكِ.»

وَلَمَّا ابْتَعَدَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، شَعَرَتْ «نَرْجِسُ» بِوَخْزِ الْجُرْحِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ كِتْمَانَ أَلَمِهَا.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ خَطَرَ لَهَا خَاطِرٌ غَرِيبٌ، حَبَّبَ إِلَيْهَا أَنْ تَسْحَبَ قَدَمَهَا مِنَ الْمَاءِ.

وَقَدْ عَجِبَتْ لِهَذَا الْإِلْهَامِ الْمُفَاجِئِ.

---

[1] يضمد جرحها: يشده بعصابة (بقطعة من النسيج).

[2] الغدير: النهر الصغير.

وَقَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى رَأْيٍ قَاطِعٍ، رَأَتِ الْمَاءَ يَضْطَرِبُ، ثُمَّ يُطِلُّ مِنْهُ رَأْسٌ مُشَوَّهُ الْخِلْقَةِ، هُوَ رَأْسُ ضِفْدِعٍ سَامَّةٍ كَبِيرَةٍ، طَافِيَةٍ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ.

وَشَخَصَتْ[٣] عَيْنَا الضِّفْدِعِ الْغَاضِبَتَانِ إِلَيْهَا.

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» — مُنْذُ رَأَتْ حُلْمَهَا الْقَدِيمَ — تَفْزَعُ مِنَ الضَّفَادِعِ، وَلَا تُطِيقُ رُؤْيَتَهَا.

وَكَانَ مَنْظَرُ هَذِهِ الضِّفْدِعِ الْحَانِقَةِ كَافِيًا لِتَفْزِيعِهَا؛ فَكَادَ الدَّمُ يَجْمُدُ فِي عُرُوقِهَا، وَعَقَدَ لِسَانَهَا الْخَوْفُ، وَأَلْجَمَ فَاهَا الرُّعْبُ، فَلَمْ تَسْتَطِعِ الْهَرَبَ وَلَا الصِّيَاحَ.

وَهَكَذَا الْتَفَتَتْ إِلَيْهَا الضِّفْدِعُ قَائِلَةً: «هَا أَنْتِ ذِي قَدْ أَصْبَحْتِ — بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ — أَسِيرَةً فِي مَمْلَكَتِي أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ الْحَمْقَاءُ!

فَأَنَا أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ؛ عَدُوَّةُ أُسْرَتِكِ — مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ — لَوْ تَعْلَمِينَ.

وَقَدْ مَضَى عَلَيَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ وَأَنَا أَتَرَبَّصُ بِكِ الدَّوَائِرَ،[٤] وَأَتَرَقَّبُ الْفُرَصَ لِأُرِيَكِ أَنَّ شَقِيقَتِي — أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ؛ الَّتِي تَحْمِيكِ، وَالَّتِي أَرَتْكِ ذَلِكِ الْحُلْمَ الْهَائِلَ فِي مَنَامِكِ لِتُحَذِّرَكِ شَرِّي — لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِيَكِ مِنِّي، كَمَا لَمْ يَسْتَطِعِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنْ يُخَلِّصَكِ مِنِ انْتِقَامِي.

لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى جِلْدَهُ الْمَسْحُورَ الَّذِي طَالَمَا حَفِظَكِ مِنِّي ... فَالْآنَ أَنْتَقِمُ، بَعْدَ أَنْ هَيَّأَتِ الْفُرْصَةُ وَسِيلَةَ الِانْتِقَامِ، وَكَفَلَتْ إِبْعَادَهُ عَنْكِ، وَغِيَابَ أُخْتِي وَانْشِغَالَهَا فِي بَعْضِ شُئُونِهَا.

وَهَا أَنْتِ ذِي قَدْ وَقَعْتِ فِي يَدِي، وَلَيْسَ مَعَكِ مَنْ يَحْمِيكِ؛ فَمَا أَسْعَدَنِي بِانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ لِشِفَاءِ غَيْظِي مِنْكِ، وَحِقْدِي عَلَيْكِ! وَلَنْ تُفْلِتِي مِنْ يَدِي، عَلَى أَيِّ حَالٍ.»

[٣] شخصت عيناه: فتحهما وجعل لا يطرف.

[٤] أتربص بك الدوائر: أنتظر هلاكك.

# عَوْدَةُ الْقُبَّرَةِ

وَلَمْ تَكَدِ الضِّفْدِعُ الْخَبِيثَةُ تُتِمُّ هَذَا الْكَلامَ، حَتَّى انْدَفَعَتْ إِلَى «نَرْجِسَ» فِي سُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ، وَأَطْبَقَتْ عَلَى قَدَمِهَا الصَّغِيرَةِ، بِيَدَيْهَا الْبارِدَتَيْنِ اللَّزِجَتَيْنِ، وَرَاحَتْ تَجُرُّهَا إِلَى الْمَاءِ، وَتَجْذِبُهَا إِلَى قَاعِهِ.

وَذَكَرَتْ «نَرْجِسُ» — حِينَئِذٍ — مَا كَانَتْ قَدْ رَأَتْهُ فِي عَالَمِ الْأَحْلامِ، وَتَحَقَّقَ لَهَا صِدْقُ رُؤْيَاهَا؛ فَدَبَّ إِلَى نَفْسِهَا الْيَأْسُ، وَأَيْقَنَتْ بِالْهَلاكِ.

وَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ تَصْرُخَ بِأَعْلَى صَوْتِهَا، وَهِيَ تَدْفَعُ الضِّفْدِعَ عَنْهَا بِكُلِّ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ جُهْدٍ ضَعِيفٍ، وَتُنْشِبُ يَدَيْهَا فِي كُلِّ مَا يُدَانِيهَا مِنْ أَعْشَابٍ، فَلا تَلْبَثُ أَشْوَاكُهَا أَنْ تُدْمِيَهُمَا.

وَلَمْ تَكُفَّ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ دُعَاءِ حَارِسِهَا الشُّجَاعِ، لِيُسْرِعَ إِلَى إِنْقَاذِهَا.



وَارْتَفَعَ صِيَاحُهَا قَائِلَةً: «دَرَاكِ أَيُّهَا الْعَزِيزُ! إِلَيَّ أَيُّهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، هَلُمَّ ... أَنْقِذْ «نَرْجِسَ» قَبْلَ أَنْ تَهْلِكَ ... آهٍ ... الْغَوْثَ، الْغَوْثَ! النَّجْدَةَ، النَّجْدَةَ!»

ثُمَّ خَفَتَ صَوْتُ «نَرْجِسَ»، بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَ آخِرُ نَبْتٍ تَعَلَّقَتْ بِهِ يَدَاهَا، فَأَسْلَمَتْ أَمْرَهَا للهِ.

وَمَا كَادَتْ تَغُوصُ تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، حَتَّى جَلْجَلَ — فِي الْفَضَاءِ — صَوْتٌ مَرْهُوبُ الصَّدَى، رَائِعُ الدَّوِيِّ؛ كَأَنَّمَا هُوَ قَصْفُ الرَّعْدِ.

وَانْدَفَعَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» — صَاحِبُ الصَّوْتِ — إِلَى الْمَاءِ فِي أَثَرِ «نَرْجِسَ» مُسْرِعًا إِلَى إِغَاثَتِهَا.

وَلَمْ يَكَدْ يَصِلُ إِلَى ضِفَّةِ الْغَدِيرِ — وَهُوَ يَلْهَثُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَالتَّعَبِ — حَتَّى وَجَدَ «نَرْجِسَ» قَدْ غَاصَتْ فِي الْمَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا عَلَى سَطْحِهِ غَيْرُ شَعْرِهَا، فَانْدَفَعَ إِلَيْهَا فِي مِثْلِ لَمْحَةِ الطَّرْفِ، أَوْ وَمْضَةِ الْبَرْقِ.

وَلَمْ يُضِعْ مِنْ وَقْتِهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً بِغَيْرِ فَائِدَةٍ، وَسَبَحَ فِي الْمَاءِ مُيَمِّمًا «نَرْجِسَ»؛ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَيْدِ ذِرَاعٍ، أَمْسَكَ بِشَعْرِهَا الطَّوِيلِ، مُتَشَبِّثًا بِهِ لِيَرْفَعَهَا إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وِيُنْقِذَهَا مِنَ الْغَرَقِ.

وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ أَنَّ قُوَّةً هَائِلَةً تَجْذِبُهَا وَتَجْذِبُهُ مَعَهَا إِلَى قَاعِ الْمَاءِ، لِتُغْرِقَهُمَا جَمِيعًا.

وَمَا أَظُنُّكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — فِي حَاجَةٍ إِلَى سُؤَالِ أَحَدٍ عَنْ مَصْدَرِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الشِّرِّيرَةِ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ — مِنْ حَوادِثِ الْقِصَّةِ — خُبْثَ أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ، وَإِصْرَارَهَا عَلَى انْتِقَامِهَا.

وَهَا هِيَ ذِي الْفُرْصَةُ قَدْ سَنَحَتْ لَهَا؛ فَلَمْ تُقَصِّرْ فِي انْتِهَازِهَا.

عَلَى أَنَّ بَطَلَ قِصَّتِنَا الصَّغِيرَ لَمْ يَفْقِدْ صَوَابَهُ فِي ذَلِكَ الْمَأْزِقِ الْحَرِجِ،[١] وَلَمْ يَدِبَّ إِلَى قَلْبِهِ الْيَأْسُ مِنَ الْفَوْزِ بِطِلْبَتِهِ، وَإِنْقَاذِ صَاحِبَتِهِ؛ بَلْ زَادَهُ الْمَأْزِقُ تَشَبُّثًا وَإِصْرَارًا، وَدَفَعَهُ الْحِرْصُ عَلَى حَيَاةِ «نَرْجِسَ» إِلَى مُضَاعَفَةِ الْعِنَايَةِ بِهَا، فَلَفَّ شَعْرَهَا عَلَى ذِرَاعَيْهِ.

وَظَلَّ يُنَادِي صَاحِبَتَهُ الْجِنِّيَّةَ الْكَرِيمَةَ — أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ — مُسْتَنْجِدًا بِهَا، لِتُعَاوِنَهُ عَلَى إِنْقَاذِ «نَرْجِسَ».

[١] المأزق الحرج: الظرف الضيق.

وَكَانَ — حِينَئِذٍ — قَدْ بَلَغَ الْقَاعَ، فَرَأَى الضِّفْدِعَ قَرِيبَةً مِنْهُ، فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ رَكَلَهَا[٢] بِقَدِمِهِ رَكْلَةً شَدِيدَةً أَذْهَلَتْهَا، وَأَفْقَدَتْهَا صَوابَهَا؛ فَتَرَاخَتْ يَدَاهَا، وَتَخَاذَلَتْ قُوَاهَا.[٣]

وَهَكَذَا خَلَصَتْ «نَرْجِسُ» مِنْ قَبْضَتِهَا، وَنَجَتْ مِنْ أَسْرِهَا، وَأُتِيحَتِ الْفُرْصَةُ لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» أَنْ يَصْعَدَ بِهَا إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، ثُمَّ يَنْدَفِعَ — وَهُوَ يُمْسِكُ بِهَا بِإِحْدَى ذِرَاعَيْهِ، وَيَسْبَحُ بِذِرَاعِهِ الْأُخْرَى — حَتَّى يَبْلُغَ الشَّاطِئَ بِمِثْلِهَا — فِي لَحَظاتٍ.

وَلَوْلا مَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ قُوَّةٍ خارِقَةٍ — لَا عَهْدَ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ بِمِثْلِهَا — لَمَا تَمَكَّنَ مِنَ النَّجَاةِ، وَلَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُنْقِذَ «نَرْجِسَ»، بَعْدَ أَنْ كَادَتْ عَوْدَتُهَا إِلَى الْحَيَاةِ تُصْبِحُ فِي عِدَادِ الْمُسْتَحِيلِ.

وَمَا إِنْ بَلَغَ الشَّاطِئَ حَتَّى تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ،[٤] وَشَكَرَ للهِ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — مَا يَسَّرَهُ لَهُ مِنْ نَجَاحٍ وَتَوْفِيقٍ.

ثُمَّ حَمَلَ «نَرْجِسَ» إِلَى مَكَانٍ أَمِينٍ، وَأَرْقَدَهَا عَلَى فِرَاشٍ — مِنَ الْخُضْرَةِ — لَيِّنٍ وَثِيرٍ.

وَلا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مِنَ الْحَيْرَةِ وَالْفَزَعِ حِينَ رَأَى «نَرْجِسَ» رَاقِدَةً أَمَامَهُ، لَيْسَ بِهَا حَرَاكٌ، وَعَيْنَاهَا مُغْمَضَتَانِ، وَقَدْ ضُمَّتْ أَسْنَانُهَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، واصْطَبَغَ وَجْهُهَا بِصُفْرَةِ الْمَوْتِ، وَخُيِّلَ إِلَى مَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا جُثَّةٌ هَامِدَةٌ، لا أَمَلَ فِي رُجُوعِ الْحَيَاةِ إِلَيْهَا.

هُنَالِكَ أَسْرَعَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، إِلَيْهَا، جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ إِلَى جَانِبِهَا.

وَكَانَ ذَلِكَ الْجَرِيءُ لَا يَرْهَبُ شَيْئًا، وَلَا يَخَافُ الْهَوْلَ وَلَا يَهُمُّهُ الْأَلَمُ وَلَا الْحِرْمَانُ، وَلَا يَنَالُ مِنْ نَفْسِهِ الْكَلالُ وَلَا الْهَزِيمَةُ، وَلَا يَعْرِفُ قَلْبُهُ الْيَأْسَ.

أَمَّا فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَكَانَ شَيْئًا آخَرَ.

كَانَ يَبْكِي كَمَا يَبْكِي الطِّفْلُ الصَّغِيرُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَتَهُ الْوَفِيَّةَ الصَّادِقَةَ الْإِخاءِ، وَصَفِيَّتَهُ الْمُخْلِصَةَ الثَّابِتَةَ الْوَفاءِ، قَدْ غَابَتْ عَنِ الْوُجُودِ، وَأَصْبَحَتْ مَطْرُوحَةً أَمَامَهُ، هَامِدَةً لَا حَرَاكَ بِهَا، لَا يَنْبِضُ فِيهَا عِرْقٌ مِنْ عُرُوقِ الْحَيَاةِ.

---

[٢] ركلها: رفسها.

[٣] تخاذلت قواها: ضعفت.

[٤] الصعداء: التنفس الطويل.

فَكَيْفَ يَصْنَعُ، وَهِيَ وَحْدَهَا بَهْجَتُهُ وَعَزَاؤُهُ، وَسَعَادَتُهُ وَهَنَاؤُهُ، وَأُنْسُهُ وَرَجَاؤُهُ؟!

وَكَيْفَ لَا تَتَخَاذَلُ قُوَّتُهُ وَتَخُونُهُ شَجَاعَتُهُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَأَبَرَّهُمْ بِهِ، وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ؟!

وَأَلَحَّ عَلَيْهِ التَّعَبُ وَالْحُزْنُ، فَسَقَطَ إِلَى جِوارِهَا مُغْمًى عَلَيْهِ.

وَجَاءَتْ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ قُنْبَرَةٌ صَغِيرَةٌ، كَانَتْ تُسْرِعُ فِي طَيَرَانِهَا، بَاذِلَةً أَقْصَى جُهْدِهَا لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَضِيعَ الْفُرْصَةُ.

ثُمَّ هَبَطَتْ إِلَى جَانِبِ «نَرْجِسَ» وَ«الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَنَقَرَتْهُمَا بِمِنْقَارِهَا نَقْرَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ؛ ثُمَّ أَسْلَمَتْ جَنَاحَيْهَا لَلْجَوِّ، فَطَارَتْ مُسْرِعَةً حَتَّى اسْتَخْفَتْ عَنْ أَعْيُنِهِمَا.

وَلَمْ يَكُنِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي سَمِعَ اسْتِغَاثَةَ «نَرْجِسَ»؛ فَقَدْ بَلَغَ صَوْتُ اسْتِغَاثَتِهَا «حَلِيمَةَ» أَيْضًا، وَسَمِعَتْ صَرَخَاتِهَا — كَمَا سَمِعَتْ صَرَخَاتِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» فِي أَثَرِهَا — فَخَفَّتْ مُسْرِعَةً إِلَى الدَّسْكَرَةِ، مُسْتَنْجِدَةً بِـ «مَاجِدَةَ» لِتُعَاوِنَهَا عَلَى تَخْلِيصِهِمَا.

ثُمَّ أَسْرَعَتَا إِلَى الْغَدِيرِ حَيْثُ انْبَعَثَ الصُّرَاخُ.

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِهِمَا وَأَلَمِهِمَا حِينَ اقْتَرَبَتَا مِنْهُمَا، فَرَأَتَا «نَرْجِسَ» وَ«الدُّبَّ الصَّغِيرَ» وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيْهِمَا، وَاسْتَلْقَيَا عَلَى الْخُضْرَةِ بِلا وَعْيٍ.

وَبَادَرَتْ «حَلِيمَةُ»[٥] فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى قَلْبِ «نَرْجِسَ»؛ فَإِذَا هُوَ يَخْفِقُ … فَعَاوَدَتْهَا الطُّمَأْنِينَةُ، كَمَا عَاوَدَتْ «مَاجِدَةَ» حِينَ رَأَتِ الْحَيَاةَ لَا تَزَالُ تَدِبُّ فِي جِسْمِ وَلَدِهَا الْعَزِيزِ.

وَطَلَبَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى «حَلِيمَةَ» أَنْ تَحْمِلَ «نَرْجِسَ» بَيْنَ يَدَيْهَا، ثُمَّ تَنْزِعَ مَلابِسَهَا، وَتُرْقِدَهَا، وَلَا تُقَصِّرَ فِي الْعِنَايَةِ بِأَمْرِهَا.

واتَّجَهَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى وَلَدِهَا تَتَعَهَّدُهُ بِالرِّعَايَةِ، وَتُهَيِّئُ لَهُ مَا تَعَلَّمَتْهُ — مُنْذُ صِغَرِهَا — مِنْ وَسَائِلِ التَّنَفُّسِ الصِّنَاعِي، لِتُعِيدَ إِلَيْهِ الِانْتِبَاهَ، قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الدَّسْكَرَةِ.

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» ضَخْمَ الْجُثَّةِ ثَقِيلَهَا؛ فَتَعَذَّرَ عَلَى «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» — مَعًا — أَنْ تَحْمِلاهُ.

أَمَّا «نَرْجِسُ» فَكَانَتْ خَفِيفَةَ الْجِسْمِ، فَلَمْ تَلْقَ «حَلِيمَةُ» فِي نَقْلِهَا — إِلَى الدَّارِ — أَقَلَّ عَنَاءٍ.

---

[٥] بادرت حليمة: أسرعت.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَفَاقَتْ مِنْ إِغْمَائِهَا بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ.

عَلَى أَنَّهَا لَبِثَتْ بِضْعَ لَحَظاتٍ لَا تَكَادُ تَدْرِي مَا وَقَعَ لَهَا فِي يَوْمِهَا، وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهَا — مِمَّا لَقِيَتْهُ مِنْ مُفَزِّعَاتٍ وَآلامٍ — إِلَّا أَطْيَافٌ مُتَزَايِلَةٌ.[٦]

وَفِي غُضُونِ هَذَا الْوَقْتِ كَانَتِ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ اللَّطِيفَةُ قَدْ نَبَّهَتِ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»؛ فَتَعَلَّقَ بِعُنُقِ وَالِدَتِهِ، وَهُوَ يَبْكِي وَيَصِيحُ قَائِلًا: «أُمِّي! أُمِّي الْعَزِيزَةَ ...

أَيْنَ «نَرْجِسُ»؟ أَيْنَ شَقِيقَتِي الْمَحْبُوبَةُ «نَرْجِسُ»؟ لَقَدْ هَلَكَتْ أُخْتِي الْعَزِيزَةُ! فَمَا قِيمَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَهَا؟»

[٦] أطياف متزايلة: خيال غير واضح.

# اجْتِمَاعٌ بَعْدَ يَأْسٍ

فَأَجَابَتْهُ «مَاجِدَةُ»: «اطْمَئِنَّ عَلَى «نَرْجِسَ»، وَكُنْ عَلَى يَقِينٍ — يَا وَلَدِيَ الْعَزِيزَ — أَنَّهَا مَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

وَقَدْ نَقَلَتْهَا «حَلِيمَةُ» إِلَى الْمَنْزِلِ، لِتَتَعَهَّدَهَا بِمَا هِيَ جَدِيرَةٌ بِهِ مِنْ عِنَايَةٍ وَرِعَايَةٍ.»

وَكَأَنَّمَا بَعَثَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ فِي «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حَيَاةً جَدِيدَةً، وَخَلَقَتْهُ خَلْقًا آخَرَ؛ فَزَايَلَهُ الْيَأْسُ، وَعَاوَدَهُ النَّشَاطُ. وَسُرْعَانَ مَا نَهَضَ وَتَهَيَّأَ لِلْجَرْيِ فِي وَثَبَاتٍ سَرِيعَةٍ نَحْوَ الدَّسْكَرَةِ؛ لِيَمْلَأَ نَاظِرَيْهِ مِنَ الْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ.

وَلَكِنَّ أُمَّهُ قَلَّلَتْ مِنْ سُرْعَتِهِ حِينَ تَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتَرَيَّثَ قَلِيلًا، رَيْثَمَا يَعُودَانِ مَعًا فِي غَيْرِ عَجَلَةٍ وَلَا إِسْرَاعٍ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ تَلْبِيَةِ إِشَارَةِ أُمِّهِ، أَيَّةً كَانَتْ؛ فَمَا عَوَّدَهَا غَيْرَ الطَّاعَةِ.

وَسَأَلَتْهُ «مَاجِدَةُ» — وَهِيَ عَائِدَةٌ مَعَهُ عَلَى الشَّاطِئِ — أَنْ يَقُصَّ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْحَادِثَ الْعَنِيفَ الَّذِي كَادَ يُودِي بِحَيَاةِ «نَرْجِسَ»،[١] وَيُودِي بِحَيَاتِهِ مَعَهَا.

فَرَوَاهُ لَهَا دُونَ أَنْ يُغْفِلَ مِنْ تَفْصِيلِهِ شَيْئًا.

ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ شَاكِيًا لَهَا مَا يُعَانِيهِ مِنْ لُعَابِ الضِّفْدِعِ الَّذِي قَذَفَتْهُ بِهِ؛ فَصَدَّعَ رَأْسَهُ، وَكَادَ يُتْلِفُ أَعْصَابَهُ.

فَهَوَّنَتْ عَلَيْهِ «مَاجِدَةُ» مَا يُسَاوِرُهُ مِنَ الْقَلَقِ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تُحَدِّثُهُ بِمَا كَانَ مِنْ قُدُومِ «حَلِيمَةَ» عَلَيْهَا، وَإِفْضَائِهَا إِلَيْهَا بِمَا أَصَابَ «نَرْجِسَ» وَأَصَابَهُ.

---

[١] يودي بحياتها: يهلكها.

وَكَيْفَ أَسْرَعَتْ مَعَ «حَلِيمَةَ» إِلَى نَجْدَتِهِمَا، وَكَيْفَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمَا الذُّعْرُ حِينَ أَبْصَرَتَاهُمَا مَطْرُوحَيْنِ عَلَى ضِفَّةِ الْغَدِيرِ، وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيْهِمَا.

وَانْتَهَتِ الْمَسَافَةُ بِانْتِهَاءِ الْحَدِيثِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

وَكَانَ الْإِعْيَاءُ قَدْ بَلَغَ مِنَ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» كُلَّ مَبْلَغٍ، فَعَجَزَ عَنِ الْمَشْيِ وَالْكَلامِ جَمِيعًا، وَظَلَّ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا، لِفَرْطِ مَا تَكَبَّدَهُ مِنْ جُهْدٍ.

وَلَمْ تَكَدْ «نَرْجِسُ» تُبْصِرُهُ أَمَامَهَا، حَتَّى اسْتَرَدَّتْ مَا نَسِيَتْهُ مِنْ ذِكْرَيَاتٍ، وَاسْتَعَادَتْ كُلَّ مَا وَقَعَ لَهَا مِنْ أَحْدَاثٍ مُرَزِّئَاتٍ!

فَانْدَفَعَتْ إِلَيْهِ فَرْحَانَةً بِهِ، مُبْتَهِجَةً بِلُقْيَاهُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مُرَحِّبَةً، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا الْفَرَحُ فَأَبْكَاهَا.

وَكَادَتْ لَا تُصَدِّقُ مَا تَرَاهُ عَيْنَاهَا، وَتَسْمَعُهُ أُذُنَاهَا.

وَظَلَّتْ تَصْرُخُ هَاتِفَةً: «وَا فَرْحَتَاهُ! لَقَدْ عَادَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَى الْحَيَاةِ، وَكُتِبَتْ لَهُ النَّجَاةُ، فَأَلْفُ شُكْرٍ للهِ!»

وَبَكَتْ مَعَهَا «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

ثُمَّ حَانَتْ مِنْ «حَلِيمَةَ» إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» الْتِفَاتَةٌ، فَفَزَّعَهَا مَا رَأَتْهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ دَلَائِلِ الْمَرَضِ؛ فَنَبَّهَتْ «مَاجِدَةَ» إِلَى مَا يُعَانِيهِ مِنْ آلَامٍ.

وَنَظَرَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَيْهِ، فَرَأَتْهُ غَارِقًا فِي الْعَرَقِ، وَقَدِ انْتَظَمَتْه الرِّعْشَةُ،[٢] وَسَرَتْ فِي جِسْمِهِ الرِّعْدَةُ، كَمَا تَسْرِي فِي جِسْمِ الْمَحْمُومِ.

وَهَالَهَا أَنْ تَرَى «نَرْجِسَ» وَ«الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، وَقَدِ اغْرَوْرَقَتْ أَعْيُنُهُمَا بِالدُّمُوعِ، فَأَقْبَلَتْ تُهَوِّنُ عَلَيْهِمَا مَا يَلْقَيَانِ مِنْ أَشْجَانٍ،[٣] وَتَقُولُ لَهُمَا فِي إِشْفَاقٍ وَعَطْفٍ: «مَا بَالُكُمَا تَبْكِيَانِ أَيُّهَا الصَّغِيرَانِ؟

---

[٢] انتظمته الرعشة: شملته.

[٣] أشجان: أحزان.

لَقَدْ كُتِبَتْ لـ «نَرْجِسَ» النَّجَاةُ بِفَضْلِ شَجَاعَةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَأَعَانَ اللهُ صَاحِبَهَا عَلَى الْخَلاصِ مِنَ الْهَلاكِ؛ فَلا دَاعِيَ لِلْبُكَاءِ.»

فَقَاطَعَتْهَا «نَرْجِسُ» مُعْتَذِرَةً: «صَدَقْتِ يَا أُمَّاهُ، وَنَحْنُ لَا نَبْكِي مِنَ الْحُزْنِ، بَلْ نَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ.

وَلَوْلَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مَا كُتِبَ لـ «نَرْجِسَ» النَّجَاةُ، وَلَا بَقِيَتْ — إِلَى الْآنَ — عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

وَلَنْ تَسْتَطِيعَ «نَرْجِسُ» — مَهْمَا تَتَفَنَّنْ فِي شُكْرِ هَذَا الْمُنْقِذِ الْكَرِيمِ — أَنْ تَفِيَهُ حَقَّهُ مِنَ الثَّنَاءِ، وَلَوْ وَقَفَتْ طُولَ حَيَاتِهَا عَلَى شُكْرِهِ.»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَهُوَ يَتَعَثَّرُ فِي نُطْقِهِ لِفَرْطِ مَا يُكَابِدُهُ مِنْ آلَامِ الْمَرَضِ: «ما أَسْعَدَنِي بِإِخْلاصِكِ وَوَفَائِكِ أَيَّتُهَا الشَّقِيقَةُ الْعَزِيزَةُ!

وَلَئِنْ قَدَّمْتُ إِلَيْكِ بَعْضَ مَا أَنْتِ جَدِيرَةٌ بِهِ مِنْ عَطْفٍ وَرِعَايَةٍ، لَقَدْ قَدَّمْتِ لِي مَا هُوَ أَثْمَنُ مِنَ الْحَيَاةِ، حِينَ مَنَحْتِنِي مَا لَا تَطِيبُ الْحَيَاةُ إِلَّا بِهِ.

وَمَا أَدْرِي كَيْفَ تَكُونُ حَيَاتِي بِدُونِكِ؟

قُولِي مَا تَشَائِينَ؛ وَلَكِنْ لَا تَنْسَيْ أَنَّكِ قَدِ اسْتَطَعْتِ — بِمَا وَهَبَكِ اللهُ مِنْ صَفَاءِ نَفْسٍ، وَكَرَمِ خُلُقٍ، وَجَمَالِ طَبْعٍ — أَنْ تُبَدِّلِي الْجَحِيمَ فِرْدَوْسًا حَافِلًا بِكُلِّ أَلْوَانِ الْبَهْجَةِ وَالسَّعَادَةِ.

كَيْفَ تَنْسَيْنَ أَنَّكِ كُنْتِ، وَلَا تَزَالِينَ — فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ — مَصْدَرَ هَنَائِي وَسَلْوَتِي، وَسِرَّ سَعَادَتِي وَبَهْجَتِي؟!

وَهَا هِيَ ذِي أُمُّنَا الْعَظِيمَةُ شَاهِدَةً عَلَى مَا أَقُولُ، مُعْتَرِفَةً بِمَا غَمَرْتِ بِهِ قَلْبَهَا مِنْ فُنُونِ السُّرُورِ.»

فَلَمْ تَتَمَالَكْ «نَرْجِسُ» أَنْ بَكَتْ؛ بَعْدَ أَنْ أَعْجَزَهَا جَوَابُ مَا سَمِعَتْ، وَاكْتَفَتْ بِأَنْ رَبَّتَتْ كَتِفَهُ، حَانِيَةً[٤] مُتَوَدِّدَةً.

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «لَا يَزَالُ جِسْمُكَ مُبَلَّلًا يَا عَزِيزِي «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، فَلَا تَتَمَادَ فِي إِجْهَادِ نَفْسِكَ، وَلَا تَتَوَانَ عَنْ تَبْدِيلِ ثِيَابِكَ.

لَا تَنْسَ أَنَّ «نَرْجِسَ» فِي حَاجَةٍ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ النَّوْمِ، قَبْلَ أَنْ تَشْرَكَنَا فِي الْغَدَاءِ.»

---

[٤] حانية: عاطفة.

فَأَذْعَنَتْ «نَرْجِسُ» لِإِشَارَةِ «مَاجِدَةَ»، وَتَهَيَّأَتْ لِلرُّقَادِ، وَلَكِنَّ النَّوْمَ لَمْ يَزُرْ جَفْنَيْهَا، فَقَدْ شَغَلَهَا الْوَفَاءُ بِشُكْرِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَظَلَّتْ تَبْحَثُ عَنْ وَسِيلَةٍ تُدْخِلُ بِهَا السُّرُورَ عَلَى قَلْبِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُعَذَّبَةِ الْمَنْكُوبَةِ، فَلَمْ تَجِدْ إِلَّا شَيْئًا واحِدًا: هُوَ أَنْ تَبْذُلَ جُهْدَهَا فِي الْعِنَايَةِ بِصِحَّةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مَا وَسِعَهَا الْجُهْدُ، وَأَسْعَفَتْهَا[٥] الْقُدْرَةُ.

[٥] أسعفتها القدرة: ساعدتها.

# مَرَضٌ وَتَضْحِيَةٌ

وَلَمَّا حَانَ الْوَقْتُ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ، نَهَضَتْ «نَرْجِسُ»، وَارتَدَتْ ثِيَابَهَا، ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى حُجْرَةِ الْمَائِدَةِ، فَوَجَدَتْ «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» فِي انْتِظارِهَا.

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ «نَرْجِسَ» حِينَ أَدَارَتْ لِحَاظَهَا[1] فِي الْحُجْرَةِ، فَلَمْ تَرَ فِيهَا صَفِيَّهَا «الدُّبَّ الصَّغِيرَ».

فَرَاحَتْ تُسَائِلُ صَاحِبَتَيْهَا مُتَعَجِّبَةً: «أَيْنَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَا أُمَّاهُ؟

وَمَا لِي أَفْتَقِدُهُ[2] فَلَا أَجِدُهُ، وَأَبْحَثُ عَنْهُ فَلَا أَرَاهُ؟»

فَقَالَتْ «مَاجِدَةُ»: «عَجِيبٌ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنَّا إِلَى هَذَا الْوَقْتِ!

وَمَا أَدْرِي لِغَيْبَتِهِ سَبَبًا يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ»!»

وَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «لَقَدْ تَأَخَّرَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» عَنِ الْحُضُورِ إِلَيْنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ، وَلَا بُدَّ مِن اسْتِدْعَائِهِ الْآنَ، لِيُشَارِكَنَا فِي الْغَدَاءِ.»

وَاعْتَزَمَتْ «حَلِيمَةُ» أَنْ تَبْحَثَ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَبَدَأَتْ بِالذَّهَابِ إِلَى حُجْرَتِهِ؛ فَلَمْ تَكَدْ تَدْخُلُهَا حَتَّى وَجَدَتْهُ جَالِسًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ سَرِيرِهِ، وَقَدْ وَسَّدَ رَأْسَهُ إِحْدَى ذِرَاعَيْهِ ... فَنَادَتْهُ قَائِلَةً: «هَلُمَّ يَا عَزِيزِي! هَلُمَّ إِلَيْنَا لِتَشْرَكَنَا فِي الْغَدَاءِ؛ فَقَدْ طَالَ انْتِظَارُنَا.»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ ضَعِيفٍ: «إِنِّي لَشَدِيدُ الْأَسَفِ لِعَجْزِي عَنِ النُّهُوضِ.

---

[1] لحاظها: بصرها.

[2] أفتقده: أبحث عنه.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنِّي أَتَخَلَّفُ عَنْ تَلْبِيَةِ إِشَارَتِك.»

فَسَأَلَتْهُ «حَلِيمَةُ»: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَمَاذَا بِكَ؟»

فَأَجَابَهَا وَهُوَ لَا يَكَادُ يَقْوَى عَلَى النُّطْقِ: «إِنَّ جِسْمِي مُفَكَّكٌ، وَأَعْضَائِي مُتَخَاذِلَةٌ، وَرَأْسِي عَلَيَّ ثَقِيلٌ.»

فَعَادَتْ «حَلِيمَةُ» لِتُنْهِيَ إِلَى «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِسَ» ذَلِكَ النَّبَأَ الْمُزْعِجَ الْخَطِيرَ … وَمَا كَادَتَا تَسْمَعَانِ بِمَرَضِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، حَتَّى أَسْرَعَتَا إِلَيْهِ.

وَلَمَّا رَآهُمَا، هَمَّ بِالنُّهُوضِ لِتَحِيَّتِهِمَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، وَحَالَ ضَعْفُهُ دُونَ الْقِيَامِ … وَتَخاذَلَتْ قُواهُ، فَسَقَطَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مِنْ فَرْطِ[3] الْإِعْيَاءِ.[4]

وَأَنْعَمَتْ «مَاجِدَةُ» نَظَرَهَا فِيهِ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ مَحْمُومٌ، فَأَرْقَدَتْهُ عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ أَسَرَّتْ[5] إِلَى «نَرْجِسَ» أَنْ تَعُودَ إِلَى حُجْرَتِهَا.

فَأَبَتْ «نَرْجِسُ» أَنْ تَتْرُكَ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» يُعَانِي آلَامَ الْمَرَضِ وَحْدَهُ، وَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِمَا قَائِلَةً: «لَقَدْ كُنْتُ أَنَا السَّبَبَ فِيمَا يُعَانِيهِ صَاحِبِي مِنْ مَرَضٍ؛ فَكَيْفَ أَتْرُكُهُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهُ الشِّفَاءُ؟

كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا.

وَإِنِّي لَيَقْتُلُنِي الْغَمُّ، إِذَا رَفَضْتُمَا رَجَائِي، وَأَبَيْتُمَا إِلَّا أَنْ تُبْعِدَانِي عَنْ شَقِيقِي الْعَزِيزِ، وَتَحْرِمَانِي أَنْ أَتَعَهَّدَ خِدْمَتَهُ، وَأَسْهَرَ عَلَى رَاحَتِهِ.»

فَلَمْ تُجِبْهَا «مَاجِدَةُ» وَلَا «حَلِيمَةُ» بِحَرْفٍ واحِدٍ، لِشِدَّةِ مَا غَمَرَهُمَا مِنَ الْحُزْنِ.

وَجَلَسَتَا بِجِوَارِ مَرِيضِهِمَا، تَدْعُوَانِ اللهَ لَهُ بِالشِّفَاءِ، مِمَّا أَلَمَّ بِهِ مِنَ الْبَلاءِ.

وَلَمْ يَلْبَثِ الْمِسْكِينُ زَمَنًا طَوِيلًا، حَتَّى اشْتَدَّتْ بِهِ الْحُمَّى، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْهَذَيَانُ؛[6] فَرَاحَ يُنَادِي أُمَّهُ، وَيُنَادِي «نَرْجِسَ» بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى وَهُوَ يَحْسَبُهُمَا بَعِيدَتَيْنِ عَنْهُ، دُونَ أَنْ يَفْطِنَ إِلَى وُجُودِهِمَا مَعَهُ، وَقُرْبِهِمَا مِنْهُ.

---

[3] فرط: شدة.

[4] الإعياء: الضعف.

[5] أسرت إلى نرجس: حدثتها سرًّا.

[6] الهذيان: التكلم بغير معقول.

وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْهِمَا وَهُمَا إِلَى جِوَارِهِ جَالِسَتَانِ، عَاطِفَتَانِ عَلَيْهِ حَانِيَتَانِ، آخِذَتَانِ إِيَّاهُ بَيْنَ أَذْرُعِهِمَا مُحْتَضِنَتَانِ.

وَطَالَ بِهِمَا الْجُلُوسُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ، وَهُمَا لَا تَكَادَانِ تَتْرُكَانِهِ لَيْلًا وَلا نَهَارًا؛ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ اشْتَدَّ بِأُمِّهِ الضَّعْفُ، وَأَضْنَاهَا السَّهَرُ، وَأَلَحَّ عَلَيْهَا التَّعَبُ؛ فَارْتَمَتْ عَلَى فِرَاشِهَا — بِجِوَارِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» — وَاهِنَةَ الْعَزْمِ، خَائِرَةَ الْقُوَى، مَبْهُورَةَ الْأَنْفَاسِ، غَائِرَةَ الْعَيْنَيْنِ.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ غَابَتْ عَنِ الْوُجُودِ، وَأَصْبَحَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ.

وَجَثَتْ «نَرْجِسُ» عَلَى رُكْبَتَيْهَا، بِالْقُرْبِ مِنْهُمَا، وَلَمْ تُقَصِّرْ فِي الْعِنَايَةِ بِـ «مَاجِدَةَ» وَوَلَدِهَا.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ ضَعُفَتْ قُوَاهَا، وَتَخَاذَلَ جِسْمُهَا، واشْتَدَّتْ حَيْرَتُهَا، فَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ تَصْنَعُ؟

فَأَمْسَكَتْ بِيَدِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» تُقَبِّلُهَا، وَتُبَلِّلُ مَا يُغَطِّيهَا مِنْ فَرْوٍ كَثِيفٍ بِدَمْعِهَا الْغَزِيرِ.

وَهُنَا رَنَّ فِي أَرْجَاءِ الْحُجْرَةِ غِنَاءٌ رَائِعُ الشَّدْوِ، حُلْوُ النَّغَمِ.

فَالْتَفَتَتْ «نَرْجِسُ» ... فَرَأَتْ قُنْبَرَةً جَمِيلَةَ الشَّكْلِ، بَارِعَةَ التَّغْرِيدِ، تُؤَسِّيهَا[٧] وَتُهَوِّنُ عَلَيْهَا مُصَابَهَا، ثُمَّ تَخْتِمُ أُنْشُودَتَهَا الْعَذْبَةَ قَائِلَةً: «أَنْصِتِي إِلَيَّ يَا «نَرْجِسُ». وَاعْلَمِي أَنَّنِي أُحِبُّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» كَمَا أَحَبَّكِ، وَأُحِبُّ أُسْرَتَكِ جَمِيعًا.

وَقَدْ دَفَعَنِي مَا أُضْمِرُهُ[٨] لَكُنَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْمَحَبَّةِ إِلَى الْإِسْرَاعِ بِالْحُضُورِ إِلَيْكِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ لِأُنِيرَ لَكِ الطَّرِيقَ، وَأُوَضِّحَ لَكِ بَعْضَ مَا غَمَضَ عَلَيْكِ مِنْ أَسْرَارٍ خَفِيَّةٍ لَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَهْتَدِي إِلَى حَلِّهَا بِغَيْرِ مَعُونَتِي وَإِرْشَادِي.

وَيَهُمُّنِي أَنْ تَعْلَمِي — أَوَّلَ مَا تَعْلَمِينَ — أَنَّ الَّذِي نَفَثَتْهُ شَقِيقَتِي أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ فِي رَأْسِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» هُوَ سَمٌّ قَاتِلٌ فَتَّاكٌ، لَا يَنْتَهِي بِغَيْرِ الْقَضَاءِ عَلَى حَيَاتِهِ؛ إِذَا لَمْ تَلْتَمِسِي[٩] لَهُ الدَّوَاءَ الْعَاجِلَ.

فَهَلْ تَعْمَلِينَ بِنَصِيحَتِي، وَتَقْبَلِينَهَا عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «وَهَلْ تَشُكِّينَ فِي قَبُولِي نَصِيحَتَكِ؟»

---

[٧] تؤسيها: تصبرها وتسليها.

[٨] أضمره: أخفيه.

[٩] لم تلتمسي: لم تطلبي.

فَقَالَتِ الْقُنْبَرَةُ: «إِذَا كُنْتِ مُخْلِصَةً لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» — كَمَا تَقُولِينَ — وَكُنْتِ تُضْمِرِينَ مِنَ الْوَفَاءِ لَهُ، وَالِاعْتِرَافِ بِجَمِيلِهِ، مِثْلَ مَا تُعْلِنِينَ؛ فَعَجِّلِي بِإِنْقَاذِهِ.

وَاعْلَمِي أَنَّ حَيَاتَهُ قَدْ أَصْبَحَتِ الْآنَ رَهْنَ إِشَارَتِكِ، وَطَوْعَ مَشِيئَتِكِ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاكِ — فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ — قُدْرَةٌ عَلَى إِنْقَاذِهِ مِنَ الْهَلاكِ.

فَأَنْتِ — وَحْدَكِ، لَا غَيْرُكِ — قَادِرَةٌ عَلَى شِفَائِهِ مِنْ دَائِهِ. وَفِي قُدْرَتِكِ — أَنْتِ وَحْدَكِ — أَنْ تَشْتَرِي حَيَاتَهُ؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكِ سَيُكَلِّفُكِ ثَمَنًا فَادِحًا لَا قِبَلَ لَكِ بِاحْتِمَالِهِ.»

فَقَالَتْ لَهَا «نَرْجِسُ»: «كَيْفَ تَقُولِينَ ذَلِكِ يَا مَوْلاتِي؟

أَتَحْسَبِينَنِي أَضَنُّ عَلَيْهِ[١٠] بِشَيْءٍ جَلَّ أَوْ حَقُرَ؟

إِنَّ كُلَّ غَالٍ يَرْخُصُ فِي سَبِيلِهِ.

فَعَجِّلِي وَلَا تَتَوَانَيْ عَنْ أَنْ تُرْشِدِينِي إِلَى مَا أَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِ شِفَاءِ هَذَا الْمُنْقِذِ الْكَرِيمِ؛ فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ أَسْتَكْثِرُهُ فِي سَبِيلِ الظَّفَرِ بِنَيْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ الْعَظِيمَةِ.

كُونِي عَلَى ثِقَةٍ — يَا أَمِيرَتِي الْكَرِيمَةَ — أَنَّ كُلَّ مَا أَلْقَاهُ فِي سَبِيلِ شِفَائِهِ سَهْلٌ عَلَيَّ، هَيِّنٌ مَيْسُورٌ، وَفِيهِ لِي أَعْظَمُ السَّعَادَةِ وَأَوْفَرُ السُّرُورِ.

فَلَا تَبْخَلِي عَلَيَّ بِتَحْقِيقِ هَذَا الرَّجَاءِ، وَالتَّعْجِيلِ لِصَاحِبِي بِالشِّفَاءِ. وَإِنِّي لَيُسْعِدُنِي أَنْ أَكُونَ لَهُ الْفِدَاءَ، لَوْ كَانَ يُقْبَلُ مِنْ مِثْلِيَ الْفِدَاءُ.»

فَقَالَتْ لَهَا أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «مَا أَكْرَمَ نَفْسَكِ، وَأَنْبَلَ عَاطِفَتَكِ!

وَمَا دُمْتِ مُصِرَّةً عَلَى أَنْ تَفْدِيهِ بِنَفْسِكِ؛ فَإِنِّي أُوصِيكِ أَنْ تَهْمِسِي فِي أُذُنِهِ الْيُسْرَى ثَلَاثَ هَمَسَاتٍ، فِي مَرَّاتٍ ثَلَاثٍ مُتَعَاقِبَاتٍ،[١١] بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الشَّافِيَاتِ: «لَكَ ... وَلِأَجْلِكَ ... وَمَعَكَ».

فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْمَعُهَا حَتَّى يُكْتَبَ لَهُ الشِّفَاءُ.

وَلَكِنَّنِي أُوصِيكَ أَنْ تُطِيلِي التَّفْكِيرَ فِيمَا تَسْمَعِينَ مِنِّي، وَتُكْثِرِي مِنَ الرَّوِيَّةِ وَالتَّأَمُّلِ، قَبْلَ أَنْ تُقْدِمِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِرِ.

فَكِّرِي — أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ — وَلَا تَتَعَجَّلِي، وَقَلِّبِي الرَّأْيَ عَلَى كُلِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِهِ، قَبْلَ أَنْ تُعَرِّضِي نَفْسَكِ لِمَا أَنْتِ قَادِمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ أَخْطَارٍ وَمَهَالِكَ.

---

[١٠] أضن عليه: أبخل عليه.

[١١] متعاقبات: بعضها وراء بعض.

ثُمَّ وَازِنِي بَيْنَ ذَلِكِ، وَبَيْنَ قُدْرَتِكِ وَصَبْرِكِ وَاحْتِمَالِكِ.

فَإِذَا رَأَيْتِ نَفْسَكِ قَادِرَةً عَلَى اقْتِحَامِ الْخُطُوبِ وَالْمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ آمَالِكِ، فَاسْتَعِينِي بِاللهِ.

وَإِذَا رَأَيْتِ نَفْسَكِ عَاجِزَةً عَنِ احْتِمَالِ مَا يُوَاجِهُكِ مِنْ نَكَبَاتٍ؛ فَلَا تُحَاوِلِي مَا لَا تَسْتَطِيعِينَ، وَلا تُجَشِّمِي نَفْسَكَ مَا لَا تُطِيقِينَ.»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «إِنَّنِي أَسْتَعْذِبُ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِهِ، وَلَيْسَ التَّرَدُّدُ مِنْ شَأْنِي عَلَى كُلِّ حَالٍ!»

فَقَالَتْ لَهَا أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «لَا تَنْسَيْ أَنَّكِ سَتُعَرِّضِينَ نَفْسَكِ لِسُخْطِ شَقِيقَتِي «عَاصِفَةَ» أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ، وَتَلْقَيْنَ مِنْ فُنُونِ مَكْرِهَا[١٢] مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِاحْتِمَالِهِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ.

وَلَا يَغِبْ عَنْ بَالِكِ أَنَّكِ سَتُصْبِحِينَ فِي يَدَيْهَا أَسِيرَةً طُولَ حَيَاتِكِ.»

فَقَالَتْ لَهَا «نَرْجِسُ»: «كُلُّ عَسِيرٍ يَهُونُ، وَكُلُّ غَالٍ يَرْخُصُ فِي سَبِيلِ شِفَائِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْغَايَةَ إِذَا شَرُفَتْ وَعَظُمَتْ، هَانَتْ فِي سَبِيلِهَا الْمَصَاعِبُ، وَرَخُصَتِ الْأَرْوَاحُ.

وَلَسْتُ أَرَى لِحَيَاتِي قِيمَةً إِذَا عَجَزْتُ عَنْ رَدِّ الْجَمِيلِ إِلَى مَنْ أَسْدَاهُ، وَمُكَافَأَةِ الْمُحْسِنِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ.

وَمَا كُنْتُ أَتَرَدَّدُ فِي إِنْجَازِ نَصِيحَتِكِ، وَإِنْفَاذِ وَصِيَّتِكِ.

وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ لَكِ هَذَا الْمَعْرُوفَ، مَا بَقِيَ فِيَّ قَلْبٌ يَخْفِقُ، وَلِسانٌ يَنْطِقُ.»

فَقَالَتْ لَهَا أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «لَكِ مَا تُرِيدِينَ يَا فَتَاتِي الْعَزِيزَةَ. وَهَا أَنَا ذِي أَنَرْتُ لَكِ السَّبِيلَ إِلَى شِفَائِهِ، فَاصْنَعِي مَا يَحْلُو لَكِ، وَعَلَيْكِ السَّلامُ.»

ثُمَّ أَسْلَمَتِ الْقُنْبَرَةُ جَنَاحَيْهَا لِلْهَوَاءِ، مُحَلِّقَةً فِي أَجْوَازِ الْفَضاءِ، بَعْدَ أَنْ وَدَّعَتْهَا، مُعْجَبَةً بِوَفَائِهَا.

وَلَمْ تُضِعْ «نَرْجِسُ» مِنْ وَقْتِهَا شَيْئًا؛ بَلْ أَسْرَعَتْ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَأَسَرَّتْ فِي أُذُنِهِ هامِسَةً: «لَكَ ... وَلِأَجْلِكَ ... وَمَعَكَ.»

وَمَا إِنْ هَمَسَتْ فِي أُذُنِهِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَعَاقِبَاتٍ؛ حَتَّى تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، وَدَبَّ فِي جِسْمِهِ دَبِيبُ الْبُرْءِ وَالشِّفَاءِ.

---

[١٢] فنون مكرها: أنواع مكرها.

فَصَحَا مِنْ إِغْمَاءَتِهِ، وَأَفَاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ؛ فَكَانَتْ «نَرْجِسُ» أَوَّلَ مَا رَآهُ.

فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ حَيَّاهَا، وَلَثَمَ يَدَهَا شَاكِرًا لَهَا مَا تَحُوطُهُ بِهِ مِنْ عِنَايَةٍ، وَتَكْلَؤُهُ[١٣] بِهِ مِنْ رِعَايَةٍ.

ثُمَّ قَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا: «نَرْجِسُ! عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ»، يُخَيَّلُ لِي أَنَّنِي أَنْتَبِهُ مِنْ حُلْمٍ مُزْعِجٍ طَوِيلٍ؛ فَقُصِّي عَلَيَّ مَا وَقَعَ، وَخَبِّرِينِي: مَا الَّذِي جَاءَ بِي إِلَى هُنَا؟

وَمَا بَالِي أَرَاكِ مُقَرَّحَةَ الْجَفْنَيْنِ، دَامِيَةَ الْعَيْنَيْنِ؟

تُرَى، أَيُّ خَطْبٍ أَبْكَاكِ، وَنَغَّصَ عَلَيْكِ حَيَاتَكِ وَأَشْقَاكِ؟ وَمَا بَالُكِ — أَيَّتُهَا الْوَفِيَّةُ الْكَرِيمَةُ — شَاحِبَةَ اللَّوْنِ مُمْتَقَعَةَ الْوَجْهِ؛[١٤] كَأَنَّمَا أَلَمَّ بِكِ حَادِثٌ، أَوْ أَلَحَّ عَلَيْكِ مَرَضٌ، أَوْ طَالَ بِكِ الْأَرَقُ وَالسَّهَرُ؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ» لَهُ: «صَهْ، أَيُّهَا الشَّقِيقُ الْعَزِيزُ. خَفِّضْ مِنْ صَوْتِكَ، لِئَلَّا تُوقِظَ أُمَّكَ النَّائِمَةَ.»

فَقَالَ لَهَا مُتَلَهِّفًا: «وَكَيْفَ حَالُ أُمِّيَ الْعَزِيزَةِ؟»

فَقَالَتْ لَهُ: «لَقَدْ أَسْقَمَهَا الْحُزْنُ، وَأَمْرَضَهَا طُولُ السَّهَرِ، وَأَلَحَّ عَلَيْهَا التَّعَبُ وَالضَّجَرُ، ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ؛ فَهَوَتْ عَلَى فِرَاشِهَا خَائِرَةَ الْقُوَى، وَاسْتَسْلَمَتْ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ.»

فَسَأَلَهَا مُتَعَجِّبًا: «وَمَا بَالُكِ أَنْتِ لَمْ تَنَامِي أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ؟»

فَخَجِلَتْ «نَرْجِسُ»، وَأَوْمَأَتْ بِطَرْفِهَا إِلَى الْأَرْضِ صَامِتَةً؛ فَقَدْ كَانَ بِوُدِّهَا أَلَّا تُظْهِرَ لَهُ شَيْئًا مِمَّا تَكَبَّدَتْهُ فِي سَبِيلِهِ مِنْ عَنَاءٍ وَسَهَرٍ. وَلَكِنَّهَا — بَعْدَ أَنْ عَرَفَ سِرَّهَا — لَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ قَالَتْ لَهُ: «كَيْفَ أَنَامُ أَيُّهَا الْعَزِيزُ وَأَنَا مَصْدَرُ مَصَاعِبِكَ، وَجَالِبَةُ مَصَائِبِكَ، وَسَبَبُ مَا تُعَانِيهِ مِنْ مَتَاعِبِكَ؟»

فَأَطْرَقَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» لَحْظَةً، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيْهَا، فِي إِجْلالٍ وَإِكْبَارٍ، وَقَدْ عَجَزَ لِسَانُهُ عَنِ الْكَلامِ فَلَمْ يُسْعِفْهُ النُّطْقُ، فَهَوَى عَلَى يَدِهَا مَرَّةً أُخْرَى يُقَبِّلُهَا، وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهَا مِمَّا سَبَّبَهُ لَهَا مِنْ أَلَمٍ.

---

[١٣] تكلؤه: تحفظه.

[١٤] ممتقعة الوجه: مصفرة الوجه.

ثُمَّ رَاحَ يَسْأَلُهَا أَنْ تَقُصَّ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ، فَلَمْ تُخْفِ عَنْهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْقِصَّةِ كُلِّهَا إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا، دَفَعَهَا إِلَى كِتْمَانِهِ تَوَاضُعُهَا وَحَيَاؤُهَا، وَإِخْلاصُهَا وَوَفَاؤُهَا.

فَحَدَّثَتْهُ بِكُلِّ مَا وَقَعَ لَهَا، دُونَ أَنْ تُكَاشِفَهُ بِمَا تَعَهَّدَتْ بِهِ لِأَمِيرَةِ التَّوَابِعِ، مِنْ ثَمَنٍ فَادِحٍ، لِلظَّفَرِ بِمَا يَنْعَمُ بِهِ مِنْ شِفَاءٍ، وَلَمْ تُفْضِ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ مِمَّا احْتَمَلَتْهُ فِي سَبِيلِهِ مِنْ خُطُوبٍ وَأَحْدَاثٍ.

وَسُرْعَانَ مَا دَبَّ الشِّفَاءُ فِي جَسَدِهِ، وَعَادَتْ إِلَيْهِ صِحَّتُهُ كَامِلَةً، فَوَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَدَنَا مِنْ وَالِدَتِهِ، فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ، فَأَيْقَظَهَا بِقُبْلَةٍ أَوْدَعَهَا كُلَّ مَا يُضْمِرُهُ لَهَا مِنْ وَفَاءٍ وَإِجْلالٍ وَمَحَبَّةٍ.

فَاسْتَيْقَظَتْ «مَاجِدَةُ» — وَهِيَ تَحْسَبُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ غَارِقًا فِي هَذَيَانِ الْحُمَّى — وَنَادَتْ «حَلِيمَةَ» لِتُسَاعِدَهَا عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِ.

وَلا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلَى «مَاجِدَةَ» مِنَ الدَّهَشِ وَالْفَرَحِ حِينَ أَفْضَتْ إِلَيْهَا «نَرْجِسُ» بِمَا ظَفِرَ بِهِ وَلَدُهَا مِنْ شِفَاءٍ عَلَى يَدِ الْجِنِّيَّةِ الْكَرِيمَةِ أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، تَمَّتْ أُلْفَةُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» وَ«نَرْجِسَ»؛ فَأَصْبَحَا كَأَنَّهُمَا رُوحٌ وَاحِدٌ فِي جَسَدَيْنِ، وَلَمْ يَفْتَرِقْ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، إِلَّا إِذَا اضْطَرَّتْهُمَا الظُّرُوفُ الْحَاتِمَةُ إِلَى أَدَاءِ مَا عَلَيْهِمَا مِنَ الْفُرُوضِ وَالْوَاجِبَاتِ.

# الْخِنْزِيرُ الشَّرِسُ

مَضَى عَلَى هَذِهِ الْحَوادِثِ عَامَانِ، كَادَتْ «نَرْجِسُ» وَ«الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَطْوِيَانِهَا فِي غَيَابَةِ النِّسْيَانِ، ثُمَّ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ يَدُورُ فِي الْحُسْبانِ.

فَقَدْ خَرَجَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى الْغَابَةِ لِيَحْتَطِبَ،[1] حَيْثُ تُوَافِيهِ «نَرْجِسُ» بِغَدَائِهِ، ثُمَّ تَعُودُ مَعَهُ فِي الْمَسَاءِ.

وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ، أَسْلَمَتْهَا «حَلِيمَةُ» مَا أَعَدَّتْهُ لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مِنْ طَعَامٍ، بَعْدَ أَنْ أَوْدَعَتْهُ سَلَّةً أَنِيقَةً، ثُمَّ عَلَّقَتْهَا فِي ذِرَاعِ «نَرْجِسَ».

وَكَانَ طَعَامُهُ مُؤَلَّفًا مِنْ رَغِيفٍ مِنَ الْخُبْزِ، وَقَلِيلٍ مِنَ الزُّبْدِ، وَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَدِيدِ،[2] وَشَيْءٍ مِنَ الْكَرِيزِ، وَقَارُورَةٍ مَمْلُوءَةٍ بِعَصِيرِ الْفَاكِهَةِ.

وَقَدْ أَسْرَعَتْ «نَرْجِسُ» بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ ...

وَبَيْنَا هِيَ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ، إِذْ خُيِّلَ لَهَا أَنْ طَرِيقَهَا إِلَيْهِ طَوِيلٌ؛ فَمَاذَا عَلَيْهَا إِذَا سَلَكَتْ طَرِيقًا أُخْرَى غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ، تَخْتَرِقُ الْغَابَةَ مِنْ وَسَطِهَا؛ فَتَقْتَصِدُ نِصْفَ الْمَسَافَةِ وَالْوَقْتِ جَمِيعًا؟

---

[1] يحتطب: يجمع الحطب.

[2] القديد: اللحم المجفف.

وَكَانَتْ شَدِيدَةَ الْحِرْصِ عَلَى التَّعْجِيلِ لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» بِغَدَائِهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُسْتَطَاعٍ.

وَهَكَذَا عَدَلَتْ «نَرْجِسُ» عَنِ الطَّرِيقِ الطَّوِيلَةِ الْمَأْلُوفَةِ، إِلَى الطَّرِيقِ الْمُخْتَصَرَةِ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ، وَقَدْ وَجَدَتْ طَرِيقَهَا مُعَبَّدًا[٣] فَسِيحًا فِي وَسَطِ الْغَابَةِ، وَرَأَتِ الْأَشْجَارَ الضَّخْمَةَ الْعَالِيَةَ الَّتِي تَكْتَنِفُهَا، يَسْهُلُ الْمُرُورُ مِنْ تَحْتِهَا.

وَلَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ النَّاحِيَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَعُوقُ السَّائِرَ مِنَ الشَّوْكِ، فَلَمْ تَكُنِ الْأَعْشَابُ الْكَثِيفَةُ تُغَطِّي الْأَرْضَ.

وَسَارَتْ «نَرْجِسُ» نَاشِطَةً خَفِيفَةً، وَهِيَ مَسْرُورَةٌ بِاهْتِدَائِهَا إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ الْمُخْتَصَرَةِ.

فَلَمَّا قَطَعَتْ نِصْفَ الْمَسافَةِ، وَبَلَغَتْ مُنْتَصَفَ الطَّرِيقِ، رَأَتْ خِنْزِيرًا وَحْشِيًّا، هَائِلَ الْحَجْمِ، يَجْرِي فِي طَرِيقِهِ إِلَيْهَا ثَائِرًا مُنْدَفِعًا، تَلُوحُ عَلَيْهِ دَلائِلُ الشَّرَاسَةِ وَالْغَضَبِ، وَلا يَكُّفُّ عَنْ تَحْطِيمِ مَا يَمُرُّ بِهِ مِنَ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ. وَلَهُ شَهِيقٌ وَزَفِيرٌ يُسْمَعُ لَهُمَا صَوْتٌ يُدَوِّي عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، فِي وُضُوحٍ وَجَلاءٍ، فَيَكَادُ يَرُجُّ الْأَرْضَ رَجًّا.

فَلَمْ تَدْرِ «نَرْجِسُ» كَيْفَ تَصْنَعُ!

وَاشْتَدَّتْ بِهَا الْحَيْرَةُ؛ فَلَمْ تَهْتَدِ إِلَى مَكَانٍ تَأْوِي إِلَيْهِ، وَتَسْتَخْفِي فِيهِ.

وَبَيْنَا هِيَ فِي تَرَدُّدِهَا وَحَيْرَتِهَا، رَآهَا الْخِنْزِيرُ، فَوَقَفَ تُجَاهَهَا، وَقَدِ الْتَهَبَتْ عَيْنَاهُ، وَاصْطَكَّتْ أَنْيَابُهُ، وَقَفَّ شَعْرُهُ.

وَصَرَخَ صَرْخَةً مُرَوِّعَةً، ثُمَّ انْدَفَعَ إِلَى «نَرْجِسَ»، فَكَادَ يَقْتُلُهَا ... وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهَا أَنْ وَجَدَتْ بِالْقُرْبِ مِنْهَا شَجَرَةً يَانِعَةً، دَانِيَةً أَغْصَانُهَا، لَا تَرْتَفِعُ عَنْ مُتُنَاوَلِ يَدَيْهَا.

وَرَأَتْ بَعْضَ فُرُوعِهَا يَتَدَلَّى إِلَى مِثْلِ ارْتِفَاعِ قَامَتِهَا، فَتَشَبَّثَتْ[٤] بِأَحَدِ الْأَغْصَانِ، قَافِزَةً مِنْهُ إِلَى غُصْنٍ آخَرَ.

وَمَا زَالَتْ تَرْتَقِي مِنْ غُصْنٍ إِلَى غُصْنٍ، حَتَّى أَصْبَحَتْ — آخِرَ الْأَمْرِ — فِي أَعْلَى الشَّجَرَةِ، بِمَأْمَنٍ مِنَ الْخِنْزِيرِ الْوَحْشِيِّ الشَّرِسِ.

---

[٣] طريق معبد: طريق مستوٍ، لا منخفضات فيه ولا مرتفعات.

[٤] تشبثت: تعلقت.

وَلَمْ تَكَدْ تَشْعُرُ بِالْأَمْنِ، حَتَّى رَأَتِ الْخِنْزِيرَ يَنْدَفِعُ بِكُلِّ ثِقْلِهِ إِلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي لَجَأَتْ إِلَيْهَا، وَقَدْ أَخَذَ الْغَضَبُ مِنْهُ كُلَّ مَأْخَذٍ؛ فَلَمْ يَكْتَفِ بِقَضْمِ الْجِذْعِ مِنْ قُشُورِهِ، بَلِ انْدَفَعَ يَضْرِبُهُ بِنَابِهِ ضَرَبَاتٍ مُتَوَالِيَةً.

فَتَمَلَّكَ الْخَوْفُ «نَرْجِسَ»، وَكَانَتِ الْهَزَّاتُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي نَجَمَتْ عَنْ ضَرَبَاتِهِ الْقَوِيَّةِ الْمُتَتَابِعَةِ تَكَادُ تُسْقِطُهَا، فَتَشَبَّثَتْ «نَرْجِسُ» بِالْغُصُونِ.

وَلَمْ يَلْبَثِ الْخِنْزِيرُ أَنِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ التَّعَبُ بَعْدَ أَنْ تَوَالَتْ هَجَمَاتُهُ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى؛[٥] فَرَقَدَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَهُوَ يُرْسِلُ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ — نَظَرَاتٍ مُلْتَهِبَةً، تَقْذِفُ بِالشَّرَرِ إِلَى «نَرْجِسَ».



[٥] على غير جدوى: على غير فائدة.

وَكُلَّمَا جَمَعَ الْخِنْزِيرُ قُوَّتَهُ، جَعَلَ يَضْرِبُ الشَّجَرَةَ بِنَابِهِ.

فَاسْتَوْلَى الذُّعْرُ عَلَيْهَا، وَصَرَخَتْ تُنَادِي «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لِيُغِيثَهَا، وَكَانَتْ تُجَدِّدُ صَيْحَاتِهَا عِنْدَ كُلِّ هَجْمَةٍ مِنَ الْخِنْزِيرِ؛ فَلا يَسْمَعُهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَعِيدًا عَنْهَا.

فَلا عَجَبَ إِذَا لَمْ يَفْطُنْ إِلَى صَوْتِ اسْتِغَاثَتِهَا، وَلا غَرَابَةَ إِذَا لَمْ يَخِفَّ إِلَى نَجْدَتِهَا.

وَتَمَلَّكَهَا الْيَأْسُ، وَاشْتَدَّ بِهَا الْجُوعُ؛ فَأَرَادَتْ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئًا مِمَّا فِي السَّلَّةِ مِنْ طَعَامٍ، فَسَقَطَتْ مِنْهَا السَّلَّةُ عَلَى الْأَرْضِ، فَدَاسَهَا الْخِنْزِيرُ بِأَقْدَامِهِ وَسَحَقَهَا، وَسَحَقَ كُلَّ مَا تَحْتَوِيهِ، وَكَانَ الْجُوعُ قَدْ نَالَ مِنْ «نَرْجِسَ» كُلَّ مَنَالٍ.

وَبَيْنَا هِيَ تَطْلُبُ الْمُسَاعَدَةَ، كَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَعِيدًا عَنْ مَدَى صَوْتِهَا ... وَكَانَ يُفَكِّرُ فِيهَا حِينَئِذٍ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ لِغِيَابِهَا.

وَاشْتَدَّ عَجَبُهُ مِنْ تَأَخُّرِهَا عَنْ إِحْضَارِ غَدَائِهِ؛ فَرَاحَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُسَائِلًا: «هَلْ نَسِيَتْنِي أُمِّي وَ«نَرْجِسُ» فِي هَذَا الْيَوْمِ؟

كَلَّا، فَمَا أَظُنُّ ذَلِكَ يَكُونُ.

كَلَّا، مَا أَظُنُّ النِّسْيَانَ يَتَطَرَّقُ إِلَى «نَرْجِسَ»، وَلا إِلَى وَالِدَتِي عَلَى أَيِّ حَالٍ!

وَأُرَانِي قَدْ أَسْرَفْتُ فِي إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِهِمَا بِغَيْرِ حَقٍّ! وَلَعَلَّهُمَا قَدْ حَسِبَتَا أَنَّنِي سَأَعُودُ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ بِالْمَنْزِلِ! فَهُمَا بِلا رَيْبٍ فِي انْتِظَارِي!

وَرُبَّمَا كَانَ الْقَلَقُ يُساوِرُهُمَا عَلَيَّ الْآنَ.»

وَلَمْ يَمُرَّ هَذَا الْخَاطِرُ بِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حَتَّى كَفَّ عَنْ عَمَلِهِ، وَتَأَهَّبَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الدَّارِ.

وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ الِاتِّفَاقِ أَنْ يَخْطُرَ لَهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ مِثْلُ مَا خَطَرَ لـ «نَرْجِسَ»، وَيَحْلُوَ لَهُ — كَمَا حَلا لَهَا — أَنْ يَخْتَصِرَ الطَّرِيقَ، وَيَخْتَرِقَ الْغَابَةَ مِنْ وَسَطِهَا.

وَلا يَمُرُّ بِهِ هَذَا الْخَاطِرُ حَتَّى يُنْفِذَهُ، وَيَسِيرَ خِلالَ الْأَشْجَارِ ... ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَمِعَ صَدَى صَيْحَاتٍ، خَيَّلَتْ إِلَيْهِ أَنَّهَا صَيْحَاتُ اسْتِغَاثَةٍ ... وَهُنَا يَكُفُّ عَنِ السَّيْرِ، وَيُرْهِفُ سَمْعَهُ، فَيَتَقَطَّعُ الصَّوْتُ.

ثُمَّ يَتَجَدَّدُ الصِّيَاحُ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَيَشْتَدُّ خَفَقَانُ قَلْبِهِ، وَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ صَوْتَ «نَرْجِسَ» تَسْتَغِيثُ.

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَشُكَّ فِيمَا سَمِعَ، فَيَنْفِيَ عَنْ ذِهْنِهِ ذَلِكَ الْخَاطِرَ الْمُزْعِجَ، وَيَسْتَأْنِفَ سَيْرَهُ.

فَلا يَمْشِي بِضْعَ خُطُواتٍ، حَتَّى تَفْجَأَ سَمْعَهُ صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ، وَاضِحَةٌ قَوِيَّةٌ. فَلا يَكَادُ يَسْمَعُهَا حَتَّى يُزَايِلَهُ الشَّكُّ، وَيَحُلَّ مَحَلَّهُ الْيَقِينُ، وَيُدْرِكَ — حِينَئِذٍ — أَنَّ صَاحِبَتَهُ فِي خَطَرٍ، وَأَنَّهَا تُنَادِيهِ لِيُنْقِذَهَا مِمَّا هِيَ فِيهِ.

وَسُرْعَانَ مَا يَتَّجِهُ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ؛ فَلا يُدَانِيهِ،[٦] حَتَّى يَخْفُتَ الصِّيَاحُ، وَتَعْقُبَهُ أَنَّاتٌ وَتَأَوُّهَاتٌ.

ثُمَّ يَسْمَعُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» زَمْجَرَةً، تَصْحَبُهَا صَرَخَاتٌ شَدِيدَةٌ، وَضَرَبَاتٌ عَنِيفَةٌ؛ فَيَنْطَلِقُ فِي جَرْيَتِهِ بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، وَقَدْ كَادَ يَدِبُّ إِلَيْهِ الْيَأْسُ مِنْ إِدْرَاكِهَا قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

وَإِذَا هُوَ يَرَى الْخِنْزِيرَ وَهُوَ يُزَعْزِعُ الشَّجَرَةَ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يُحَطِّمَ جِذْعَهَا بِضَرَبَاتِ أَنْيَابِهِ.

وَيَرَى «نَرْجِسَ» فِي أَعْلَى الشَّجَرَةِ مُمْتَقَعَةَ الْوَجْهِ، شَاحِبَةَ اللَّوْنِ، لِهَوْلِ مَا تَرَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَزَالُ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْخَطَرِ.



فَيَبْعَثُ هَذَا الْمَشْهَدُ فِي نَفْسِهِ أَضْعَافَ مَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ قُوَّةٍ وَجُرْأَةٍ، وَيُنْسِيهِ مَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مِنْ خَطَرٍ؛ فَلا يَتَرَدَّدُ فِي الْهُجُومِ عَلَى الْوَحْشِ الْهَائِلِ، ثُمَّ يَنْدَفِعُ إِلَى الْخِنْزِيرِ الثَّائِرِ، فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، وَمِلْطَسُهُ[٧] فِي يَدِهِ ... وَلا يَرَاهُ الْخِنْزِيرُ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ الْغَضَبُ، وَيَشْتَدُّ بِهِ الْغَيْظُ؛ فَيَزْفِرَ زَفَرَاتٍ وَاقِدَةً، وَالشَّرَرُ يَكَادُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ.

---

[٦] فلا يدانيه: فلا يقترب منه.

[٧] الملطس: المعول الغليظ لكسر الحجارة.

وَرَاحَ يَدُقُّ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِ، ثُمَّ يَنْدَفِعُ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» لِيُمَزِّقَهُ إِرْبًا إِرْبًا؛ فَيَنْحَرِفُ صَاحِبُنَا فِي رَشَاقَةٍ عَجِيبَةٍ، فَتَذْهَبُ هَجْمَةُ الْخِنْزِيرِ دُونَ أَنْ تَنَالَهُ بِسُوءٍ.

وَهُنَا يَتَضَاعَفُ حِقْدُ الْخِنْزِيرِ، وَيَتَعَاظَمُ غَضَبُهُ، فَيَتَرَاجَعُ خُطُوَاتٍ إِلَى الْوَرَاءِ، مُتَأَهِّبًا مُعَاوَدَةَ النِّضَالِ، وَهُوَ أَشَدُّ غَيْظًا وَأَعْنَفُ بَأْسًا، ثُمَّ يَنْدَفِعُ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» لِيَفْتِكَ بِهِ، وَيُمَزِّقَ جِسْمَهُ.

فَيَجْمَعُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» شَجَاعَتَهُ وَقُوَّتَهُ، وَيَقِفُ أَمَامَ الْخِنْزِيرِ مُتَحَدِّيًا، شَاهِرًا مِلْطَسَهُ فِي يَدِهِ، مُتَأَهِّبًا لِنِضَالِ عَدُوِّهِ، مُتَرَقِّبًا وَثْبَةَ الْجَبَّارِ.

وَلا يَكَادُ الْخِنْزِيرُ الشَّرِسُ يُصْبِحُ مِنَ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» عَلَى مَدِّ الذِّرَاعِ حَتَّى يَهْوِيَ عَلَى رَأْسِهِ بِمِلْطَسِهِ فَيَشُجَّهُ، وَيُوشِكَ أَنْ يَفْلِقَهُ نِصْفَيْنِ.

وَكَانَتْ ضَرْبَةً قَاتِلَةً، وَلَكِنَّ الْخِنْزِيرَ لَمْ يَشْعُرْ بِهَا. وَسَقَطَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» عَلَى الْأَرْضِ لِشِدَّةِ الْهَجْمَةِ.

وَرَآهُ الْخِنْزِيرُ — وَهُوَ يَهُمُّ بِالْوُقُوفِ — فَانْدَفَعَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَدَعْ لَهُ فُسْحَةً مِنَ الْوَقْتِ لِيُعِيدَ الْكَرَّةَ عَلَيْهِ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ لِيُنْشِبَ فِيهِ أَنْيَابَهُ وَيُمَزِّقَهُ تَمْزِيقًا.

وَكَانَتْ لَحْظَةً هَائِلَةً، خَيَّلَتْ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» أَنَّ حَيَاتَهُ قَدِ انْتَهَتْ؛ فَأَسِفَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يُفَكِّرْ فِي نَفْسِهِ قَطُّ، بَلِ اتَّجَهَ بِتَفْكِيرِهِ وَدُعَائِهِ إِلَى أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ، لِتُنْقِذَ «نَرْجِسَ»؛ بَعْدَ أَنْ أَيْقَنَ أَنَّ الْخِنْزِيرَ قَدْ غَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَحَسَّ بِأَقْدَامِهِ وَهِيَ تَدُوسُهُ.

وَهُنَا سَمِعَ تَغْرِيدًا سَاحِرًا يَنْبَعِثُ مِنْ شَرَفٍ عَالٍ.

فَلا يَسْمَعُ الْخِنْزِيرُ ذَلِكَ التَّغْرِيدَ حَتَّى تَدِبَّ الرِّعْدَةُ فِي جِسْمِهِ، وَيَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ الرُّعْبُ، وَيَشْغَلَهُ مَا حَلَّ بِهِ مِنَ الْفَزَعِ عَنِ افْتِرَاسِ عَدُوِّهِ.

وَيَشْعُرُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنَّ عَدُوَّهُ قَدِ ابْتَعَدَ عَنْهُ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ؛ فَيَرَى الْقُنْبَرَةَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، وَهِيَ تَشْدُو بِأَغَارِيدِهَا السَّاحِرَةِ، وَيَرَى الْخِنْزِيرَ وَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الرُّعْبُ؛ فَرَاحَ يُرْسِلُ صَرَخَاتٍ مَخْنُوقَةً، وَيَخْفِضُ مِنْ رَأْسِهِ.

ثُمَّ يَبْتَعِدُ فِي بُطْءٍ وَحَذَرٍ، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الْوَرَاءِ.

# لَيْلَةٌ فِي الْغَابَةِ

كَانَتِ الْحُمَّى قَدْ صَهَرَتْ جِسْمَ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، وَكَادَتْ تُسْلِمُهُ إِلَى الْهَلاكِ — كَمَا عَلِمْتَ مِنْ قَبْلُ — وَكَانَ الْأَمَلُ فِي شِفَائِهِ مَفْقُودًا. فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ، لَمْ يَدْرِ بِذِهْنِهِ أَنَّ الْمَرَضَ قَدْ زَايَلَهُ، وَأَنَّ دَبِيبَ الشِّفَاءِ يَجْرِي فِي جَسَدِهِ، وَكَانَ يَحْسَبُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ — كَمَا كَانَ مُنْذُ أَيَّامٍ — عَاجِزًا عَنِ الْحَرَكَةِ.

فَلَمَّا رَأَى الْقُوَّةَ تَمْشِي فِي عُرُوقِهِ، أَسْرَعَ بِالنُّهُوضِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يَشْغَلُهُ وَيُقْلِقُ بَالَهُ غَيْرُ الْعِنَايَةِ بـ «نَرْجِسَ»، وَالشُّكْرِ لِأَمِيرَةِ التَّوَابِعِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا الْفَضْلُ فِي سَلامَتِهِ مِنَ الْهَلاكِ، وَنَجَاتِهِ مِنَ الْمَوْتِ.

وَلَمْ يَكَدْ يَمُرُّ بِهِ هَذَا الْخَاطِرُ حَتَّى أَقْبَلَتِ الْقُنْبَرَةُ، فَحَوَّمَتْ فَوْقَ رَأْسِهِ، ثُمَّ هَبَطَتْ عَلَيْهِ مُتَلَطِّفَةً مُتَوَدِّدَةً، وَنَقَرَتْ خَدَّهُ نَقْرَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ أَسَرَّتْ فِي أُذُنِهِ هَامِسَةً: «إِنَّ شَقِيقَتِي «عَاصِفَةَ» أَمِيرَةَ الزَّوَابِعِ — مَصْدَرَ هَذِهِ الْكَارِثَةِ الْمُزْعِجَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِكُمَا — قَدْ أَرْسَلَتْ هَذَا الْخِنْزِيرَ الشَّرِسَ لِيَفْتَرِسَ «نَرْجِسَ» وَيَقْضِيَ بِذَلِكَ عَلَى سَعَادَتِكَ.

وَلَكِنِّي فَطِنْتُ إِلَى مُؤَامَرَتِهَا آخِرَ الْأَمْرِ، وَأَدْرَكْتُهَا قَبْلَ فَوَاتِ الْوَقْتِ. وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ الَّتِي غَمَرْتَ فِيهَا «نَرْجِسَ» بِأَفْضَالِكَ وَصَنَائِعِكَ، لِتَطْلُبَ إِلَيْهَا أَنْ تُبَادِلَكَ جِلْدًا بِجِلْدٍ!

وَلَنْ تَتَرَدَّدَ «نَرْجِسُ» فِي هَذَا، بَلْ تَقْبَلُهُ بِمَوْفُورِ السُّرُورِ.»

فَأَجَابَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مُقَاطِعًا: «كَلَّا، كَلَّا! لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَبَدًا، وَإِنِّي لَأَسْتَعْذِبُ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ إِسْعَادِهَا، وَأُوثِرُ شَقَائِي عَلَى شَقَائِهَا!

وَإِنَّهُ لَيَحْلُو لِي أَنْ أَقْضِيَ حَيَاتِي كُلَّهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُنَفِّرَةِ الْبَشِعَةِ، عَلَى أَنْ يَنَالَهَا بِسَبَبِي أَيُّ سُوءٍ، أَوْ يَلْحَقَ بِهَا أَيُّ مَكْرُوهٍ.

وَلَأَنْ أَعِيشَ دُبًّا قَبِيحَ الْهَيْئَةِ، أَحَبُّ إِلَيَّ، وَأَكْرَمُ عَلَيَّ، مِنْ أَنْ يَدْفَعَنِي الْحِرْصُ وَالْأَنَانِيَّةُ، إِلَى اقْتِرَافِ هَذِهِ الدَّنِيَّةِ.»

ثُمَّ أَطْرَقَ لَحْظَةً إِلَى الْأَرْضِ، وَاسْتَأْنَفَ مُتَأَوِّهًا: «مِسْكِينَةٌ «نَرْجِسُ»! كَيْفَ أَرْضَى لَهَا الشَّقَاءَ فِي سَبِيلِ إِسْعَادِي؟

إِنِّي لَأَكُونُ وَغْدًا جَبَانًا إِذَا جَازَيْتُهَا حُبًّا بِخَدِيعَةٍ!»

فَقَالَتْ لَهُ الْقُنْبَرَةُ وَهِيَ تَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ مُغَرِّدَةً: «لَكَ مَا تَشَاءُ، فَوَدَاعًا، وَإِلَى اللِّقَاءِ.

وَسَأَعُودُ أَيُّهَا الْعَزِيزُ … فَمَتَى؟»

فَأَطْرَقَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» رَيْثَمَا يَجْمَعُ تَفْكِيرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ — إِذَا شِئْتِ — يَا مَوْلاتِي.»

ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى الشَّجَرَةِ فَتَسَلَّقَ أَغْصَانَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى «نَرْجِسَ»، فَحَمَلَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، ثُمَّ هَبَطَ بِهَا عَلَى الْأَرْضِ.

وَلَمْ يَدَّخِرْ جُهْدًا فِي سَبِيلِ إِنْعَاشِهَا، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ دَبَّتْ فِيهَا الْحَرَكَةُ، فَسَكَبَ فِي فَمِهَا مَا بَقِيَ مِنْ عَصِيرِ الْفَاكِهَةِ.

وَلَمْ تَنْقَضِ عَلَيْهَا لَحَظاتٌ قَلِيلَةٌ، حَتَّى فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا؛ فَوَقَعَتَا عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» فَرَأَتْهُ سَالِمًا مِنْ كُلِّ سُوءٍ؛ فَلَمْ تَكَدْ تُصَدِّقُ عَيْنَيْهَا فِيمَا تَرَيَانِ، وَفَاضَ قَلْبُهَا فَرَحًا وَابْتِهَاجًا بِمَا هَيَّأَ لَهَا اللهُ — سُبْحَانَهُ — مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ.

وَالْتَفَتَتْ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» قَائِلَةً: «صَدِيقِيَ الْوَفِيَّ، عَزِيزِيَ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ».

هَا أَنْتَ ذَا أَنْقَذْتَ حَيَاتِي مَرَّةً أُخْرَى مِنْ هَلاكٍ مُحَقَّقٍ؛ فَخَبِّرْنِي: كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟ وَبِأَيِّ أُسْلُوبٍ تَسْتَطِيعُ عَاجِزَةٌ مِثْلِي أَنْ تَجْزِيَكَ عَلَى صَنِيعِكَ، وَتَرُدَّ إِلَيْكَ بَعْضَ حَقِّكَ، وَتُعَبِّرَ لَكَ عَنِ اعْتِرَافِهَا الْعَمِيقِ بِجَلِيلِ فَضْلِكَ؟»

فَقَالَ لَهَا مُقَاطِعًا: «صَهْ، وَلا تَتَحَدَّثِي بِمِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ مَا صَنَعْتُهُ لَكِ تَافِهٌ قَلِيلٌ، إِذَا مَا قِيسَ بِمَا أَوْلَيْتِنِي،[1] وَبِمَا لَا تَزَالِينَ تُولِينَنِي مِنْ جَمِيلٍ.»

[1] بما أوليتِني: بما قدمتِه لي من معروف.

وَحَانَتْ مِنْهُ الْتِفَاتَةٌ، فَرَأَى شُحُوبَ لَوْنِهَا وَهُزَالَ جِسْمِهَا، فَقَالَ: «مِسْكِينَةٌ أَنْتِ يَا «نَرْجِسُ»!

إِنَّكِ — فِيمَا أَرَى — لَمْ تَأْكُلِي شَيْئًا مُنْذُ الصَّبَاحِ، وَإِنِّي لَأَرَى بَقَايَا الطَّعَامِ الَّذِي جِئْتِ بِهِ لِغَدَائِنَا مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ، مُخْتَلِطًا بِأَعْشَابِ الْغَابَةِ.

وَلَقَدْ تَأَخَّرَ بِنَا الْوَقْتُ، وَمَالَ مِيزَانُ النَّهَارِ، وَمَا أَدْرِي أَنَسْتَطِيعُ بُلُوغَ الدَّسْكَرَةِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَنَا اللَّيْلُ، أَمْ يَدْهَمُنَا الظَّلَامُ وَنَحْنُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ؟»

وَحَاوَلَتْ «نَرْجِسُ» أَنْ تَنْهَضَ، فَلَمْ تَقْوَ عَلَى الْقِيَامِ، وَلَهَا الْعُذْرُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَضْعَفَهَا الْجُوعُ وَالْخَوْفُ، فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ هَوَتْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ فَرْطِ الضَّنَى وَالْإِعْيَاءِ. وَالْتَفَتَتْ «نَرْجِسُ» إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، تَقُولُ لَهُ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: «عَاجِزَةٌ أَنَا عَنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ.

وَمَا أَدْرِي كَيْفَ يَنْتَهِي بِنَا الْأَمْرُ!»

وَاسْتَوْلَتِ الْحَيْرَةُ وَالِارْتِبَاكُ عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» حِينَ رَأَى ضَعْفَهُ وَعَجْزَهُ عَنْ حَلِّ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ، فَهُوَ لَنْ يَقْوَى عَلَى حَمْلِ «نَرْجِسَ» وَالسَّيْرِ بِهَا مَسَافَةً بَعِيدَةً بَعْدَ أَنْ كَبِرَتْ سِنُّهَا، وَنَمَا جِسْمُهَا، وَاجْتَازَتْ مَرْحَلَةَ الطُّفُولَةِ، وَأَصْبَحَتْ فِي أَوَّلِ مَرَاحِلِ الصِّبَا.

إِنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ حَمْلِهَا، كَمَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْ تَرْكِهَا فِي الْغَابَةِ الْمُوحِشَةِ وَحْدَهَا، مُعَرَّضَةً لِفَتَكَاتِ الضَّوَارِي الْمُفْتَرِسَةِ.

وَهِيَ — عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ — جَائِعَةٌ خَائِرَةُ الْقُوَى، فَكَيْفَ تَبْقَى بِغَيْرِ زَادٍ إِلَى الْيَوْمِ التَّالِي؟

وَبَيْنَا هُوَ فِي هَذِهِ الْحَيْرَةِ وَالِارْتِبَاكِ، إِذَا بِهِ يَرَى مُلَاءَةً مَلْفُوفَةً تَسْقُطُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ؛ فَأَسْرَعَ إِلَى الْتِقَاطِهَا، وَفَتَحَهَا، فَوَجَدَ بِهَا شِوَاءً لَذِيذًا، وَرَغِيفًا سَاخِنًا، وَزُجَاجَةً مَمْلُوءَةً بِشَرَابِ التُّفَّاحِ! فَأَدْرَكَ لِلْحَالِ أَنَّهَا هَدِيَّةُ صَاحِبَتِهِ أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ؛ فَفَاضَ قَلْبُهُ سُرُورًا وَابْتِهَاجًا بِمَا رَأَى، وَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ أَعْلَنَ شُكْرَهُ لَهَا.

ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى الزُّجَاجَةِ فَأَدْنَاهَا مِنْ شَفَتَي «نَرْجِسَ».

وَكَانَتْ جُرْعَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ الْفَاخِرِ كَافِيَةً لِأَنْ تَسْتَرِدَّ بِهَا «نَرْجِسُ» بَعْضَ مَا فَقَدَتْهُ مِنْ قُوَاهَا.

فَلَمَّا جَرِعَتْ مِنَ الزُّجَاجَةِ جُرَعًا عَادَتْ إِلَيْهَا قُوَّتُهَا كَامِلَةً، وَرَجَعَتْ أَوْفَرَ مَا تَكُونُ صِحَّةً وَعَافِيَةً، وَأَقْبَلَتْ عَلَى الشِّوَاءِ وَالْخُبْزِ، فَأَكَلَتْ مَعَ صَاحِبِهَا حَتَّى شَبِعَا.

وَكَانَا — وَهُمَا يَأْكُلانِ — يَتَبَادَلانِ الْحَدِيثَ فِيمَا مَرَّ بِهِمَا مِنْ أَخْطَارٍ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُمَا مِنْ سَعَادَةٍ.

وَلَمْ تَكَدْ «نَرْجِسُ» تَنْتَهِي مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى وَجَدَتْ نَفْسَهَا قَادِرَةً عَلَى الْمَشْيِ أَمْيَالًا طَوِيلَةً.

وَكَانَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهَا أَنْ تَجْتَازَ[2] الْغَابَةَ، لَوْ لَمْ يُدْرِكْهَا اللَّيْلُ، فَيُعْجِزَهَا عَنْ تَبَيُّنِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمَسَالِكِ الْمُظْلِمَةِ.

وَاجْتَمَعَ رَأْيُ «نَرْجِسَ» وَرَأْيُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» عَلَى الْبَقَاءِ بِحَيْثُ هُمَا فِي الْغَابَةِ إِلَى الصَّبَاحِ، حَتَّى إِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، عَادَا إِلَى الدَّارِ؛ فَأَسْنَدَتْ «نَرْجِسُ» ظَهْرَهَا إِلَى جِذْعِ الشَّجَرَةِ الَّتِي اعْتَصَمَتْ بِهَا مِنْ أَذَى الْخِنْزِيرِ، وَاضْطَجَعَتْ آمِنَةً قَرِيرَةَ الْعَيْنِ.

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «لَا تَنْزَعِجِي يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ»، فَإِنَّ الْجَوَّ حَسَنٌ، وَالْيَوْمَ — كَمَا تَرَيْنَ — مُعْتَدِلٌ، وَتَحْتَكِ فِرَاشٌ وَثِيرٌ مِنَ النَّبَاتِ الْأَخْضَرِ الْكَثِيفِ فَلْنُمْضِ لَيْلَتَنَا هُنَا، وَهَاكِ مِعْطَفِي تَتَغَطَّيْنَ بِهِ.

وَلَنْ تَقْلَقَ عَلَيْنَا وَالِدَتِي وَلا «حَلِيمَةُ»؛ فَهُمَا لِحُسْنِ حَظِّنَا وَحَظِّهِمَا لَا تَعْرِفَانِ مَا اسْتَهْدَفْنَا لَهُ[3] مِنَ الْخَطَرِ فِي يَوْمِنَا. وَطَالَمَا أَمْضَيْنَا لَيَالِيَ بَدِيعَةً بِجِوَارِ دَسْكَرَتِنَا، وَلَكِنَّ لَيْلَتَنَا هَذِهِ سَتَظَلُّ بَاقِيَةً فِي أَذْهَانِنَا مَدَى الْحَيَاةِ!»

فَقَالَتْ لَهُ «نَرْجِسُ»: «صَدَقْتَ يَا عَزِيزِي، وَالرَّأْيُ مَا تَرَاهُ.»

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا بُدٌّ مِنَ الْأَخْذِ بِهَذَا الِاقْتِرَاحِ؛ فَإِنَّ سُلُوكَ الْغَابَةِ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ غَيْرُ مَأْمُونِ الْعَوَاقِبِ.

فَلا عَجَبَ إِذَا اخْتَارَا الْبَقَاءَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ.

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» لَا تَشْعُرُ بِخَوْفٍ أَبَدًا مَا دَامَتْ بِجِوارِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ». وَقَدْ تَعَوَّدَ مِنْهَا أَلَّا تُخَالِفَ لَهُ رَأْيًا، وَأَنْ تَرَى حَسَنًا كُلَّ مَا يُقَرِّرُهُ دَائِمًا.

وَأَعَدَّ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» سَرِيرًا مِنَ الْأَعْشَابِ — عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ — وَخَلَعَ مِعْطَفَهُ وَغَطَّاهَا بِهِ. وَقَدْ حَاوَلَتْ أَنْ تَسْتَبْقِيَهُ لَهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ.

[2] تجتاز: تخترق.

[3] استهدفنا له: تعرضنا له.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ اسْتَسْلَمَتْ «نَرْجِسُ» لِرُقَادٍ طَوِيلٍ. وَرَآهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فِي سُبَاتِهَا الْعَمِيقِ، فَارْتَمَى عِنْدَ قَدَمَيْهَا، وَقَدْ غَلَبَهُ الْجُهْدُ وَالْإِعْيَاءُ، فَأَسْلَمَ عَيْنَيْهِ لِنَوْمٍ هَنِيءٍ، حَافِلٍ بِأَحْلامِ الْبَهْجَةِ وَالسَّعَادَةِ.

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي، اسْتَيْقَظَتْ «نَرْجِسُ» مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَالْغِبْطَةُ بَادِيَةٌ عَلَى مُحَيَّاهَا.

وَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنِ ابْتَسَمَتْ حِينَ رَأَتِ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لَا يَزَالُ نَائِمًا، وَهُوَ قَابِضٌ بِيُمْنَاهُ عَلَى مِلْطَسِهِ، كَأَنَّمَا يَتَأَهَّبُ لِمُصَارَعَةِ خَنَازِيرِ الْغَابَةِ جَمِيعًا!

وَنَهَضَتْ «نَرْجِسُ» فِي غَيْرِ ضَوْضَاءٍ، وَسَارَتْ بِضْعَ خُطُوَاتٍ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهَا حَتَّى لَا تُوقِظَ صَاحِبَهَا. وَظَلَّتْ تُجِيلُ لِحَاظَهَا فِي أَرْجَاءِ الْغَابَةِ، لِتَتَبَيَّنَ الطَّرِيقَ الَّتِي يَسْلُكَانِهَا إِلَى الدَّسْكَرَةِ.

وَبَيْنَا هِيَ تَدُورُ مُتَعَلِّقَةً حَوْلَ الدَّوْحَةِ الْعَالِيَةِ، الَّتِي كَانَ لَهَا الْفَضْلُ فِي حِمَايَتِهَا مِنَ الْخِنْزِيرِ نَهَارًا، وَمِنْ رُطُوبَةِ الْجَوِّ لَيْلًا؛ إِذِ اسْتَيْقَظَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، وَتَلَفَّتَ بَاحِثًا عَنْهَا فَلَمْ يَعْثُرْ لَهَا عَلَى أَثَرٍ. وَانْتَفَضَ وَاقِفًا، وَقَدْ سَرَتِ الرِّعْدَةُ فِي جِسْمِهِ، وَنَادَاهَا بِصَوْتٍ يَكَادُ الْخَوْفُ يَخْنُقُهُ.

فَمَا كَانَ أَسْرَعَهَا إِلَى إِجَابَتِهِ! وَانْدَفَعَتْ إِلَيْهِ بِأَسْرَعِ مَا تَسْتَطِيعُ لِتُطَمْئِنَهُ عَلَيْهَا.

ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: «هَا أَنَا ذِي، أَيُّهَا الْعَزِيزُ!»

فَسَأَلَهَا: «أَيْنَ كُنْتِ؟»

فَحَدَّثَتْهُ أَنَّ مَا كَانَ يَشْغَلُهَا إِنَّمَا هُوَ الْبَحْثُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكَانِهَا فِي الْعَوْدَةِ إِلَى الدَّسْكَرَةِ.

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «لَقَدْ خَشِيتُ — يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ» — أَنْ تَكُونَ أَمِيرَةُ الزَّوَابِعِ الْغَادِرَةُ الْمَاكِرَةُ قَدِ اخْتَطَفَتْكِ، أَوْ دَبَّرَتْ لَكِ مَكِيدَةً جَدِيدَةً تَنَالُكِ بِسُوءٍ.

فَعُدْتُ عَلَى نَفْسِي بِاللَّائِمَةِ؛ واتَّهَمْتُ نَفْسِي بِالتَّقْصِيرِ فِي حِمَايَتِكِ، وَالتَّهَاوُنِ فِي السَّهَرِ عَلَيْكِ فِي أَثْنَاءِ نَوْمِكِ.

فَالْحَمْدُ للهِ عَلَى نَجَاتِكِ، وَإِنِّي لَسَعِيدٌ إِذْ أَرَاكِ مُبْتَهِجَةً فَرِحَةً، بَادِيَةَ النَّشَاطِ مُنْشَرِحَةً ... وَشُكْرًا للهِ عَلَى مَا هَيَّأَهُ لَنَا مِنْ وَسَائِلِ السَّعَادَةِ.

وَالْآنَ، فَهَلُمِّي إِلَى الدَّسْكَرَةِ، وَضَاعِفِي نَشَاطَكِ، وَأَسْرِعِي خُطُوَاتِكِ لِنَبْلُغَ الدَّارَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ مَنْ فِيهَا.»

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» خَبِيرًا بِمَسَالِكِ الْغَابَةِ؛ فَاجْتَازَهَا مَعَ صَاحِبَتِهِ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ. وَوَصَلا إِلَى الدَّسْكَرَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» بِزَمَنٍ قَلِيلٍ.

وَأَجْمَعَا رَأْيَهُمَا عَلَى أَنْ يَكْتُمَا عَنْ «مَاجِدَةَ» مَا تَعَرَّضَا لَهُ مِنْ مَخَاوِفَ وَأَخْطَارٍ حَتَّى لَا يُسَاوِرَهَا الْحُزْنُ عَلَيْهِمَا وَالْقَلَقُ فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ.

وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ خَفَايَاهُمَا، وَمَا لَقِيَا مِنَ الْمَصَائِبِ فِي أَمْسِهِمَا غَيْرُ «حَلِيمَةَ» وَحْدَهَا، وَقَدْ كَتَمَتْ أَمْرَهُمَا، وَعَرَفَتْ كَيْفَ تَحْتَفِظُ بِسِرِّهِمَا.

# مُزْعِجَاتٌ

وَلَمْ يَكُنِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يُوافِقُ عَلَى ذَهَابِ «نَرْجِسَ» إِلَى الْغَابَةِ وَحْدَهَا، لَوْ تُرِكَ الْأَمْرُ لَهُ. فَلَمَّا تَعَرَّضَتْ لِلْهَلاكِ فِي ذَلِكَ الْحَادِثِ الْهَائِلِ، أَصَرَّ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» عَلَى رَأْيِهِ الْأَوَّلِ، وَتَشَبَّثَ بِبَقَائِهَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَا تُعَرِّضَ نَفْسَهَا لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنَ الْكَوارِثِ وَالْأَخْطَارِ.

وَقَدْ كَلَّفَهُ ذَلِكَ تَعَبًا جَسِيمًا، وَاضْطَرَّهُ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ كُلَّ يَوْمٍ فِي وَقْتِ الْغَدَاءِ؛ فَإِذَا انْتَهَى مِنْ طَعَامِهِ عَادَ إِلَى الْغَابَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَمَكَثَ فِيهَا يَحْتَطِبُ إِلَى الْمَساءِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الدَّارِ قُبَيْلَ الْعِشَاءِ.

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» مُنْذُ ذَلِكَ الْحَادِثِ لَا تَخْرُجُ مِنَ الدَّسْكَرَةِ إِلَّا إِذَا صَحِبَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ».

وَانْقَضَى عَلَى ذَلِكَ الْحَادِثُ الْمُزْعِجُ سَنَواتٌ ثَلاثٌ.

ثُمَّ رَأَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» — ذَاتَ يَوْمٍ — صَاحِبَتَهُ «نَرْجِسَ» وَهِيَ تَبْحَثُ عَنْهُ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، وَقَدِ امْتُقِعَ وَجْهُهَا، وَتَخَاذَلَتْ أَعْضَاؤُهَا؛[1] فَمَا تَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ إِلَّا بِجُهْدٍ جَهِيدٍ.

وَلَمَّا رَأَتْهُ، جَذَبَتْهُ مَعَهَا إِلَى الْخَارِجِ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: «هَلُمَّ إِلَيَّ أَيُّهَا الْعَزِيزُ، وَأَعِرْنِي سَمْعَكَ، وَأَرْهِفْ لِحَدِيثِي أُذُنَكَ، وَأَنْصِتْ إِلَيَّ بِكُلِّ جَوارِحِكَ؛ فَإِنَّ حَدِيثِي إِلَيْكَ مُزْعِجٌ خَطِيرٌ!»

فَقَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا حَائِرًا: «مَاذَا أَلَمَّ بِكِ يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ»؟

---

[1] تخاذلت أعضاؤها: ضعفت.

شَدَّ مَا أَزْعَجَتْنِي مِنْكِ هَذِهِ اللَّهْفَةُ! فَعَجِّلِي بِحَدِيثِكِ، وَأَعِيدِي الطُّمَأْنِينَةَ إِلَى قَلْبِي! تَكَلَّمِي — يَا «نَرْجِسُ» — فَقَدْ تَفَزَّعْتُ مِنْ أَجْلِكِ، وامْتَلَأَ قَلْبِي خَوْفًا عَلَيْكِ.

خَبِّرِينِي: بِمَاذَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُسَاعِدَكِ أَيَّتُهَا الْوَفِيَّةُ الْكَرِيمَةُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ تَلْهَثُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ: «لا شَيْءَ، لا شَيْءَ يَا عَزِيزِي «الدُّبَّ الصَّغِيرَ».

إِنَّكَ لَا تَمْلِكُ لِي نَفْعًا وَلا خَيْرًا، وَلا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعَ عَنِّي شَقَاءً وَلا ضُرًّا.

فَاصْغَ إِلَيَّ: أَذَاكِرٌ أَنْتَ تِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي قَصَصْتُهَا عَلَيْكَ فِي طُفُولَتِي؛ تِلْكَ الرُّؤْيَا الْمُزْعِجَةَ بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ نَبَأٍ خَطِيرٍ: ضِفْدِعٍ وَغَدِيرٍ، وَهَوْلٍ كَبِيرٍ، وَشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ؟!»

فَقَالَ لَهَا: «نَعَمْ، أَذْكُرُ ذَلِكِ وَلا أَنْسَاهُ، وَلا تَغِيبُ عَنِّي ذِكْرَاهُ فَمَاذَا جَدَّ بَعْدُ يَا أُخْتَاهُ؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «لَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي — فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ — رُؤْيَا لا تَقِلُّ عَنْ تِلْكَ هَوْلًا وَإِزْعَاجًا.

وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسِي رُعْبًا حِينَ تَبَيَّنْتُ مِنْ ذَلِكَ الْحُلْمِ الْمُزْعِجِ أَنَّ حَيَاتَكَ فِي خَطَرٍ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنِي إِذَا أَصَابَكَ سُوءٌ، فَإِنَّنِي لَاحِقَةٌ بِكَ عَلَى الْأَثَرِ.»

فَقَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ حَيَاتِي بِالْخَطَرِ أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «اصْغَ إِلَيَّ. قَدْ كُنْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ نَائِمَةً. يَا لله! فَرَأَيْتُ الضِّفْدِعَ مَرَّةً أُخْرَى. قَبَّحَهَا اللهُ! إِنَّهَا دَائِمًا الضِّفْدِعُ، تُخِيفُنِي، وَتُكَدِّرُ صَفْوِي، وَتَقْطَعُ عَلَيَّ سَعَادَتِي ... اسْمَعْ يَا عَزِيزِي ... لَقَدْ رَأَيْتُ الضِّفْدِعَ مُقْبِلَةً عَلَيَّ فِي مَنَامِي؛ رَأَيْتُهَا يَا عَزِيزِي، وَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ لِي مُتَحَدِّيَةً شَامِتَةً: «لَقَدِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَسْتَرِدَّ فِيهَا عَزِيزُكِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَشَرَتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ. وَسَيَكُونُ مَدِينًا لَكِ — بِلا شَكٍّ — بِهَذَا التَّغَيُّرِ. سَيَكُونُ مَدِينًا لَكِ، أَنْتِ وَحْدَكِ لَا سِوَاكِ. إِنِّي أَكْرَهُهُ وَأَكْرَهُكِ، وَلَنْ يَكُونَ كِلاكُمَا سَعِيدًا بِالْآخَرِ أَبَدًا، مَهْمَا تَبْذُلا مِنْ جُهْدٍ.

كُونِي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ ذَلِكِ يَا «نَرْجِسُ»؛ فَإِنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» سَيَهْلِكُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

أَتَفْهَمِينَ مَا أَقُولُ؟ سَيَهْلِكُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ».

أَمَّا أَنْتِ يَا «نَرْجِسُ»، فَلَنْ تَسْتَطِيعِي أَنْ تُتِمِّي الْجَمِيلَ الَّذِي تُحَاوِلِينَ أَنْ تُسْدِيهِ إِلَيْهِ.

كَلَّا، وَلَنْ تَسْتَطِيعِي ذَلِكِ مَهْمَا تُحَاوِلِي. وَلَنْ تَقْدِرِي عَلَى إِنْقَاذِهِ بِمَا تَبْذُلِينَ لَهُ مِنْ فِدَاءٍ يَدْفَعُكِ إِلَيْهِ مَا رُكِّبَ فِي طَبِيعَتِكِ الْعَوْجَاءِ مِنْ سُخْفٍ وَحَمَاقَةٍ وَغَبَاءٍ.

وَلَنْ تَمْضِيَ بِضْعَةُ أَيَّامٍ، أَوْ لَعَلَّهَا بِضْعُ سَاعَاتٍ، حَتَّى يَحُلَّ بِكُمَا غَضَبِي وَانْتِقَامِي، وَيَنْزِلَ بِكُمَا سُخْطِي وَعَذَابِي. أَتَسْمَعِينَ مَا أَقُولُ؟ أُعْزُبِي عَنْ وَجْهِي[٢] أَيَّتُهَا الْحَمْقَاءُ. وَإِنِّي مُلاقِيَتُكِ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ.»

فَاسْتَيْقَظْتُ وَأَنَا أَحْبِسُ فِي صَدْرِي صَرْخَةً مُفَزِّعَةً، كَانَتْ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُفْلِتَ مِنِّي، لَوْ لَمْ أَعْتَصِمْ[٣] بِالشَّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ ... وَلَمْ أَكَدْ أَنْتَبِهُ مِنْ نَوْمِي، حَتَّى اسْتَقْبَلَنِي وَجْهُ تِلْكَ الضِّفْدِعِ الْبَشِعَةِ، كَمَا اسْتَقْبَلَنِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي أَنْقَذْتَنِي فِيهِ مِنَ الْمَاءِ.

وَلا تَسَلْ عَنْ جَزَعِي حِينَ رَأَيْتُ الضِّفْدِعَ الشَّرِسَةَ تَقْفِزُ مِنَ النَّافِذَةِ وَثْبًا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِعَيْنٍ حَانِقَةٍ، وَتَتَهَدَّدُنِي بِنَظَرَاتِهَا. وَحَمِدْتُ اللهَ حِينَ غَابَتِ الضِّفْدِعُ عَنْ نَاظِرِي.

أَيُّ حُلْمٍ هائِلٍ كَابَدْتُهُ فِي لَيْلَتِي أَيُّهَا الْعَزِيزُ الْوَفِيُّ! لَقَدْ تَرَكَتْنِي الضِّفْدِعُ وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَى الْمَوْتِ مِنِّي إِلَى الْحَيَاةِ!

وَلَمْ تَكَدِ الضِّفْدِعُ تُفَارِقُنِي حَتَّى أَسْرَعْتُ إِلَى ثِيَابِي فَارْتَدَيْتُهَا، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ بِالْمَجِيءِ لِأُحَذِّرَكَ حَمَاقَةَ «عَاصِفَةَ»: أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ، وَأُنَبِّهَكَ إِلَى شَرَاسَتِهَا؛ لَعَلَّكَ تُسْرِعُ بِالِالْتِجَاءِ إِلَى صَدِيقَتِكَ الْجِنِّيَّةِ الْكَرِيمَةِ الْمُخْلِصَةِ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ.»

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يُصْغِي إِلَى حَدِيثِهَا خَائِفًا مُتَرَقِّبًا.[٤] وَلَمْ يَكُنْ جَزَعُهُ مِنْ تَهْدِيدِهَا إِيَّاهُ، كَمَا تَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِ «نَرْجِسَ»، بَلْ خَوْفًا عَلَيْهَا مِمَّا هِيَ قَادِمَةٌ عَلَيْهِ مِنَ التَّفْدِيَةِ الَّتِي حَدَّثَتْهُ بِهَا «لُؤْلُؤَةُ» أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ.

وَكَانَ أَخْوَفَ مَا يَخافُهُ، وَأَخْشَى مَا يَخْشَاهُ، أَنْ يَلْحَقَ بِـ «نَرْجِسَ» مِنْ جَرَّائِهِ أَيُّ مَكْرُوهٍ.

وَأَيُّ نَكْبَةٍ أَفْدَحُ مِنْ أَنْ يَرَى الْفَرْوَ الْكَرِيهَ، يَنْتَقِلُ مِنْ وَجْهِهِ إِلَى وَجْهِ صَدِيقَتِهِ «نَرْجِسَ» الْوَفِيَّةِ الْحَسْنَاءِ؟!

يَا لَلْهَوْلِ! إِنَّهُ خَاطِرٌ لَا يَكَادُ يَمُرُّ بِهِ، حَتَّى يَمْلَأَ نَفْسَهُ فَزَعًا وَرُعْبًا. إِنَّهُ لَيَتَمَثَّلُ مَا هِيَ قَادِمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ هَوْلٍ يَكَادُ يَصْعَقُهُ وَيُسْلِمُهُ إِلَى الْهَلاكِ.

---

[٢] اعزبي عن وجهي: اذهبي بعيدًا عني.

[٣] أعتصم: أتمسك.

[٤] مترقبًا: منتظرًا.

وَكَانَ أَلَمُهُ يَتَجَلَّى فِي نَظْرَتِهِ، وَيَرْتَسِمُ عَلَى أَسَارِيرِهِ.

وَقَدْ أَحَسَّتْ «نَرْجِسُ» وَهِيَ تُجِيلُ النَّظَرَ فِيهِ، بِمَا يُسَاوِرُهُ مِنْ أَحْزَانٍ، فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ أَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ، لِفَرْطِ مَا فَاضَ بِهِ قَلْبُهَا مِنْ أَلَمٍ، وَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ حَانِيَةٌ عَلَيْهِ، مُتَشَبِّثَةٌ بِهِ: «وَا أَسَفَاهُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ!

إِنَّكَ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُفَارِقَنِي عَاجِلًا، وَإِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ.

إِنَّ الضِّفْدِعَ الشِّرِّيرَةَ تُرِيدُ أَنْ تَنْتَزِعَكَ مِنِّي انْتِزَاعًا.

وَإِنِّي لَيَهُولُنِي أَنْ أَرَاكَ تَرْتَجِفُ؛ أَنْتَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفِ الْخَوْفُ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا، أَنْتَ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ إِلَيَّ نَاصِرًا وَمُعِينًا، وَمُبَدِّدًا لِمَخَاوِفِي وَحَارِسًا أَمِينًا. وَكَيْفَ لَا أَرْتَاعُ إِذَا تَمَثَّلْتُكَ[٥] ذَاهِبًا إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ؟!

أَنْتَ يَا مَنْ يُعِيدُ السَّكِينَةَ[٦] إِلَى قَلْبِي، وَلا يَفْتَأُ أَنْ يَرُدَّ الشَّجَاعَةَ إِلَى نَفْسِي كُلَّمَا أَلَمَّ بِهَا ضَعْفٌ، أَوْ دَبَّ إِلَيْهَا خَوْفٌ. أَنْتَ يَا مَنْ يُجَابِهُ الْمَوْتَ[٧] بَاسِمًا دُونَ أَنْ يُبَالِيَ الْخَطَرَ، مَهْمَا جَلَّ أَوْ صَغُرَ. كَيْفَ لَا أَنْزَعِجُ إِذَا رَأَيْتُكَ حَانِيَ الرَّأْسِ، مُطْرِقَ الْجَبِينِ، مُرْتَعِشَ الْأَطْرَافِ، مُسْتَسْلِمًا لِلْخَوْفِ فِي تَخَاذُلٍ وَضَعْفٍ لَمْ أَعْهَدْهُمَا فِيكَ مُنْذُ عَرَفْتُكَ؟»

فَقَالَ لَهَا مُتَأَلِّمًا: «كَلَّا، يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ»؛ فَمَا بِي مِنْ خَوْفٍ وَلا رَهْبَةٍ كَمَا تَظُنِّينَ، وَلَسْتُ أَرْتَجِفُ مِنْ جُبْنٍ وَلا فَزَعٍ كَمَا تَتَوَهَّمِينَ.

وَلَكِنَّ مَبْعَثَ اضْطِرَابِي وَفَزَعِي حَدِيثٌ كُنْتُ سَمِعْتُهُ مِنْ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ. وَهُوَ حَدِيثٌ مُفَزِّعٌ، أَحْمَدُ اللهَ أَنَّكِ لَمْ تَعْرِفِيهِ، وَلَمْ تُدْرِكِي مَا أَدْرَكْتُ مِنْ مَرَامِيهِ. إِنَّهُ نَبَأٌ خَطِيرٌ هَائِلٌ، يَنْطَوِي عَلَى تَهْدِيدٍ مُوَجَّهٍ إِلَيْكِ أَنْتِ يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ». لَوْلا ذَلِكَ النَّبَأُ مَا دَبَّ إِلَى قَلْبِيَ الْخَوْفُ، وَلا سَرَتْ فِي جِسْمِيَ الرَّعْشَةُ.

فَأَنْتِ تَرَيْنَ أَنَّنِي لَا أَرْتَاعُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِي، بَلْ خَوْفًا عَلَيْكِ. وَأَنْتِ — كَمَا تَعْلَمِينَ — أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي.»

---

[٥] تمثلتك: تخيلتك وتصورتك.

[٦] السكينة: الاطمئنان.

[٧] يجابه الموت: يلقاه ويواجهه ويقابله.

فَتَبَيَّنَتْ «نَرْجِسُ» مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَنَّ وَقْتَ الْفِدَاءِ قَدْ حَانَ، وَأَنَّ سَاعَةَ الْبَذْلِ قَدْ حَلَّتْ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّ وَفَاءَهَا بِوَعْدِهَا قَدْ دَنَا وَقْتُهُ، واقْتَرَبَ أَوَانُهُ، وَأَصْبَحَ لَا مَنَاصَ لَهَا[8] مِنْ إِنْجَازِ مَا عَاهَدَتْ عَلَيْهِ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ.

وَهُنَا سُرِّيَ عَنْهَا، وَزايَلَهَا مَا كَانَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى نَفْسِهَا مِنْ خَوْفٍ وَرَجْفَةٍ، وَحَلَّ مَحَلَّهُمَا الاِطْمِئْنَانُ وَالسُّرُورُ، بَعْدَ أَنْ أَيْقَنَتْ أَنَّ سَاعَةَ الْفِدَاءِ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَأَنَّ أَوَانَ الْوَفَاءِ لِصَاحِبِهَا قَدْ أَزِفَ.[9]

وَامْتَلَأَ قَلْبُهَا سُرُورًا حِينَ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُوشِكُ أَنْ تُسْدِيَ إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مِنَ النَّفْعِ وَالْمُعَاوَنَةِ بَعْضَ مَا أَسْدَاهُ إِلَيْهَا. ثُمَّ لَمْ تُجِبْ بِشَيْءٍ، وَلَمْ تُبْدِ لَهُ رَأْيًا فِيمَا سَمِعَتْهُ مِنْهُ، وَلَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ شَكَرَتْ لَهُ شَهَامَتَهُ وَإِخْلاصَهُ وَطَهَارَةَ قَلْبِهِ. وَلَمْ تُقَصِّرْ فِي إِينَاسِهِ وَإِزَالَةِ انْقِبَاضِهِ،[10] بَاذِلَةً فِي ذَلِكَ قُصَارَى جُهْدِهَا، لِتَمْسَحَ مَا عَلِقَ فِي نَفْسِهِ مِنْ مَخَاوِفَ.

وَلَمْ يَكُنْ يُخِيفُهَا إِلَّا أَنْ تَتَمَثَّلَ أَنَّ الْمَوْتَ رُبَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِأَسْرَعَ مِمَّا يَظُنَّانِ.

وَكَانَ هَذَا الْخَاطِرُ يُزْعِجُهَا، كَمَا يُزْعِجُ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»؛ وَلَكِنَّ كِلَيْهِمَا كَتَمَ عَنْ صَاحِبِهِ مَا يُسَاوِرُ نَفْسَهُ مِنْ قَلَقٍ عَلَيْهِ وَانْزِعَاجٍ.

واتَّجَهَ كِلاهُمَا بِقَلْبِهِ إِلَى أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ يَسْتَدْعِيهَا، وَيَطْلُبُ مَعُونَتَهَا، لِيُخَلِّصَ صَاحِبَهُ مِنْ وَرْطَتِهِ.

فَلَمَّا أَبْطَأَتْ، لَمْ يَتَمَالَكِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنْ يَسْتَدْعِيَهَا بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، فَلَمْ تُجِبْ نِدَاءَهُ أَيْضًا.

وَهَكَذَا مَضَى الْيَوْمُ فِي حُزْنٍ وَأَلَمٍ!

---

[8] لا مناص لها: لا مفر لها.

[9] أزف: قرب.

[10] الانقباض: ضيق الصدر.

# الْحَرِيقُ

وَاجْتَمَعَ رَأْيُ «نَرْجِسَ» وَ«الدُّبِّ الصَّغِيرِ» عَلَى أَنْ يَكْتُمَا عَنْ «مَاجِدَةَ» مَا لَقِيَا مِنْ أَحْدَاثٍ، وَمَا كَابَدَا مِنْ آلامٍ، حَتَّى لَا يَزِيدَا مَتَاعِبَهَا، وَيُضَاعِفَا هُمُومَهَا وَمَصَائِبَهَا، بَعْدَ أَنْ كَبِرَتْ مِنْهَا السِّنُّ، وَتَقَدَّمَ بِهَا الْعُمْرُ.

وَحَسَنًا فَعَلا؛ فَلَمْ تَكُنْ «مَاجِدَةُ» قَادِرَةً عَلَى احْتِمَالِ مُصِيبَتِهَا، فَكَيْفَ لَهَا بِاحْتِمَالِ الْمَزِيدِ مِنَ الْمُفَاجِئَاتِ الْمُزْعِجَةِ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا أَعَزُّ النَّاسِ عَلَيْهَا، وَأَبَرُّهُمْ بِهَا؟!

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا حِينَئِذٍ، وَقَدْ بَرَّحَ بِهَا الْحَزَنُ، وَاسْتَبَدَّتْ بِهَا الْحَيْرَةُ، فَتَقُولُ: «هَا هُوَ ذَا وَلَدِي قَدْ كَبِرَ، وَأَوْفَتْ سِنُّهُ عَلَى الْعِشْرِينَ، فَهَلْ دَنَتْ سَاعَةُ الْخَلَاصِ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ مِنَ النَّحْسِ؟

وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ، وَهُوَ يَأْبَى أَنْ يُفْضِيَ بِسِرِّهِ إِلَى «نَرْجِسَ» وَيُحَتِّمُ عَلَيَّ أَلَّا أَبُوحَ لِـ «نَرْجِسَ» بِالْحَقِيقَةِ إِشْفَاقًا عَلَيْهَا، وَإِيثَارًا لِسَعَادَتِهَا عَلَى سَعَادَتِهِ؟!

وَلَوْ أَنَّ «نَرْجِسَ» عَرَفَتْ أَنَّهَا وَحْدَهَا الْقَادِرَةُ عَلَى إِنْقَاذِهِ، مَا تَرَدَّدَتْ فِي ذَلِكَ لَحْظَةً وَاحِدَةً، كَلَّفَهَا ذَلِكَ مَا كَلَّفَهَا مِنْ جُهْدٍ وَأَلَمٍ.

وَمَا كَانَتْ «نَرْجِسُ» الْوَفِيَّةُ الشَّاكِرَةُ، لِتَتَرَدَّدَ — لَوْ عَلِمَتْ — فِي اسْتِبْدَالِ فَرْوِهِ الْبَشِعِ بِبَشَرَتِهَا الْغَضَّةِ النَّاعِمَةِ.

وَلَيْسَ لِوَلَدِي سَبِيلٌ لِلْخَلَاصِ مِنْ سِحْرِهِ، إِلَّا إِذَا بَذَلَتْ لَهُ «نَرْجِسُ» هَذَا الصَّنِيعَ الْجَلِيلَ. وَلَكِنْ كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى ذَلِكِ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ شَيْئًا؟»

كَذَلِكَ كَانَتْ «مَاجِدَةُ» تُنَاجِي نَفْسَهَا كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى، ثُمَّ تَنْتَهِي مُنَاجَاتُهَا بِالْبُكَاءِ تَارَةً، وَبِالِاسْتِسْلَامِ لِقَضَاءِ اللهِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ تَارَةً أُخْرَى.

وَلَمْ يَكُنْ يُجْدِيهَا[1] الْحُزْنُ؛ فَلا تَجِدُ فِي غَيْرِ الصَّبْرِ نَجَاةً وَمَهْرَبًا ... فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ، رَأَتْ «نَرْجِسُ» تِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي قَصَّتْهَا عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

وَرَأَتْ «مَاجِدَةُ» رُؤْيَا أُخْرَى تَخْتَلِفُ عَنْهَا؛ فَقَدْ زَارَتْهَا «لُؤْلُؤَةُ» فِي مَنَامِهَا، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهَا بَاسِمَةَ الثَّغْرِ، مُنْطَلِقَةَ الْأَسَارِيرِ، ثُمَّ رَبَّتَتْ كَتِفَهَا[2] قَائِلَةً: «عَلَيْكِ بِالصَّبْرِ وَالشَّجَاعَةِ أَيَّتُهَا الْمَلِكَةُ الْعَظِيمَةُ؛ فَقَدْ دَنَتْ سَاعَةُ الْخَلاصِ. وَلَنْ تَنْقَضِيَ عَلَى وَلَدِكِ غَيْرُ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، يَسْتَعِيدُ بَعْدَهَا بَشَرَةَ وَجْهِهِ النَّاعِمَةَ، وَيَخْلَعُ عَنْهُ فَرْوَهُ الْبَشِعَ وَلَقَبَهُ الْبَغِيضَ. وَسَتَرَيْنَ كَيْفَ يَنْتَهِي عَهْدُ الشَّقَاءِ فِي زَمَنٍ أَقْرَبَ مِمَّا تَتَصَوَّرِينَ، وَكَيْفَ يَتَغَيَّرُ لَقَبُ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» فَيُصْبِحُ الْأَمِيرَ فَائِقًا!»

وَهُنَا اسْتَيْقَظَتْ «مَاجِدَةُ» وَقَدْ حَلَّ الرَّجَاءُ مَحَلَّ الْيَأْسِ، وَغمَرَهَا الْفَرَحُ وَالْإِينَاسُ، وَزَادَ حُبُّهَا لـ «نَرْجِسَ» وَحَنَانُهَا بَعْدَ أَنْ تَجَلَّى لِعَيْنِهَا فَضْلُ تِلْكَ الْفَتَاةِ الْمُخْلِصَةِ الْوَفِيَّةِ ... وَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا مَصْدَرُ إِسْعَادِهَا وَإِسْعَادِ وَلَدِهَا، وَلَوْلَاهَا لَحَالَفَهُمَا الشَّقَاءُ طُولَ عُمْرِهِمَا!

ثُمَّ حَانَ مَوْعِدُ الرُّقَادِ، فَنَامَتْ «نَرْجِسُ» كَمَا نَامَ صَاحِبُهَا، وَقَلْبَاهُمَا يَفِيضَانِ حُزْنًا وَهَمًّا مِنْ خَوْفِ الْمُسْتَقْبَلِ الْمُظْلِمِ، عَلَى حِينِ كَانَتْ «مَاجِدَةُ» قَرِيرَةَ الْعَيْنِ، يَفِيضُ قَلْبُهَا سُرُورًا مِنْ جَرَّاءِ الْمُسْتَقْبَلِ الْبَهِيجِ، الَّذِي تَتَرَقَّبُهُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، كَمَا يَتَرَقَّبُ الْإِنْسَانُ أَحَبَّ الْبُشْرَيَاتِ وَأَسْعَدَ الْأَعْيَادِ.

أَمَّا قَلْبُ «حَلِيمَةَ» فَكَانَ يَغْمُرُهُ شُعُورٌ مُبْهَمٌ غَامِضٌ هُوَ مَزِيجٌ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَرَحِ. وَلَمْ تَكُنْ تَدْرِي لِذَلِكَ الشُّعُورِ سَبَبًا.

وَهَكَذَا نَامَ الْجَمِيعُ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمْ حَالٌ يُغْنِيهِ، وَيَخْتَلِفُ عَمَّا يَشْغَلُ الْآخَرَ وَيَعْنِيهِ. نَامَتْ «نَرْجِسُ» بَعْدَ أَنْ طَالَ بُكَاؤُهَا أَسَفًا وَحَسْرَةً عَلَى مَا تسْتَهْدِفُ لَهُ[3] مِنْ شَقَاءٍ، وَنَامَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَعْدَ أَنِ اسْتَدْعَى أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ لِيَأْنَس بِلُقْيَاهَا، وَيَسْتَمِدَّ مِنْهَا النُّصْحَ وَالْمَعُونَةَ.

---

[1] يجديها: ينفعها.

[2] ربتت كتفها: ضربته ضربات خفيفة في رفق.

[3] تستهدف له: تتعرض له.

وَرَآهَا وَهِيَ تَسْتَقْبِلُهُ فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً، وَتُهَنِّئُهُ بِمَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَشِيكَةٍ،[٤] وَتُبَشِّرُهُ بِانْقِضَاءِ عَهْدِ الْمِحْنَةِ وَالشَّقَاءِ.

أَمَّا «حَلِيمَةُ» فَرَاحَتْ تُسَائِلُ نَفْسَهَا — أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ — عَمَّا يُضْمِرُهُ الْغَيْبُ لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُعَذَّبَةِ الْمَنْكُوبَةِ، وَشَعَرَتْ بِانْقِبَاضٍ[٥] شَدِيدٍ، دُونَ أَنْ تَدْرِيَ لِانْقِبَاضِهَا سَبَبًا.

ثُمَّ اسْتَسْلَمَ الْجَمِيعُ لِلرُّقَادِ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ سُكَّانِ الدَّسْكَرَةِ أَحَدٌ سَاهِرًا.

وَانْقَضَتْ عَلَى ذَلِكَ سَاعَةٌ كَامِلَةٌ.

ثُمَّ اسْتَيْقَظَتْ «نَرْجِسُ» مَرْعُوبَةً مُفَزَّعَةً، ضَيِّقَةَ الْأَنْفَاسِ، يَكَادُ صَدْرُهَا يَخْتَنِقُ. تُرَى مَاذَا حَدَثَ؟

يَا لَلْهَوْلِ! إِنَّهُ الْحَرِيقُ يَكَادُ يَلْتَهِمُ الْبَيْتَ بِمَا فِيهِ، وَلا يُبْقِي عَلَى أَحَدٍ مِنْ سَاكِنِيهِ. وَقَدِ انْبَعَثَ الدُّخَانُ الْكَثِيفُ مِنْ كُلِّ الْأَرْجَاءِ، فَكَادَ يَخْنُقُهَا وَهِيَ نَائِمَةٌ.

وَسُرْعَانَ مَا اسْتَيْقَظَتْ «مَاجِدَةُ»، فَانْدَفَعَتْ إِلَيْهَا «نَرْجِسُ» تُسَائِلُهَا مُتَلَهِّفَةً: «أَلا تَشَمِّينَ هَذَا الدُّخَانَ الْخَانِقَ يَا أُمَّاهُ!»

فَأَجَابَتْهَا «مَاجِدَةُ» مَذْعُورَةً: «بَلَى، إِنَّهَا دَاهِيَةٌ دَهْوَاءُ.[٦] إِنَّهُ الْبَيْتُ يَحْتَرِقُ، فَوَا حَسْرَتَاهُ! انْظُرِي، أَلا تَرَيْنَ اللَّهَبَ يَشْتَعِلُ فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ كُلِّهِ؟»

وَنَهَضَتْ «نَرْجِسُ» وَ«مَاجِدَةُ» مِنْ فِرَاشِهِمَا مُفَزَّعَتَيْنِ، وَأَسْرَعَتَا إِلَى قَاعَةِ الْبَيْتِ مَرْعُوبَتَيْنِ، فَوَجَدَتَا النَّارَ قَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا كَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَى حُجُرَاتِ الدَّارِ كُلِّهَا.

فَصَاحَتْ «نَرْجِسُ»: «شَقِيقِيَ الْعَزِيزَ! أَيْنَ أَنْتَ يَا شَقِيقَاهُ؟»

وَأَسْرَعَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى الْقَاعَةِ وَهِيَ نِصْفُ عَارِيَةٍ، أَوْ نِصْفُ كَاسِيَةٍ، وَانْدَفَعَتْ تَصْرُخُ نَادِبَةً مُوَلْوِلَةً: «لَقَدْ هَلَكْنَا يَا سَيِّدَتِي! هَلَكْنَا وَا حَسْرَتَاهُ! وَلَمْ يَبْقَ لَنَا أَمَلٌ فِي النَّجَاةِ.

لَقَدِ اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي مُحْتَوَيَاتِ الدَّارِ، وَهِيَ عَلَى وَشْكِ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى مَا بَقِيَ فِيهَا مِنْ أَبْوَابٍ وَنَوَافِذَ وَأَثَاثٍ وَآنِيَةٍ.

---

[٤] وشيكة: قريبة.

[٥] انقباض: حزن.

[٦] داهية دهواء: داهية شديدة.

وَلَقَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا الْخِنَاقَ وَأَحَاطَتْ بِنَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَعَجَزْنَا — وَا أَسَفَاهُ — عَنِ الْوُصُولِ إِلَى مَنْفَذٍ نَهْرُبُ مِنْهُ؛ فَالْأَبْوابُ — كَمَا تَرَيْنَ — مُوصَدَةٌ، وَالنَّوَافِذُ مُحْكَمَةُ الْإِغْلاقِ، فَأَيْنَ النَّجَاةُ؟!»

وَثَارَتْ «مَاجِدَةُ» صَائِحَةً: «وَلَدِي، وَلَدِي، أَيْنَ أَنْتَ يَا وَلَدَاهُ؟»

وَصَاحَتْ «نَرْجِسُ»: «شَقِيقِي، أَيْنَ أَنْتَ يَا شَقِيقَاهُ؟»

وَانْدَفَعَتْ «نَرْجِسُ» وَ«مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» إِلَى الْأَبْوابِ، مُحَاوِلاتٍ أَنْ يَفْتَحْنَهَا أَوْ يُحَطِّمْنَهَا؛ فَعَجَزَتْ قُوَاهُنَّ مُجْتَمِعَاتٍ عَلَى ذَلِكَ.



وَخُيِّلَ إِلَيْهِنَّ أَنَّ الْأَبْوَابَ وَالنَّوَافِذَ قَدْ سُمِّرَتْ تَسْمِيرًا، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِيطَانِ فَرْقٌ لِصَلابَتِهَا وَإِحْكَامِهَا، وَاسْتِحَالَةِ النَّفَاذِ مِنْهَا. وَجَمْجَمَتْ «نَرْجِسُ» وَاجِمَةً حَيْرَى: «أَوَّاهُ! يَا لَكِ مِنْ رُؤْيَا هَائِلَةٍ! فَوَدَاعًا إِلَى الْأَبَدِ يَا عَزِيزِيَ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»؛ فَمَا أَظُنُّ الْأَمَلَ فِي اللِّقَاءِ — بَعْدَ الْيَوْمِ — إِلَّا مَفْقُودًا.»

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» قَدْ أَفَاقَ مِنْ نَوْمِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ — كَمَا أَفَاقَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«نَرْجِسُ» — وَرَأَى مَا يَكْتَنِفُهُ مِنَ الدُّخَانِ وَاللَّهَبِ. وَكَانَ يَنَامُ — عَلَى عَادَتِهِ — خَارِجَ الدَّسْكَرَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْإِصْطَبْلِ.

فَكَانَ أَوَّلَ هَمِّهِ أَنْ يُبَادِرَ إِلَى نَجْدَةِ مَنْ بِالدَّارِ قَبْلَ أَنْ يَدْهَمَهُنَّ الْحَرِيقُ، فَلَمْ يُضِعْ مِنْ وَقْتِهِ لَحْظَةً سُدًى.[٧]

وَأَسْرَعَ إِلَى بَابِ الْبَيْتِ الْخَارِجِيِّ، فَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَحِمَهُ، كَمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِنَّ — مِنْ قَبْلُ — أَنْ يَفْتَحْنَهُ مُجْتَمِعَاتٍ.

فَتَعَجَّبَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مِمَّا رَأَى، وَأَيْقَنَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ سِرًّا مَطْوِيًّا عَنْهُ؛ فَقَدْ وَهَبَهُ اللهُ — كَمَا عَلِمْتَ — قُوَّةً تَكَادُ تُزَحْزِحُ الْجِبَالَ مِنْ أَمَاكِنِهَا.

فَكَيْفَ يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ فَتْحُ بَابٍ وَاحِدٍ أَوْ كَسْرُهُ؟

إِنَّهَا بِلا شَكٍّ قُوَّةُ الْمَاكِرَةِ الْخَبِيثَةِ «عَاصِفَةَ»، تَحُولُ دُونَ دُخُولِهِ، لِتُهْلِكَ مَنْ فِي الدَّارِ خَنْقًا.

وَقَدْ صَحَّ مَا تَوَقَّعَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»؛ فَقَدْ أَوْصَدَتْ «عَاصِفَةُ» الْمَاكِرَةُ الْأَبْوابَ وَالنَّوَافِذَ كُلَّهَا، وَبَذَلَتْ كُلَّ مَا تَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ لِتَحُولَ دُونَ فَتْحِهَا أَوْ تَحْطِيمِهَا.

وَرَأَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنَّ النَّارَ تَعْظُمُ وَتَشْتَدُّ وَتَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَمْ يَدِبَّ إِلَى قَلْبِهِ الْيَأْسُ.

وَانْدَفَعَ إِلَى سُلَّمِ الْإِصْطَبْلِ، فَقَفَزَ مِنْهُ إِلَى النَّافِذَةِ، ثُمَّ قَفَزَ مِنْهَا إِلَى الدَّارِ، وَأَسْرَعَ إِلَى حُجْرَةِ أُمِّهِ، فَرَآهَا وَ«نَرْجِسَ» مُتَعَانِقَتَيْنِ تَتَرَقَّبَانِ الْمَوْتَ — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَقَدْ بَلَغَ الْيَأْسُ مِنْهُمَا كُلَّ مَبْلَغٍ.

[٧] سدى: بلا فائدة.

وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهَا فُسْحَةٌ مِنَ الْوَقْتِ لِلْحَدِيثِ؛ فَأَسْرَعَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَيْهِمَا وَحَمَلَهُمَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، ثُمَّ صَاحَ بِـ «حَلِيمَةَ» أَنْ تَتْبَعَهُ، وَظَلَّ يَجْرِي بِهِمَا مُسْرِعًا فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمُسْتَوْدَعِ، حَتَّى بَلَغَ السُّلَّمَ، ثُمَّ هَبَطَ دَرَكَاتِهِ وَهُوَ يَحْمِلُ «مَاجِدَةَ» فِي يُمْنَاهُ، وَ«نَرْجِسَ» فِي يُسْرَاهُ، وَهَبَطَتْ «حَلِيمَةُ» فِي أَثَرِهِ.

# صُنْدُوقُ السَّعَادَةِ

وَمَا كَادَتْ أَقْدَامُهُمْ تَسْتَقِرُّ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى كَانَتِ النَّارُ قَدْ أَتَتْ عَلَى كُلِّ مَا تَحْوِيهِ الدَّارُ، وَالْتَهَمَتِ الْمُسْتَوْدَعَ وَالسُّلَّمَ جَمِيعًا، وَلَمْ تُبْقِ مِنْهُمَا شَيْئًا.

ثُمَّ وَضَعَ الْفَتَى وَالِدَتَهُ وَ«نَرْجِسَ» فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ لِيُؤْمِنَهُمَا مِنْ شَرِّ الْحَرِيقِ.

وَأَقْبَلَتْ «حَلِيمَةُ» عَلَى أَثَرِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَسْرَعَتْ إِلَى طَائِفَةٍ مِنَ الثِّيَابِ، فَجَمَعَتْهَا وَحَمَلَتْهَا فِي مُلاءَةٍ كَبِيرَةٍ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَتْ «حَلِيمَةُ» فِيمَا فَعَلَتْهُ كُلَّ الْإِحْسَانِ، وَأَثْبَتَتِ الْحَوادِثُ بُعْدَ نَظَرِهَا وَصِدْقَ ظَنِّهَا، حِينَ رَأَتْ «نَرْجِسَ» وَ«مَاجِدَةَ» تَخْرُجَانِ مِنَ الدَّارِ حَافِيَتَيِ الْقَدَمَيْنِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمَا مِنَ الثِّيَابِ مَا يَحْفَظُهُمَا مِنْ أَلَمِ الْبَرْدِ، فَأَسْعَفَتْهُمَا «حَلِيمَةُ» بِمَا أَحْضَرَتْهُ مَعَهَا مِنَ الثِّيَابِ؛ وَأَنْقَذَتْهُمَا بِذَلِكَ مِنْ خَطَرِ الْبَرْدِ وَأَذَاهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ.

وَلَمْ يَفُتْهَا أَنْ تَحْمَدَ لِلْفَتَى الْجَرِيءِ الشَّهْمِ صَنِيعَهُ، وَتُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنَ الثَّنَاءِ فِي حَرَارَةٍ وَإِخْلاصٍ، شَاكِرَةً لَهُ مَا قَامَ بِهِ مِنْ صَنِيعٍ جَلِيلٍ.

أَمَّا «حَلِيمَةُ» فَقَدْ غَمَرَهَا الْجَمِيعُ بِالشُّكْرِ وَالْمَدِيحِ لِمَا أَظْهَرَتْهُ مِنْ ثَبَاتٍ وَحَزْمٍ وَبُعْدِ نَظَرٍ، أَمَامَ الْخَطْبِ الْفَادِحِ؛ فَلَوْلاهَا لَأَهْلَكَ الْبَرْدُ «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِسَ».

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»، وَالْخَجَلُ بَادٍ عَلَى سِيمَاهَا لِمَا سَمِعَتْهُ مِنْ ثَنَاءٍ: «إِنَّنِي لَمْ أَقُمْ بِغَيْرِ الْوَاجِبِ، وَلَيْسَ لِي فِيمَا فَعَلْتُ فَضْلٌ.

فَإِنَّ ضَبْطَ النَّفْسِ، وَالِاحْتِيَاطَ لِلطَّوَارِئِ عِنْدَ وُقُوعِ الْكَارِثَةِ، وَالثَّبَاتَ أَمَامَ الْمَصَائِبِ، هِيَ أَوَّلُ وَاجِبَاتِ الْعَاقِلِ.

فَلَا عَجَبَ إِذَا اتَّجَهَ تَفْكِيرِي حِينَ دَهَمَنَا الْحَرِيقُ إِلَى جَمْعِ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدِي مِنْ ثِيَابٍ؛ لِأَنَّنِي قَدَّرْتُ أَنَّكُمَا سَتَخْرُجَانِ مِنَ الدَّارِ — إِذَا كُتِبَتْ لَكُمَا النَّجَاةُ — وَلَيْسَ عَلَيْكُمَا إِلَّا ثَوْبُ النَّوْمِ.»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «حَسَنٌ، هَذَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ! وَلَكِنْ مَاذَا كَانَتْ تُجْدِي هَذِهِ الْمُلاءَةُ يَا «حَلِيمَةُ»، لَوْ لَمْ يَتَدَارَكْنَا لُطْفُ اللهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُنَّ سَبِيلَ النَّجَاحِ؟»

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «صَدَقْتَ يَا عَزِيزِي.

وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَنَا نَحْتَرِقُ مَا دُمْتَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَكَانَ يُخَامِرُنِي شُعُورٌ مُبْهَمٌ غَامِضٌ أَنَّ كَارِثَةً سَتُلِمُّ بِنَا، ثُمَّ يَتَدَارَكُنَا لُطْفُ اللهِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي تُنْقِذُ فِيهَا حَيَاةَ «نَرْجِسَ»!»

فَقَالَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِالنَّجَاةِ مِنْ هَذِهِ الْكَارِثَةِ الْمُفَاجِئَةِ، وَلَوْلا لُطْفُهُ فِي قَضَائِهِ لَضَاعَ كُلُّ أَمَلٍ فِي الْخَلاصِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَتْ «حَلِيمَةُ» فِيمَا صَنَعَتْ، وَأَخَذَتْ بِالْأَحْزَمِ الْأَنْفَعِ؛ فَلَوْ أَنَّنَا تَعَرَّضْنَا لِخَطَرِ الْبَرْدِ جَمِيعًا مَا لامَهَا أَحَدٌ فِيمَا صَنَعَتْ، وَلَكَانَتْ خَسَارَةُ الثِّيَابِ هَيِّنَةً بِالْقِيَاسِ إِلَى فَدَاحَةِ الْكَارِثَةِ.

أَمَّا الْآنَ، وَقَدْ ظَفِرْنَا بِالنَّجَاةِ، فَقَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ نَنْتَفِعُ بِهَا، وَالْحَمْدُ للهِ؛ فَهِيَ مَشْكُورَةٌ عَلَى مَا أَدَّتْ مِنْ جَمِيلٍ.»

وَأَسْرَعَتْ «نَرْجِسُ» إِلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، فَأَمْسَكَتْ بِيَدَيْهِ تَهُزُّهُمَا فِي حَرَارَةِ الشَّاكِرَةِ الْمُعْجَبَةِ، تَقْدِيرًا لِصَنِيعِهِ الْجَلِيلِ.

وَأَسْرَعَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى «نَرْجِسَ»، فَقَبَّلَتْ وَجْنَتَيْهَا قَائِلَةً: «مَا أَسْعَدَ وَلَدِي بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ قَلْبُكِ يَا «نَرْجِسُ» الْكَرِيمَةَ مِنْ رِقَّةٍ وَحَنَانٍ! وَمَا أَجْدَرَكِ أَيَّتُهَا الْوَفِيَّةُ الْعَزِيزَةُ بِمَا أَسْدَاهُ إِلَيْكِ مِنْ صَنِيعٍ، جَزَاءً لَكِ عَلَى مَا أَسْلَفْتِ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيلٍ فِي إِثْرِ جَمِيلٍ!

وَلَقَدْ بَذَلَ كِلاكُمَا لِصَاحِبِهِ أَعْظَمَ مَا يَسْتَطِيعُهُ إِنْسَانٌ مِنْ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ.

وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ أَسْعَدَ أُمْنِيَّةٍ تَتَمَنَّيْنَهَا هِيَ أَنْ يُتِيحَ اللهُ لَكِ فُرْصَةً تُمَكِّنُكِ مِنْ أَنْ تَبْذُلِي لِوَلَدِي مَا تَمْلِكِينَ مِنْ فِدَاءٍ، مَتَى حَانَتْ سَاعَةُ الْوَفَاءِ.»

وَمَا إِنْ سَمِعَ وَلَدُهَا مَا تَقُولُ حَتَّى حَالَ دُونَ إِتْمَامِ حَدِيثِهَا. وَخَشِيَ أَنْ تُدْرِكَ «نَرْجِسُ» مَغْزَى مَا تَقُولُ فَتُجِيبَهَا بِالْقَبُولِ، وَتَكُونَ النَّتِيجَةُ سَعَادَتَهُ وَشَقَاءَهَا؛ فَأَسْرَعَ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ

أَنْ تَفُوهَ «نَرْجِسُ» بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ قَائِلًا: «عَفْوًا يَا أُمَّاهُ إِذَا رَجَوْتُكِ أَنْ تَكُفِّي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ سَعَادَةَ نَرْجِسَ هِيَ كُلُّ مَا أَحْرِصُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

وَلا رَيْبَ أَنَّكِ تَعْرِفِينَ مِقْدَارَ مَا يَغْمُرُ نَفْسِي مِنْ أَلَمٍ كُلَّمَا هَمَمْتِ — يَا أُمَّاهُ — بِالْعَوْدَةِ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ وَإِثَارَتِهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.»

فَلَمْ تُجِبْهُ «مَاجِدَةُ» بِشَيْءٍ، وَشَغَلَهَا عَنْ مُنَاقَشَتِهِ أَمْرٌ آخَرُ كَادَ يُذْهِلُهَا عَمَّا حَوْلَهَا؛ فَكَفَّتْ عَنْ حِوَارِهَا، وَارْتَسَمَتْ أَمَارَاتُ الْحَيرَةِ عَلَى وَجْهِهَا، وَرَفَعَتْ يَدَهَا إِلَى جَبِينِهَا، وَقَالَتْ لـ «حَلِيمَةَ» مُتَفَجِّعَةً وَاجِمَةً: «أَيْنَ الصُّنْدُوقُ الصَّغِيرُ يَا «حَلِيمَةُ»؟

هَلْ أَنْقَذْتِهِ كَمَا أَنْقَذْتِ الثِّيَابَ أَمْ نَسِيتِهِ كَمَا نَسِيتُهُ أَنَا؟»

فَقَالَتْ لَهَا «حَلِيمَةُ»: «وَا حَسْرَتَاهُ! لَقَدْ غَفَلْنَا عَنِ الصُّنْدُوقِ وَنَسِينَاهُ!»

فَبَدَا الْحُزْنُ وَالِامْتِعَاضُ[1] عَلَى وَجْهِ «مَاجِدَةَ»، وَرَأَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا مِنْ أَلَمٍ، فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ سَأَلَهَا عَنِ الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ الَّذِي أَزْعَجَهَا فَقْدُهُ.

فَأَجَابَتْهُ «مَاجِدَةُ» وَاجِمَةً مُرْتَبِكَةً: «إِنَّهُ — يَا وَلَدِي — هَدِيَّةُ الْجِنِّيَّةِ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ. وَقَدِ اسْتَوْدَعَتْنِيهِ[2] بَعْدَ أَنْ أَوْصَتْنِي بِهِ، وَأَمَرَتْنِي بِالسَّهَرِ عَلَيْهِ، وَأَنْذَرَتْنِي بِالْكَوارِثِ وَالنَّكَبَاتِ إِذَا فُقِدَ.

وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ نُصْحَهَا لِي وَهِيَ تُحَذِّرُنِي قَائِلَةً: «إِنَّ سَعَادَةَ «نَرْجِسَ» رَهْنٌ بِهَذَا الصُّنْدُوقِ!»

وَلَقَدْ عُنِيتُ بِهِ — يَا وَلَدِي — لِنَفَاسَتِهِ وَجَلالِ خَطَرِهِ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ جُهْدِي، وَاسْتَوْدَعْتُهُ الصِّوَانَ بِالْقُرْبِ مِنْ سَرِيرِي، وَلَمْ أُقَصِّرْ فِي حِرَاسَتِهِ وَالسَّهَرِ عَلَيْهِ، حَتَّى احْتَرَقَ الْبَيْتُ؛ فَأَذْهَلَنِي هَوْلُ الْكَارِثَةِ عَنْهُ. فَوَا أَسَفَاهُ!

أَيُّ هَوْلٍ أَنْسَانِيهِ، وَشَغَلَنِي عَنِ التَّفْكِيرِ فِيهِ؟!

وَكَيْفَ غَفَلْتُ عَنْهُ وَفِيهِ سَعَادَةُ «نَرْجِسَ»، وَفِي فِقْدَانِهِ شَقَاؤُهَا وَتَعَاسَتُهَا؟!»

وَمَا أَتَمَّتْ هَذِهِ الْجُمْلَةَ حَتَّى انْدَفَعَ الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ الشَّهْمُ إِلَى الدَّسْكَرَةِ، واقْتَحَمَهَا — وَهِيَ تَلْتَهِبُ — غَيْرَ مُبَالٍ بِمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ مَهَالِكَ وَأَخْطَارٍ.

---

[1] الامتعاض: التألم.

[2] استودعتنيه: تركته عندي وديعة وأمانة.

وَلَمْ يَثْنِهِ عَنْ عَزْمَتِهِ رَجَاءُ «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِسَ» وَ«حَلِيمَةَ» وَدُمُوعُهُنَّ، وَلَمْ يُصْغِ إِلَيْهِنَّ وَهُنَّ يَتَوَسَّلْنَ إِلَيْهِ ضَارِعَاتٍ أَلَّا يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ فِي اللَّهَبِ بَعْدَ أَنْ كُتِبَتْ لَهُ النَّجَاةُ، وَأَبَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَّا أَنْ يُصِمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ كُلِّ نِدَاءٍ إِلَّا نِدَاءَ الْوَاجِبِ. وَشَغَلَتْهُ سَعَادَةُ «نَرْجِسَ» عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَالْتَفَتَ لَهُنَّ يُؤَسِّيهِنَّ،[٣] وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِنَّ فَقْدَهُ — فِي سَبِيلِ أَدَاءِ الْوَاجِبِ — وَيُعَزِّيهِنَّ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِنَّ وَهُوَ يَقْتَحِمُ اللَّهَبُ يُوَدِّعُهُنَّ، وَيَقُولُ لَهُنَّ: «لَنْ يَضِيعَ الصُّنْدُوقُ أَيَّتُهَا الْعَزِيزَاتُ؛ فَقَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى إِحْضارِهِ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ، وَقَدِ اسْتَمْدَدْتُ الْعَوْنَ مِنَ اللهِ، وَسَيُكْتَبُ لِي — بِتَوْفِيقِهِ — الْفَوْزُ وَالنَّجَاةُ.»

[٣] يؤسيهن: يصبرهن.

# ذِكْرَيَاتٌ حَزِينَةٌ

وَسَادَ صَمْتٌ مُحْزِنٌ بَعْدَ أَنْ تَوَارَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، وَغَابَ عَنْ أَعْيُنِهِنَّ.

وَلَمْ تَتَمَالَكْ «نَرْجِسُ» أَنْ تَرْكَعَ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ضَارِعَةً، وَتَمُدَّ ذِرَاعَيْهَا مُلَوِّحَةً بِهِمَا فِي الْفَضَاءِ مُتَحَسِّرَةً، وَظَلَّتْ شَاخِصَةً إِلَى الدَّسْكَرَةِ الْمُحْتَرِقَةِ وَعَيْنَاهَا غَاصَّتَانِ بِالدُّمُوعِ.

أَمَّا «مَاجِدَةُ» فَقَدْ وَقَفَتْ وَاجِمَةً سَادِرَةً،[1] وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَوِّلَ عَيْنَيْهَا عَنِ الثَّغْرَةِ الَّتِي اقْتَحَمَهَا وَلَدُهَا بَيْنَ الْأَنْقَاضِ الْمُلْتَهِبَةِ، وَلَبِثَتِ الْمِسْكِينَةُ سَاكِنَةً مَشْدُوهَةً، عَاجِزَةً عَنِ الْحَرَكَةِ عَجْزَهَا عَنِ الْكَلَامِ؛ فَقَدْ أَلْجَمَهَا الرُّعْبُ، وَقَيَّدَهَا الْفَزَعُ؛ فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ تُخْفِيَ وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا، حَتَّى لَا يَفْجَأَهَا مَصْرَعُ وَلَدِهَا بَيْنَ اللَّهَبِ.

وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لَحَظَاتٌ، خُيِّلَ لِثَلَاثَتِهِنَّ — مِنْ هَوْلِهَا — أَنَّهَا أَعْوَامٌ. وَهَكَذَا بَقِينَ حَائِرَاتٍ، يَتَنَازَعُهُنَّ الْيَأْسُ وَالْأَمَلُ، وَتَتَرَجَّحُ بِهِنَّ الظُّنُونُ بَيْنَ الشَّكِّ فِي مَوْتِ عَزِيزِهِنَّ وَالْأَمَلِ فِي حَيَاتِهِ، بَعْدَ أَنْ فَارَقَهُنَّ وَاسْتَخْفَى عَنْ أَبْصَارِهِنَّ.

وَمِمَّا ضَاعَفَ الْخَوْفَ فِي قُلُوبِهِنَّ أَنَّهُنَّ سَمِعْنَ فَرْقَعَةً عَقِبَ انْدِفَاعِهِ إِلَى اللَّهَبِ، وَرَأَيْنَ تَكَاثُفَ الدُّخَانِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْفَاجِعَاتِ ضَجِيجٌ مُفَاجِئٌ مُزْعِجٌ، انْتَزَعَ مِنْ «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِسَ» صَرْخَتَيْ فَزَعٍ وَيَأْسٍ.

وَقَدِ انْبَعَثَتْ صَيْحَاتُهُمَا حِينَ فُوجِئَتَا بِسَمَاعِ ضَجِيجٍ صَاخِبٍ أَشْبَهَ بِقَصْفِ الرُّعُودِ. وَأَبْصَرَتَا الْأَسْقُفَ تَهْوِي مُتَدَاعِيَةً فِي أَثَرِهِ، وَتَتَنَاثَرُ أَمَامَهُمَا مُحْتَرِقَةً، سَقْفًا فِي إِثْرِ سَقْفٍ!

---

[1] سادرة: حزينة.

وَأَدْرَكَتَا أَنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» قَدْ رَدَمَتْهُ الْأَنْقَاضُ بَعْدَ أَنْ خَرَّ[٢] عَلَيْهِ السَّقْفُ الْمُلْتَهِبُ، وَخَنَقَهُ الدُّخَانُ الْكَثِيفُ. وَبَعْدَ قَلِيلٍ خَمَدَتْ جَذَوَاتُ النَّارِ، وَأَتَتْ عَلَى الدَّارِ بِكُلِّ مَا تَحْوِيهَا، وَأَحَالَتْهَا إِلَى رَمَادٍ.

كَانَتْ هَذِهِ الْمَخَاطِرُ تَمْلَأُ قُلُوبَهُنَّ، فَلَمْ تَدَعْ شُعَاعًا مِنَ الْأَمَلِ يَنْفُذُ إِلَيْهِنَّ.

وَلَمْ تَلْبَثْ ظُنُونُهُنَّ أَنْ أَصْبَحَتْ يَقِينًا؛ فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُنَّ شَكٌّ فِي أَنَّهُ لَوْ نَجَا مِنَ الِاخْتِنَاقِ، لَمَا نَجَا مِنَ الْأَثْقَالِ الَّتِي هَوَتْ عَلَى جِسْمِهِ فَهَرَسَتْهُ.

وَسَادَ الصَّمْتُ بَعْدَ الْكَارِثَةِ، فَكَانَ أَشْبَهَ بِصَمْتِ الْأَمْوَاتِ. ثُمَّ خَمَدَ اللَّهَبُ فَجْأَةً، وَانْطَفَأَتِ النَّارُ، وَسَكَتَتِ الضَّوْضَاءُ، وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي قُلُوبِ الْجَمِيعِ؛ فَارْتَمَتْ «نَرْجِسُ» بَيْنَ ذِرَاعَيْ «مَاجِدَةَ»، وَاسْتَسْلَمَتْ — كِلْتَاهُمَا — لِأَحْكَامِ الْقَدَرِ، وَلَمْ تَجِدَا لَهُمَا مَلاذًا.[٣] تَعْتَصِمَانِ بِهِ غَيْرَ الصَّبْرِ عَلَى قَضَاءِ اللهِ، وَالرِّضَى بِمَا قَسَمَ.

وَمَرَّ بِهِمَا وَقْتٌ طَوِيلٌ، لَا تَجِدَانِ لَهُمَا حِيلَةً فِي دَفْعِ الْمَقْدُورِ.

ثُمَّ طَلَعَ الْفَجْرُ، وَلَاحَ ضَوْءُ النَّهَارِ، دُونَ أَنْ يَنْفُذَ إِلَى قُلُوبِهِنَّ شُعَاعٌ — وَلَوْ ضَئِيلًا — مِنَ الرَّجَاءِ.

وَكَانَتْ «حَلِيمَةُ» تَنْظُرُ هَذِهِ الْخَرَائِبَ وَالدُّخَانَ، فَلا تَمْلِكُ غَيْرَ الْحُزْنِ عَلَى مَصْرَعِ صَاحِبِهَا، وَالْإِعْجَابِ بِشَجَاعَتِهِ، وَالرَّجَاءِ فِي سَلَامَتِهِ. وَلَمْ يَنْقَطِعْ تَفْكِيرُهَا فِي ذَلِكَ الْفَتَى الشُّجَاعِ الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ الْوَاجِبِ، وَوَهَبَ حَيَاتَهُ عَنْ طَوَاعِيَةٍ وَاخْتِيَارٍ، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي أَنْ يُجَابِهَ الْمَوْتَ فِي ثَبَاتٍ وَشَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ؛ فَكَانَ مِثَالًا كَرِيمًا لِلِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ الْمُرُوءَةِ وَالْوَفَاءِ.

وَرَأَتْ «حَلِيمَةُ» مَا اسْتَوْلَى عَلَى «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِسَ» مِنَ الْوُجُومِ وَالْحَيْرَةِ، فَخَشِيَتْ أَنْ يَقْتُلَهُمَا الْحُزْنُ؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمَا — تَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِهَا — لَعَلَّهَا تَشْغَلُهُمَا عَمَّا تُكَابِدَانِ مِنْ أَلَمٍ، وَرَاحَتْ تُهَوِّنُ عَلَيْهِمَا، مُتَوَسِّلَةً إِلَيْهِمَا، أَنْ تَصْحَبَاهَا إِلَى الْمَرْجِ الْقَرِيبِ مِنَ الدَّسْكَرَةِ، لِتُرَوِّحَا عَنْ نَفْسِهِمَا قَلِيلًا.

---

[٢] خر: سقط.

[٣] ملاذًا: ملجأً.

فَصَمَتَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«نَرْجِسُ»، وَلَمْ تُجِيبَاهَا بِحَرْفٍ وَاحِدٍ.

فَأَعَادَتْ عَلَيْهِمَا الرَّجَاءَ، فَلَمْ تَسْمَعْ مِنْهُمَا جَوَابًا؛ فَحَاوَلَتْ أَنْ تُغْرِيَ «نَرْجِسَ» تَارَةً، وَ«مَاجِدَةَ» تَارَةً أُخْرَى، وَتُزَيِّنَ لِإِحْدَاهُمَا أَوْ كِلْتَيْهِمَا الِابْتِعَادَ عَنِ الدَّارِ الْمُحْتَرِقَةِ — حَيْثُ تَقْضِيَانِ اللَّيْلَةَ الْقَادِمَةَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ — فَلَمْ تَجِدْ مِنْهُمَا إِلَّا إِصْرَارًا عَلَى الْبَقَاءِ حَيْثُ هُمَا.

وَحَاوَلَتْ «حَلِيمَةُ» أَنْ تَشْغَلَهُمَا بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ؛ فَلَمْ تَجِدْ مِنْهُمَا أُذُنًا سَمِيعَةً.

وَأَخِيرًا ضَاقَتْ «نَرْجِسُ» بِحَدِيثِ «حَلِيمَةَ»، فَقَالَتْ: وَمَاذَا يَعْنِينَا مِنْ جَمَالِ الْجَوِّ وَتَأْمِينِ الْمَسْكَنِ بَعْدَ أَنْ أَنَاخَ بِنَا هَذَا الْخَطْبُ[٤] الْجَلِيلُ؟! وَأَيُّ جَمَالٍ لَنَا فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ فَقَدْنَا بَهْجَةَ الدُّنْيَا وَمَصْدَرَ جَمَالِ الْحَيَاةِ؟»

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «إِذَا بَقِينَا هُنَا — مُسْتَسْلِمَاتٍ لِلْحُزْنِ — هَلَكْنَا أَسًى وَجُوعًا دُونَ أَنْ يَعُودَ عَلَيْنَا ذَلِكَ بِفَائِدَةٍ.»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ» مُتَأَلِّمَةً: «وَمَا فَائِدَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ نَفْقِدَ أَعِزَّاءَنَا الْأَوْفِيَاءَ، الَّذِينَ لَا تَطِيبُ الْحَيَاةُ إِلَّا بِهِمْ؟

إِنِّي لَأُوثِرُ أَنْ يَفْتَرِسَنِيَ الْجُوعُ وَالْحُزْنُ، عَلَى أَنْ أَنْسَى وَاجِبَ الْوَفَاءِ لِذِكْرَى مُنْقِذِيَ الْكَرِيمِ، وَسِيرَتِهِ الْعَطِرَةِ.

وَلَنْ أَبْرَحَ هَذَا الْمَكَانَ الَّذِي رَأَيْتُ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» فِيهِ آخِرَ مَرَّةٍ حَيْثُ لَقِيَ مَصْرَعَهُ فِي سَبِيلِ حُنُوِّهِ وَوَفَائِهِ وَإِخْلَاصِهِ.»

فَهَزَّتْ «حَلِيمَةُ» كَتِفَيْهَا، مُتَظَاهِرَةً بِقِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ، وَقَالَتْ لـ «نَرْجِسَ»: «لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُجْدِي لَأَوْصَيْتُكِ بِهِ، وَلَكِنَّهُ عَبَثٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلا خَيْرَ فِيهِ.

وَخَيْرٌ لَكِ أَنْ تَتَّجِهِي إِلَى اللهِ بِالدُّعَاءِ لَهُ؛ فَإِنَّهُ كَرِيمٌ لَا يُخَيِّبُ دُعَاءَ مَنْ قَصَدَهُ. فَلا تَسْتَسْلِمِي لِلْيَأْسِ، وَادْعِي لَهُ بِالسَّلَامَةِ.»

وَلَمْ تَلْبَثْ «حَلِيمَةُ» أَنْ ذَكَرَتِ الْبَقَرَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي الزَّرِيبَةِ، فَحَمِدَتِ اللهَ عَلَى سَلامَتِهَا مِنَ الْحَرِيقِ.

وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تَجْرَعُ مِنْ لَبَنِهَا الْحَلِيبِ كُوبًا شَهِيًّا سَائِغَ الطَّعْمِ، وَقَدَّمَتْ إِلَى «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِس» كُوبَيْنِ مِنَ اللَّبَنِ؛ فَلَمْ تَقْبَلاهُمَا.

---

[٤] أناخ بنا هذا الخطب: حلَّت بنا هذه المصيبة.

وَالْتَفَتَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى «نَرْجِسَ» قَائِلَةً: «مَا رَأَيْتُ قَلْبَ إِنْسَانٍ يَخْفِقُ بِأَنْبَلِ الْعَوَاطِفِ مِثْلَ قَلْبِكِ أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ!

وَلَقَدْ كَانَتْ مَحَبَّةُ وَلَدِي لَكِ أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِنَفْسِهِ؛ فَلا عَجَبَ إِذَا لَمْ يَضَنَّ بِبَذْلِ حَيَاتِهِ فِي سَبِيلِ إِسْعَادِكِ.»

ثُمَّ أَقْبَلَتْ «مَاجِدَةُ» عَلَى «نَرْجِسَ» تَقُصُّ عَلَيْهَا مَا حَدَثَ لَهَا قَبْلَ مَوْلِدِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، مَعَ الضِّفْدِعِ الْمَاكِرَةِ أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ.

ثُمَّ خَتَمَتْ قِصَّتَهَا قَائِلَةً: «وَلَعَلَّكِ أَدْرَكْتِ أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ الْوَفِيَّةُ — مِنْ ثَنَايَا الْقِصَّةِ — أَنَّ حَظَّ وَلَدِي كَانَ مُرْتَبِطًا بِحَظِّكِ، أَنْتِ وَحْدَكِ دُونَ سِوَاكِ، وَأَنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا أَحَدٌ غَيْرُكِ — أَنْتِ وَحْدَكِ دُونَ سِواكِ — قَادِرٌ عَلَى إِنْقَاذِهِ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنْ مِحْنَةٍ، وَتَخْلِيصِهِ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ مِنْ سِحْرٍ.

فَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ أَلَّا يَخْرُجَ مِنْ شَقَائِهِ إِلَّا إِذَا أَتَاحَ لَهُ الْحَظُّ أَنْ يَظْفَرَ بِفَتَاةٍ مَوْفُورَةِ الْإِخْلاصِ، صَادِقَةِ الْوَفَاءِ، يَدْفَعُهَا إِعْجَابُهَا بِهِ وَمَحَبَّتُهَا لَهُ إِلَى الرِّضَى بِشَقَائِهَا فِي سَبِيلِ إِسْعَادِهِ؛ فَلا تَتَرَدَّدُ فِي أَنْ تُبَادِلَهُ حَظَّهَا بِحَظِّهِ، وَتَقْبَلَ أَنْ يَنْتَقِلَ التَّشْوِيهُ إِلَى جِسْمِهَا، بَعْدَ أَنْ حَتَمَتِ السَّاحِرَةُ أَلَّا يَسْتَرِدَّ جَمَالَهُ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُشَوِّهَ صُورَةَ مَنْ يَتَصَدَّى لِإِنْقَاذِهِ.»

ثُمَّ أَفْضَتْ إِلَى «نَرْجِسَ» بِمَا كَانَ يُظْهِرُهُ وَلَدُهَا مِنَ الْغَضَبِ وَالسُّخْطِ كُلَّمَا حَاوَلَتْ أَنْ تَسْتَأْذِنَهُ فِي الْإِفْضَاءِ إِلَى «نَرْجِسَ» بِهَذِهِ الْقِصَّةِ، لَعَلَّهَا تَعْمَلُ عَلَى شِفَائِهِ، وَتَخْلِيصِهِ مِنْ شَقَائِهِ. وَكَيْفَ كَانَ يَتَوَسَّلُ إِلَيْهَا ضَارِعًا أَنْ تَكُفَّ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي ذَلِكَ الِاقْتِرَاحِ، وَيَسْتَحْلِفُهَا — جَاهِدًا — أَلَّا تُفَاتِحَهُ مَرَّةً أُخْرَى.

وَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تُدْرِكَ مَا فَاضَ بِهِ قَلْبُ «نَرْجِسَ» مِنَ الْعَطْفِ وَالْإِعْجَابِ وَالْأَسَفِ حِينَ وَقَفَتْ — مِنْ قِصَّةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» — عَلَى هَذِهِ الدَّقَائِقِ.

وَأَدْرَكَتْ — مِنْ تَفْصِيلِ مَا سَمِعَتْهُ مِنَ الْحَقَائِقِ — مِقْدَارَ مَا تَفَرَّدَ بِهِ «الْأَمِيرُ الْمَسْحُورُ» مِنَ الْفِدَائِيَّةِ وَالْإِيثَارِ.

وَثَمَّةَ لَمْ تَتَمَالَكِ الْفَتَاةُ أَنْ تَعَضَّ بَنَانَهَا أَسَفًا عَلَى ضَيَاعِ الْفُرْصَةِ، وَتَمَنَّتْ لَوْ أَنَّهَا سَمِعَتْ هَذِهِ الْمَأْسَاةَ قَبْلَ الْآنَ، لِتُخَلِّصَهُ مِنَ السِّحْرِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

وَاسْتَأْنَفَتْ «مَاجِدَةُ» حَدِيثَهَا، قَائِلَةً: «لَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا — أَيَّتُهَا الْوَفِيَّةُ الْعَزِيزَةُ — إِلَّا وَاجِبٌ وَاحِدٌ، هُوَ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ رُفَاتِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ، وَنُخْرِجَهُ مِنْ بَيْنِ الْأَنْقَاضِ، ثُمَّ ...»

وَهُنَا غَلَبَهَا الْحُزْنُ عَلَى أَمْرِهَا، وَخَنَقَتْهَا الدُّمُوعُ؛ فَاحْتَبَسَ الْكَلَامُ فِي صَدْرِهَا، وَانْعَقَدَ لِسَانُهَا، وَعَجَزَتْ عَنْ مُوَاصَلَةِ حَدِيثِهَا؛ فَصَمَتَتْ «مَاجِدَةُ»، وَلَمْ تَزِدْ عَلَى مَا قَالَتْهُ شَيْئًا.

# فِي قَاعِ الْبِئْر

وَاتَّجَهَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«نَرْجِسُ» وَ«حَلِيمَةُ» إِلَى حِيطَانِ الدَّسْكَرَةِ؛ يَمْشِينَ فِي بُطْءٍ وَحَذَرٍ، وَيَتَحَسَّسْنَ مَوَاطِئَ أَقْدَامِهِنَّ — فِي كُلِّ خُطْوَةٍ مِنْ خُطُوَاتِهِنَّ — حَتَّى لَا يَتَعَثَّرْنَ فِيمَا تَرَكَهُ الْحَرِيقُ مِنْ خَرَائِبَ وَأَنْقَاضٍ.

وَأَقْبَلْنَ عَلَى الْعَمَلِ مُتَحَمِّسَاتٍ مُنْدَفِعَاتٍ إِلَيْهِ، يَرْفَعْنَ مَا تَرَاكَمَ — مِنَ الرَّدْمِ — غَيْرَ وَانِيَاتٍ.[1]

وَمَضَى عَلَيْهِنَّ يَوْمَانِ كَامِلانِ، لَمْ يُضِعْنَ مِنْهُمَا لَحْظَةً سُدًى.

وَقَدْ وُفِّقْنَ إِلَى رَفْعِ الْكَثِيرِ مِمَّا تَرَاكَمَ مِنَ الْأَنْقَاضِ الْمُحْتَرِقَةِ، وَبَذَلْنَ مِنَ الْجُهْدِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِعْنَ، وَبَقِيَتْ — بَعْدَ ذَلِكَ — طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْأَنْقَاضِ مُتَفَرِّقَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فَوَاصَلْنَ الْعَمَلَ فِي رَفْعِهَا.

وَلَمْ يَفُتَّ ذَلِكَ فِي أَعْضَادِهِنَّ،[2] بَلْ زَادَهُنَّ حَمَاسَةً عَلَى حَمَاسَتِهِنَّ، وَأَكْسَبَهُنَّ عَزِيمَةً إِلَى عَزِيمَتِهِنَّ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ الْكَلَالُ طَرِيقًا إِلَى قُلُوبِهِنَّ.

وَجَاءَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ دُونَ أَنْ يَعْثُرْنَ لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» عَلَى أَثَرٍ، بِرَغْمِ مَا بَذَلْنَهُ مِنْ جُهُودٍ مُضْنِيَةٍ. وَكُنَّ — عَلَى حَمَاسَتِهِنَّ فِي إِنْجَازِ الْعَمَلِ — مُنْتَبِهَاتٍ حَذِرَاتٍ، يَرْفَعْنَ الْأَنْقَاضَ قِطْعَةً بَعْدَ قِطْعَةٍ، وَحَجَرًا بَعْدَ حَجَرٍ، وَحُفْنَةً بَعْدَ حُفْنَةٍ، خَوْفًا عَلَى جِسْمِ فَقِيدِهِنَّ أَنْ تُمَزَّقَ أَوْصَالُهُ، أَوْ تُسْحَقَ أَعْضَاؤُهُ.

---

[1] وانيات: ضعيفات فاترات.

[2] لم يفت ذلك في أعضادهن: لم يضعفهن.

وَمَا زِلْنَ يُوَالِينَ جُهُودَهُنَّ حَتَّى تَمَّ لَهُنَّ كَشْفَ مَا بَقِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْأَنْقَاضِ.

وَمَا كِدْنَ يَنْتَهِينَ مِنْ رَفْعِ آخِرِ مَا تَنَاثَرَ مِنَ الْأَلْواحِ الْخَشَبِيَّةِ الَّتِي دَبَّ فِيهَا الِاحْتِرَاقُ، حَتَّى لَاحَتْ لـ «نَرْجِسَ» — وَالدَّهْشَةُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهَا — ثُغْرَةٌ عَلَى مَرْأَى الْعَيْنِ مِنْهَا.

فَأَسْرَعَتْ إِلَى الثُّغْرَةِ، تُزِيلُ مَا يُغَطِّيهَا وَيَسُدُّ فُوهَتَهَا مِنْ خَشَبٍ.

فَلَمَّا أَتَمَّتْ ذَلِكَ رَأَتْ أَمَامَهَا فُوهَةَ بِئْرٍ وَاسِعَةً، فَخَفَقَ قَلْبُهَا خَفْقًا شَدِيدًا، وَاضْطَرَبَتِ اضْطِرَابًا عَنِيفًا، وَدَبَّ إِلَى قَلْبِهَا أَمَلٌ مُبْهَمٌ غَامِضٌ بَهِيجٌ، لَا تَعْرِفُ لَهُ مَصْدَرًا، وَسَرَى فِي عُرُوقِهَا رُوحٌ مِنَ الرَّجَاءِ.

وَلَمْ تَتَمَالَكْ «نَرْجِسُ» أَنْ تَهْتِفَ — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ — بِاسْمِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، فِي صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مُتَعَثِّرٍ.

وَلَا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْفَرَحِ وَالِارْتِبَاكِ، حِينَ سَمِعَتْ صَوْتَهُ يُجِيبُ نِدَاءَهَا، وَيَدْعُوهَا مُبْتَهِجًا بِسَمَاعِ صَوْتِهَا، وَيَهْتِفُ بِاسْمِهَا مُنَادِيًا: «نَرْجِسُ، عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ»! هَا أَنَا ذَا قَدْ كُتِبَتْ لِيَ النَّجَاةُ، وَبَقِيتُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ!»

أَيُّ صَوْتٍ سَاحِرٍ لَبَّاهَا![3] وَأَيُّ نِدَاءٍ حَبِيبٍ تَسْمَعُهُ أُذُنَاهَا!

أَتُرَاهَا حَالِمَةً أَمْ يَقْظَانَةً؟ أَيُّ سَعَادَةٍ مُفَاجِئَةٍ فَاضَتْ عَلَى قَلْبِهَا، فَانْهَارَتْ أَمَامَهَا أَعْصَابُهَا، وَأَسْلَمَتْهَا إِلَى الذُّهُولِ؟!

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنِ احْتَوَاهَا الْإِغْمَاءُ …

وَكَانَتْ وَاقِفَةً عَلَى حَافَةِ الْبِئْرِ — كَمَا عَلِمْتَ — فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ هَوَتْ إِلَى قَاعِهَا. وَكَانَ الْهَلَاكُ لَا مَحَالَةَ مِنْ نَصِيبِهَا، لَوْ لَمْ تَتَلَقَّفْهَا[4] أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ — وَهِيَ هَاوِيَةٌ إِلَى أَعْمَاقِ الْبِئْرِ — فَتُنْقِذَ رَأْسَهَا مِنْ أَنْ يَتَحَطَّمَ عَلَى حَائِطِهَا الصَّخْرِيِّ، وَتَقِيَ أَعْضَاءَهَا أَنْ تَتَهَشَّمَ فِي غَوْرِهَا الْقَصِيِّ.[5]

---

[3] لباها: أجابها.

[4] لو لم تتلقفها: لو لم تتناولها بسرعة.

[5] غورها القصي: عمقها البعيد.

وَكَمْ لِأَمِيرَةِ التَّوَابِعِ مِنْ صَنَائِعَ مَأْثُورَةٍ، وَأَيَادٍ مَشْكُورَةٍ! وَهَذِهِ بَعْضُ صَنَائِعِهَا وَمَسَاعِيهَا، وَإِحْدَى مَآثِرِهَا وَأَيَادِيهَا.

وَهَكَذَا خَفَّتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ لِإِنْقَاذِهَا، فَتَلَقَّفَتْهَا وَهِيَ هَابِطَةٌ إِلَى الْبِئْرِ، ثُمَّ حَمَلَتْهَا مُتَرَفِّقَةً مُتَلَطِّفَةً، فَأَجْلَسَتْهَا بِجِوَارِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

وَسُرْعَانَ مَا اسْتَعَادَتْ «نَرْجِسُ» صَوَابَهَا حِينَ سَمِعَتْ صَوْتَ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» يَهْتِفُ بِاسْمِهَا،[٦] وَقَدْ طَغَى عَلَيْهِ الْفَرَحُ بِلِقَائِهَا.

وَلَمْ يَكُنْ كِلَاهُمَا يَحْلُمُ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّعَادَةِ الْمُفَاجِئَةِ؛ فَكَادَ فَرَحُهُمَا بِاللِّقَاءِ يُذْهِلُهُمَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَنَسِيَا كُلَّ مَا أَلَمَّ بِهِمَا مِنْ كَوَارِثَ مُرَوِّعَاتٍ، وَرَاحَا يَتَبَادَلَانِ التَّهْنِئَاتِ الصَّادِقَاتِ، وَقَدْ غَمَرَتِ الْبَهْجَةُ قَلْبَيْهِمَا، بِاجْتِمَاعِ مَا تَشَتَّتَ مِنْ شَمْلِهِمَا، بَعْدَ أَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِمَا الشَّقَاءُ، وَأَيْأَسَهُمَا مِنَ اللِّقَاءِ. وَلَمْ يُقَصِّرَا فِي شُكْرِ اللهِ عَلَى مَا هَيَّأَهُ لَهُمَا مِنْ أَلْطَافٍ خَفِيَّةٍ، تَمَّتْ عَلَى يَدِ الْجِنِّيَّةِ، بَعْدَ أَنْ سَخَّرَهَا اللهُ لِإِنْقَاذِهِمَا، وَالتَّفَانِي فِي الْبِرِّ بِهِمَا، وَالْعَطْفِ عَلَيْهِمَا.

أَمَّا «حَلِيمَةُ» فَكَانَ لَهَا شَأْنٌ آخَرُ يَخْتَلِفُ عَنْ شَأْنَيْهِمَا؛ فَقَدْ هَالَهَا أَنْ تَتَلَفَّتَ فَلا تَرَى «نَرْجِسَ» أَمَامَهَا! فَكَيْفَ اسْتَخْفَتْ «نَرْجِسُ» فَجْأَةً، وَغَابَتْ بَعْدَ لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ؟

يَا لَلْعَجَبِ الْعَاجِبِ! كَيْفَ تَوَارَتْ «نَرْجِسُ» عَنْ عَيْنَيْهَا فِي مِثْلِ لَمْحَةِ الطَّرْفِ، أَوْ وَمْضَةِ الْبَرْقِ؟

ذَلِكَ مَا حَيَّرَهَا، وَشَتَّتَ خَاطِرَهَا.

وَثَمَّةَ انْدَفَعَتْ «حَلِيمَةُ» مُضْطَرِبَةً مُوَلَّهَةً، تَبْحَثُ عَنْ «نَرْجِسَ» فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلا تَعْثُرُ لَهَا عَلَى أَثَرٍ.

ثُمَّ حَانَتْ مِنْهَا الْتِفَاتَةٌ إِلَى أَعْمَاقِ الْبِئْرِ، فَرَأَتْ ثَوْبَ «نَرْجِسَ» الْأَبْيَضَ يَخْفِقُ[٧] فِي قَرَارِهَا، فَحَسِبَتْهَا قَدْ تَرَدَّتْ[٨] فِي الْبِئْرِ، فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ تَصْرُخَ مَرْعُوبَةً خَائِفَةً، تَدْعُو إِلَيْهَا «مَاجِدَةَ»، مُسْتَغِيثَةً بِهَا.

---

[٦] يهتف باسمها: يصيح بها.

[٧] يخفق: يتحرك.

[٨] تردت: سقطت.

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ «حَلِيمَةَ» حِينَ سَمِعَتْ «نَرْجِسَ» تُجِيبُ نِدَاءَهَا وَتُطَمْئِنُهَا، فِي صَوْتٍ جَلِيٍّ وَاضِحِ النَّبَرَاتِ. ثُمَّ لَا تَسَلْ عَنِ ابْتِهَاجِهَا حِينَ سَمِعَتِ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، يُنَادِيهَا مِنْ قَاعِ الْبِئْرِ الْعَمِيقَةِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وَهُوَ يَقُولُ: «كُفِّي عَنْ صِيَاحِكِ يَا «حَلِيمَةُ»، وَخَفِّضِي مِنْ صَوْتِكِ أَيَّتُهَا الْوَفِيَّةُ الْكَرِيمَةُ، حَتَّى لَا تُزْعِجِي وَالِدَتِيَ الْعَزِيزَةَ.

فَنَحْنُ — وَالْحَمْدُ للهِ — عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، وَأَهْنَأِ بَالٍ، وَلَيْسَ يَعُوزُنَا شَيْءٌ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ.»

أَيُّ حُلْمٍ سَعِيدٍ تَحَقَّقَ! لَقَدْ فَاضَ قَلْبُهَا فَرَحًا، فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ تَصِيحَ بـ «مَاجِدَةَ» فَرْحَانَةً مُهَنِّئَةً: «يَا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ شَامِلَةٍ! هَا إِنَّهُمَا يَا مَوْلاتِي سَالِمَانِ مُعَافَيَانِ. هَلُمِّي إِلَيْهِمَا يَا «مَاجِدَةُ» وَلا تُضَيِّعِي مِنْ وَقْتِكِ لَحْظَةً وَاحِدَةً.

هَلُمِّي، وَلَوِ اسْتَطَعْتِ أَنْ تَطِيرِي لَكَانَ ذَلِكِ أَوْلَى بِكِ وَأَجْدَرَ.

وَا فَرْحَتَاهُ! إِنَّهُمَا هُنَا فِي قَرَارِ الْبِئْرِ، وَهُمَا — بِحَمْدِ اللهِ — سَالِمَانِ هَانِئَانِ، تَغْمُرُهُمَا الْبَهْجَةُ وَتُظَلِّلُهُمَا، وَتَحُوطُهُمَا السَّعَادَةُ وَتُرَفْرِفُ عَلَيْهِمَا!»

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» مُمْتَقَعَةَ الْوَجْهِ، شَارِدَةَ اللُّبِّ، ذَاهِلَةَ الْعَقْلِ، لِشِدَّةِ حُزْنِهَا عَلَى وَلَدِهَا الَّذِي فَقَدَتْهُ وَيَئِسَتْ مِنْ عَوْدَتِهِ؛ فَزَادَتْهَا الصَّرْخَةُ الْأُولَى — الَّتِي انْبَعَثَتْ مِنْ «حَلِيمَةَ» — يَأْسًا عَلَى يَأْسٍ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهَا مُتَرَنِّحَةً مُتَعَثِّرَةَ الْخُطَى مِنْ فَرْطِ مَا كَابَدَتْ مِنْ أَلَمٍ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ صَرْخَةَ الْفَرَحِ الثَّانِيَةَ اخْتَلَطَ عَلَيْهَا الْأَمْرُ، وَلَمْ تَتَبَيَّنْ مَا تَحْمِلُهُ أَلْفَاظُهَا مِنْ صَادِقِ الْبُشْرَى؛ فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ سَقَطَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، جَاثِيَةً بِالْقُرْبِ مِنْ «حَلِيمَةَ» بَعْدَ أَنْ خَذَلَتْهَا قُوَاهَا فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى النُّهُوضِ، وَزَايَلَهَا التَّمْيِيزُ، فَأَعْجَزَهَا عَنْ فَهْمِ مَا تَسْمَعُ.

وَهَكَذَا اخْتَلَطَ — فِي أُذُنِهَا — صَوْتُ النَّعِيِّ[٩] بِصَوْتِ الْبَشِيرِ، واشْتَبَهَ جَرْسَاهُمَا،[١٠] فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ حَدَثَ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهَا عَلَى بَالٍ حِينَ سَمِعَتْ أُذُنَاهَا صَوْتَ وَلَدِهَا الْحَبِيبِ!

[٩] النعي: الناعي الذى يأتي بخبر الموت.

[١٠] جرساهما: صوتاهما.

هُنَا تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ، وَحَلَّ الْيَقِينُ مَحَلَّ الشَّكِّ، وَزَالَ اللَّبْسُ[١١] وَالْغُمُوضُ، بَعْدَ أَنْ أَيْقَنَتْ أَنَّهُ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، مُمَتَّعًا بِالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

وَزَادَهَا اطْمِئْنَانًا عَلَيْهِ أَنْ سَمِعَتْهُ يَقُولُ لَهَا فِي حُنُوِّهِ الْمَأْلُوفِ: «قَرِّي عَيْنًا[١٢] يَا أُمَّاهُ، فَقَدْ كُتِبَتْ لِوَلَدِكِ النَّجَاةُ، وَلا يَزَالُ — كَمَا تَرَيْنَ — عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.»

وَلَمْ تَكَدْ «مَاجِدَة» تَتَبَيَّنُ صَوْتَ وَلَدِهَا حَتَّى اسْتَرَدَّتْ قُوَاهَا، وَعَاوَدَهَا نَشَاطُهَا.

وَكَادَتْ — لِفَرْطِ سُرُورِهَا، وابْتِهَاجِهَا بِالْعُثُورِ عَلَى وَلَدِهَا — تَتَرَدَّى[١٣] فِي قَاعِ الْبِئْرِ لَوْ لَمْ تُنَبِّهْهَا «حَلِيمَةُ» إِلَى مَا عَرَّضَتْ لَهُ نَفْسَهَا مِنْ خَطَرٍ دَاهِمٍ.

وَأَسْرَعَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى السُّلَّمِ لِتُحْضِرَهُ، وَغَابَتْ لَحْظَةً يَسِيرَةً، حَسِبَتْهَا «مَاجِدَةُ» أَيَّامًا طِوَالًا، لِشِدَّةِ مَا كَانَ يُسَاوِرُهَا مِنَ الْقَلَقِ عَلَى حَيَاةِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ».

وَكَانَ الْفَرَحُ قَدْ طَغَى عَلَى «حَلِيمَةَ» أَيْضًا، فَكَادَ يُذْهِلُهَا عَمَّا تَصْنَعُهُ؛ فَعَادَتْ وَلَيْسَ مَعَهَا سُلَّمٌ، بَلْ حَبْلٌ وَمِذْرَاةٌ وَكُرْسِيٌّ.

ثُمَّ شَرَدَ فِكْرُهَا وَدَفَعَهَا إِلَى الْهَذَيَانِ؛ فَاقْتَرَحَتْ أَنْ تُنْزِلَ الْبَقَرَةَ إِلَى قَاعِ الْبِئْرِ، لِيَتَسَنَّى لـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» أَنْ يَشْرَبَ مِنْ ضَرْعِهَا[١٤] لَبَنًا سَائِغَ الطَّعْمِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا رَشَادُهَا، فَأَحْضَرَتِ السُّلَّمَ — آخِرَ الْأَمْرِ — وَكَانَ مِنْهَا عَلَى مَدِّ الذِّرَاعِ، وَلَكِنَّ مَا غَمَرَ قَلْبَهَا مِنَ الْفَرَحِ قَدْ أَذْهَلَهَا عَمَّا يُحِيطُ بِهَا.

وَفِي خِلالِ الْوَقْتِ الَّذِي ذَهَبَتْ فِيهِ «حَلِيمَةُ» لِتُحْضِرَ السُّلَّمَ، كَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَ«نَرْجِسُ» لَا يَكُفَّانِ عَنِ الْكَلامِ لَحْظَةً. وَقَدْ شَغَلَهُمَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا كَانَا يَنْعَمَانِ بِهِ مِنْ حَدِيثٍ فِيمَا يَسْتَقْبِلانِهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَشِيكَةٍ؛[١٥] فَرَاحَ كِلاهُمَا يُفْضِي إِلَى صَاحِبِهِ بِمَا يَعْتَلِجُ فِي صَدْرِهِ مِنْ آمَالٍ وَأَمَانِيَّ، وَمُسْتَقْبَلٍ قَرِيبٍ حَافِلٍ بِالسَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ.

---

[١١] زال اللبس: زال الشك.

[١٢] قري عينًا: اطمئني.

[١٣] تتردى: تسقط.

[١٤] ضرعها: ثديها.

[١٥] وشيكة: سريعة.

# مُحَاوَرَاتٌ

وَقَدْ حَدَّثَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» — فِيمَا حَدَّثَهَا بِهِ — عَمَّا لَقِيَهُ فِي الْحَادِثِ الْأَخِيرِ، مِنْ عَجِيبِ الْمَقَادِيرِ، وَقَالَ لَهَا فِيمَا قَالَ: «لَقَدِ اقْتَحَمْتُ اللَّهَبَ دُونَ أَنْ أُصَابَ بِسُوءٍ، وَنَجَوْتُ مِنَ النَّارِ بِسَلامٍ، وَالْحَمْدُ للهِ. وَمَا زِلْتُ أَتَعَثَّرُ فِي الظَّلَامِ الْحَالِكِ — بَيْنَ خُطْوَةٍ وَأُخْرَى — لَعَلِّي أَهْتَدِي إِلَى مَوْضِعِ الصِّوَانِ، الَّذِي حَدَّثَتْنِي أُمِّي أَنَّ سَعَادَتَكِ رَهْنٌ بِهِ، وَأَنَّ هَنَاءَتَكِ لَا تَكْمُلُ بِغَيْرِهِ.

ثُمَّ شَعَرْتُ بِالدُّخَانِ يَكَادُ يُعْمِي نَاظِرِي، وَيُزْهِقُ رُوحِي، وَشَعَرْتُ كَأَنَّنِي عَلَى وَشْكِ أَنْ أَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ فَرْطِ الْإِعْيَاءِ.[1] وَخَشِيتُ أَنْ يُسْلِمَنِي هَوْلُ مَا أُعَانِيهِ إِلَى الْإِغْمَاءِ لَوْلا أَنَّ يَدًا رَقِيقَةً رَبَّتَتْ كَتِفِي، وَمَسَحَتْ بِرَأْسِي، وَأَمْسَكَتْ بِشَعْرِي؛ فَحَالَتْ — بِذَلِكِ — دُونَ سُقُوطِي عَلَى الْأَرْضِ.

وَشَعَرْتُ أَنَّ قُوَّةً عَظِيمَةً قَاهِرَةً تَرْفَعُنِي، ثُمَّ تَهْبِطُ بِي مُتَرَفِّقَةً إِلَى قَاعِ الْبِئْرِ، بَعِيدًا عَنِ الدُّخَانِ الْخَانِقِ وَاللَّهَبِ الْمُحْرِقِ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّهَا أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ.

وَغَابَتْ عَنِّي لَحْظَةً، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيَّ وَمَعَهَا كُلُّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَفِرَاشٍ.

وَكَانَ أَخْشَى مَا أَخْشَاهُ — حِينَ حَلَلْتُ الْبِئْرَ — أَنْ يُبَلِّلَنِي مَاؤُهَا، أَوْ تُؤْذِيَنِي رُطُوبَتُهَا. وَلَكِنَّ مَخَاوِفِي لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَبَدَّدَتْ حِينَ رَأَيْتُ قَاعَهَا جَافًّا، لَا أَثَرَ لِلرُّطُوبَةِ فِيهِ، وَرَأَيْتُ جَوَّهَا — كَمَا تَرَيْنَهُ — غَايَةً فِي الِاعْتِدَالِ.

[1] فرط الإعياء: كثرة التعب.



وَقَدْ أَجْلَسَتْنِي أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ عَلَى هَذَا الْبِسَاطِ الْوَثِيرِ، الَّذِي تَشْرَكِينَنِي فِي الْجُلُوسِ عَلَيْهِ الْآنَ، وَأَصْبَحْتُ هُنَا لَا يَعُوزُنِي شَيْءٌ[٢] إِلَّا أَنْ أَطْمَئِنَّ عَلَيْكُنَّ، وَأَسْعَدَ بِرُؤْيَتِكُنَّ. وَهَا أَنْتِ ذِي تَرَيْنَ فِي الْبِئْرِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الضَّوْءِ وَالْهَوَاءِ، وَفَوْقَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَابِ وَالْغِذَاءِ!

عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَمَسَّ الطَّعَامَ مُنْذُ حَلَلْتُ الْبِئْرَ، وَاكْتَفَيْتُ بِبِضْعِ جُرَعٍ مِمَّا أَحْضَرَتْهُ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ مِنْ عَصِيرِ الْفَوَاكِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُ عَلَيَّ هَنَائِي وَسَعَادَتِي، إِلَّا مَا كُنْتُ أَتَمَثَّلُهُ مِنْ جَزَعِكُنَّ عَلَيَّ، وَتَأَلُّمِكُنَّ لِفِقْدَانِي.

وَكُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّكُنَّ قَدْ قَطَعْتُنَّ الْأَمَلَ فِي عَوْدَتِي؛ فَتَمَلَّكَ الْحُزْنُ أَفْئِدَتَكُنَّ.

[٢] لا يعوزني شيء: لا أحتاج إلى شيء.

وَكَانَ هَذَا الْخَاطِرُ يَمْلَأُ قَلْبِي حُزْنًا عَلَيْكُنَّ، وَلَا أَتَمَالَكُ أَنْ أَجْزَعَ لَهُ أَشَدَّ الْجَزَعِ.

وَحَاوَلْتُ أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى وَسِيلَةٍ تُمَكِّنُنِي مِنَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْكُنَّ، بِمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ رَاحَةٍ وَهُدُوءِ بَالٍ؛ فَلَمْ أَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ أَنْ دَفَعَتْهَا الشَّفَقَةُ عَلَيَّ؛ فَتَمَثَّلَتْ أَمَامِي فِي صُورَتِكِ — يَا عَزِيزَتِي «نَرْجِسُ». وَقَدْ أَتْقَنَتْ تَمْثِيلَهَا؛ فَلَمْ أَشُكَّ فِي أَنَّهَا أَنْتِ.

وَلَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ أَنْدَفِعَ إِلَيْهَا فَرْحَانَ بِلِقَائِهَا، شَاكِرًا لَهَا عَطْفَهَا وَحُنُوَّهَا.

وَلَكِنْ شَدَّ مَا خَابَ أَمَلِي وَعَظُمَتْ فَجِيعَتِي حِينَ تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، فَلَمْ أَجِدْ أَمَامِي غَيْرَ طَيْفٍ شَاحِبٍ وَشَبَحٍ غَامِضٍ مِنَ الْبُخَارِ، لَمْ يَكَدْ يَتَمَثَّلُ لِعَيْنِي فِي الْفَضَاءِ — حَتَّى انْقَشَعَ؛[٣] فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجْتَلِيَهُ كَمَا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْمُسَهُ.

وَثَمَّةَ قَالَتْ لِي أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ وَهِيَ تَضْحَكُ: «لَقَدْ تَوَهَّمْتَنِي «نَرْجِسَ» يَا عَزِيزِي «الدُّبَّ الصَّغِيرَ»، وَمَا أَنَا عَلَى الْحَقِيقَةِ بِ «نَرْجِسَ»، وَلَكِنَّنِى آثَرْتُ أَنْ أَتَمَثَّلَ لَكَ فِي صُورَتِهَا، وَأَظْهَرَ لَكَ فِي هَيْئَتِهَا؛ لِأُرَفِّهَ عَنْكَ بِلِقَائِهَا، وَأُونِسَكَ بِرُؤْيَتِهَا، فَلا تَحْزَنْ يَا وَلَدِي وَلا تَبْتَئِسْ؛ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهَا غَدًا. أَلَيْسَ الْغَدُ بِقَرِيبٍ؟»

فَسَأَلْتُهَا مُتَلَهِّفًا: «كَيْفَ حَالُ نَرْجِسَ؟»

فَقَالَتْ لِي: «إِنَّ «نَرْجِسَ» شَدِيدَةُ الْحُزْنِ عَلَيْكَ، وَهِيَ لَا تَزَالُ — إِلَى الْآنَ — مُسْتَسْلِمَةً لِلْبُكَاءِ؛ لِأَنَّهَا تَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ فِي عِدَادِ الْهَالِكِينَ!»

فَسَأَلْتُهَا: «وَمَتَى أَرَاهَا؟»

فَقَالَتْ لِي بَاسِمَةً: «غَدًا تَرَاهَا، وَتَنْعَمُ بِلُقْيَاهَا ... وَسَيَتِمُّ لَكَ ذَلِكَ فِي قَاعِ هَذِهِ الْبِئْرِ، حَيْثُ تَصْحَبُكَ فِي خُرُوجِكَ مِنْهَا.

وَسَتَظْفَرُ بِذَلِكَ بِأَسْرَعَ مِمَّا تَظُنُّ؛ فَتَنْعَمُ بِلِقَاءِ أُمِّكَ، كَمَا تَنْعَمُ أُمُّكَ بِلِقَائِكَ بَعْدَ أَنْ حَرَمَهَا حُزْنُهَا عَلَيْكَ كُلَّ مَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ بَهْجَةٍ وَنُورٍ، وَعَشِيَتْ عَيْنَاهَا مِنْ طُولِ الْحُزْنِ عَلَيْكَ؛ فَلَمْ تُبْصِرْ جَمَالَ السَّمَاءِ وَمَفَاتِنَ الطَّبِيعَةِ.

وَسَيَنْقَلِبُ يَأْسُهَا — بَعْدَ أَنْ تَرَاكَ — فَرَحًا وَرَجَاءً، وَتَتَبَدَّلُ أَمَامَهَا الدُّنْيَا — بِلُقْيَاكَ — فَتُصْبِحُ جَنَّةً، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ — بِفِقْدَانِكَ — جَحِيمًا.

---

[٣] انقشع: زال وتبدد.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ يَنْقَضِيَ عَلَى خُرُوجِكَ مِنْ هَذِهِ الْبِئْرِ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى تَعُودَ إِلَيْهَا ثانِيَةً؛ وَلَنْ تَلْبَثَ فِي قَاعِهَا غَيْرَ لَحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ، رَيْثَمَا تُخْرِجُ مِنْهَا كَنْزَ سَعَادَتِكَ الْمَخْبُوءَ فِي قَرَارِ الْبِئْرِ.»

فَسَأَلْتُهَا مُتَعَجِّبًا: «تَقُولِينَ: كَنْزَ سَعَادَتِي؟!

وَمَا أَحْسَبُكِ تَجْهَلِينَ أَنَّ سَعَادَتِي لَا تَكُونُ إِلَّا إِذَا اكْتَمَلَتْ لِأُمِّي وَلـ «نَرْجِسَ» وَلـ «حَلِيمَةَ» جَمِيعًا!»

فَقَالَتْ لِي أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ: «كُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِمَّا أُحَدِّثُكَ بِهِ، وَلا تَرْتَبْ فِيمَا أَقُولُ،[٤] وَأَيْقِنْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْبِئْرِ سَعَادَتَكَ، وَسَعَادَةَ «نَرْجِسَ»، وَمَنْ يَلُوذُ بِكُمَا جَمِيعًا.

وَسَتُرِيكَ الْأَيَّامُ صِدْقَ مَا تَسْمَعُ.»

فَقُلْتُ لَهَا: «إِنَّ سَعَادَةَ «نَرْجِسَ» — يَا مَوْلاتِي — هِيَ أَنْ تَعِيشَ مَعِي وَمَعَ أُمِّي، كَمَا أَنَّ سَعَادَةَ «حَلِيمَةَ» أَنْ تَعِيشَ مَعَنَا».»

وَلَمَّا بَلَغَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مِنْ حَدِيثِهِ هَذَا الْمَبْلَغَ، قَاطَعَتْهُ «نَرْجِسُ» قَائِلَةً: «صَدَقْتَ أَيُّهَا الْوَفِيُّ الْكَرِيمُ. وَمَا أَحْسَنَ هَذَا الْجَوَابَ! فَكَيْفَ كَانَ جَوابُ الْجِنِّيَّةِ الْكَرِيمَةِ أَيُّهَا الشَّقِيقُ الْعَزِيزُ؟»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «لَقَدْ حَدَّثَتْنِي الْجِنِّيَّةُ أَنَّهَا أَعْرَفُ بِمَا أَقُولُ وَأَخْبَرُ، وَأَنَّنِي سَأَشْعُرُ بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا لَا يَزَالُ يَنْقُصُنِي، وَأَنَّ سَعَادَتِي لَنْ تَتِمَّ بِغَيْرِهِ، وَأَنَّنِي لَنْ أَظْفَرَ بِهِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْبِئْرِ.

ثُمَّ وَدَّعَتْنِي أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ، فِي خِتَامِ حَدِيثِهَا قَائِلَةً: «تَحِيَّتِي إِلَيْكَ، وَإِلَى أُمِّكَ، وَإِلَى «نَرْجِسَ» وَ«حَلِيمَةَ» ... وَإِلَى لِقَاءٍ قَرِيبٍ.

وَآمُلُ أَنْ يَكُونَ اجْتِمَاعُنَا التَّالِي، جَالِبًا لَكَ السَّعَادَةَ وَالْجَمَالَ، كَمَا آمُلُ أَلَّا تَنْزَعِجَ مِنَ الظَّفَرِ بِهَذِهِ السَّعَادَةِ، وَأَلَّا تَنْدَمَ عَلَيْهَا.

عَلَى أَنَّ النَّدَمَ لَنْ يُجْدِيَكَ،[٥] عَلَى أَيِّ حَالٍ!

وَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَرْضَى بِمَا قَسَمَهُ اللهُ لَكَ؛ فَإِنَّ قَضَاءَ اللهِ لَا بُدَّ وَاقِعٌ، وَلَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِي رَدِّهِ أَوْ تَحْوِيلِهِ.

---

[٤] لا ترتب فيما أقول: لا تشك فيما أقول.

[٥] لن يجديك: لن ينفعك.

وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ إِلَّا الْخُضُوعُ وَالْإِذْعَانُ لِأَحْكَامِ الْقَدَرِ.
وَالْآنَ، وَدَاعًا»!»

وَخَتَمَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» حَدِيثَهُ قَائِلًا: «ثُمَّ طَارَتِ الْقُنْبَرَةُ مُبْتَهِجَةً، بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ وَرَاءَهَا رَائِحَةً زَكِيَّةً، وَخَلَّفَتْ فِي قَلْبِي رَجَاءً نَافِعًا، وَبَعَثَتْ الِاطْمِئْنَانَ وَالْهُدُوءَ إِلَى نَفْسِي؛ فَزَالَ عَنِّي مَا كَانَ يَنْتَابُنِي مِنَ الْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ، وَفَارَقَنِي مَا كَانَ مُسْتَوْلِيًا عَلَيَّ مِنَ الْقَلَقِ وَالْهَمِّ.»

وَهُنَا أَدْرَكَتْ «نَرْجِسُ» لِمَاذَا خَشِيَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ أَنْ يَشْقَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ سَعَادَةٍ وَشِيكَةٍ، حِينَ يَلْقَاهَا فِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ.

وَلَمْ تَغِبْ عَنْهَا حَقِيقَةُ مَا تَعْنِيهِ «لُؤْلُؤَةُ»، بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ فَقَدْ عَقَدَتْ «نَرْجِسُ» عَزْمَهَا عَلَى إِنْجَازِ وَعْدِهَا، مُنْذُ أَفْضَتْ لَهَا «مَاجِدَةُ» بِالْوَسِيلَةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي تُخَلِّصُ «الْأَمِيرَ الْمَسْحُورَ» مِنَ الشَّقَاءِ، وَبَيَّنَتْ لَهَا طَرِيقَ الْفِدَاءِ، وَهُوَ عَلَيْهَا وَاجِبٌ مَحْتُومُ الْأَدَاءِ، يَدْعُوهَا إِلَى تَحْقِيقِهِ مَا تُضْمِرُهُ لَهُ مِنْ صَادِقِ الْوَفَاءِ وَمَوْفُورِ الْمَحَبَّةِ.

وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهَا فَرَحًا حِينَ طَافَ بِرَأْسِهَا ذَلِكَ الْأَمَلُ الْحُلْوُ الْمَنْشُودُ، وَضَاعَفَ مِنْ فَرَحِهَا أَنَّهَا رَأَتْ نَفْسَهَا قَادِرَةً عَلَى تَحْقِيقِهِ.

وَلَمَّا أَتَمَّ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» حَدِيثَهُ، سَمِعَا صَوْتَ «حَلِيمَةَ» يَصِيحُ مُدَوِّيًا، وَيُهِيبُ بِهِمَا مُجَلْجِلًا: «هَا هُوَ ذَا السُّلَّمُ — أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ الْكَرِيمَانِ — سَأُنْزِلُهُ إِلَيْكُمَا لِتَصْعَدَا عَلَيْهِ؛ فَضَاعِفَا مِنْ يَقَظَتِكُمَا وَانْتِبَاهِكُمَا حَتَّى لَا يَسْقُطَ عَلَى رَأْسِ أَحَدِكُمَا أَوْ كِلَيْكُمَا.»

فَقَالَا لَهَا مَسْرُورَيْنِ: «أَنْزِلِي السُّلَّمَ مَشْكُورَةً مُتَفَضِّلَةً، وَلَا تَخْشَيْ عَلَيْنَا شَيْئًا.»

فَقَالَتْ لَهُمَا «حَلِيمَةُ» ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً: «لَقَدْ فَهِمْتُ مِمَّا سَمِعْتُهُ — مِنْ حِوَارِكُمَا — أَنَّ لَدَيْكُمَا شَيْئًا مِنَ الزَّادِ، فَلَا تَنْسَيَا أَنْ تَصْحَبَاهُ مَعَكُمَا؛ فَقَدْ بَرَّحَ بِنَا التَّعَبُ، وَكِدْنَا نَهْلِكُ مِنَ الْجُوعِ.»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ تَجُوعَا أَنْتِ وَأُمِّي، وَنَشْبَعَ نَحْنُ.»

فَقَالَتْ لَهُ ضَاحِكَةً: «أَحَبِبْ إِلَيْنَا أَنْ تَشْبَعَا وَنَجُوعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْكُمَا.

وَقَدْ مَضَى عَلَيَّ يَوْمَانِ لَمْ أَطْعَمْ — فِي خِلَالِهِمَا — غَيْرَ اللَّبَنِ مَمْزُوجًا بِالتُّرَابِ وَالشَّقَاءِ؛ أَمَّا أُمُّكَ وَ«نَرْجِسُ» فَلَمْ تَظْفَرَا مِنَ الْقُوتِ بِغَيْرِ الدُّمُوعِ وَالْهَوَاءِ!»

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» وَ«الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَصْعَدَانِ السُّلَّمَ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ. وَقَدْ أَمْسَكَتْ بِهِ «حَلِيمَةُ»، وَهِيَ تَخْشَى أَنْ يَكْسِرَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِجِسْمِهِ الثَّقِيلِ، فَلا تَفْتَأُ تُوصِيهِ — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — أَنْ يَتَرَفَّقَ فِي صُعُودِهِ، حَتَّى لَا يُحَطِّمَ السُّلَّمَ بِثِقْلِهِ.

وَمَا كَادَتْ «حَلِيمَةُ» تَرَاهُمَا يَقْتَرِبَانِ مِنْ فُوهَةِ الْبِئْرِ حَتَّى صَاحَتْ بِـ «مَاجِدَةَ» تَسْتَدْعِيهَا مُبْتَهِجَةً فَرْحَانَةً وَهِيَ تَقُولُ: «سَيِّدَتِي، سَيِّدَتِي، هَا هُمَا ذَا نَاجِيَانِ! هَذَا رَأْسُ الْفَتَى، وَهَذَا رَأْسُ الْفَتَاةِ، كِلاهُمَا يُطِلُّ مِنْ فُوهَةِ الْبِئْرِ.

هَلُمَّا فَاصْعَدَا سَالِمَيْنِ أَيُّهَا الْمَاجِدَانِ!

لَقَدْ بَلَغْتُمَا ذِرْوَةَ السُّلَّمِ، فَهَنِيئًا لِـ «مَاجِدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» مَا ظَفِرْتُمَا بِهِ مِنْ سَلامَةٍ.»

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» — قَبْلَ ذَلِكَ — وَاجِمَةً حَائِرَةً، مُمْتَقَعَةَ الْوَجْهِ شَاحِبَةَ اللَّوْنِ مُرْتَجِفَةً،[٦] عَاجِزَةً عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْكَلامِ، يَشِيعُ فِي جُسْمَانِهَا الرُّعْبُ وَالْخَوْفُ.

وَكَانَتْ — كَمَا أَسْلَفْتُ لَكَ الْقَوْلَ — أَشْبَهَ شَيْءٍ بِتِمْثَالٍ جَامِدٍ، لَا حَرَاكَ بِهِ.

أَمَّا الْآنَ — وَقَدِ اطْمَأَنَّتْ عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» وَصَاحِبَتِهِ «نَرْجِسَ»، وَرَأَتْهُمَا آمِنَيْنِ سَالِمَيْنِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَمَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا وَهُوَ يَقْفِزُ خَارِجَ الْبِئْرِ، وَيُسْرِعُ إِلَيْهَا لَاثِمًا يَدَيْهَا، مَطْرُوحًا بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا — فَقَدْ زَايَلَهَا الضَّعْفُ وَالْمَرَضُ، وَسَرَتْ فِيهَا الْقُوَّةُ وَالصِّحَّةُ سَرَيَانَ الْكَهْرَبَاءِ وَتَبَدَّلَتْ خَلْقًا آخَرَ؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ نَاشِطَةً حَانِيَةً، وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا زَمَنًا طَوِيلًا.

وَقَدْ خُيِّلَ لَهَا أَنَّهَا نَائِمَةٌ تَحْلُمُ بِابْنِهَا الْمَفْقُودِ.

وَلَمْ تَكَدْ تُصَدِّقُ أَنَّهَا قَدْ ظَفِرَتْ بِلُقْيَاهُ، وَأَنَّهَا تُحَدِّثُهُ وَتَرَاهُ، بَعْدَ أَنْ حَسِبَتْهُ قَدْ أَدْرَكَتْهُ الْمَنِيَّةُ،[٧] وَيَئِسَتْ مِنْ عَوْدَتِهِ إِلَى الْحَيَاةِ!

---

[٦] مرتجفة: مضطربة.

[٧] المنية: الموت.

# مَعْرَكَةُ الْقَنَابِرِ وَالضَّفَادِعِ

# ضَياعُ الْخَاتَمِ

وَخَتَمَتْ «حَلِيمَةُ» هَذَا الْمَشْهَدَ الْمُؤَثِّرَ الْعَظِيمَ، الْفَيَّاضَ بِالْحَنَانِ وَالْعَطْفِ وَالتَّقْدِيرِ، بِمَا أَلِفَهُ عَارِفُوهَا مِنْ دُعَابَةٍ حُلْوَةٍ مُسْتَمْلَحَةٍ؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَى «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» مُعَاتِبَةً، وَأَمْسَكَتْ بِيَدِهِ مُغَاضِبَةً، وَهِيَ تَقُولُ: «مَا بَالُكَ تَنْسَانِي، وَتُغْفِلُ تَحِيَّتِي وَلا تَتَرَضَّانِي، كَأَنَّكَ لَا تَفْطُنُ لِوُجُودِي، وَلا تُقِيمُ وَزْنًا لِحُضُورِي؟!

أَتُرَاكَ أَغْفَلْتَ أَمْرِي لِأَنَّنِي لَمْ أَسْتَسْلِمْ لِلْبُكَاءِ كَمَا اسْتَسْلَمَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«نَرْجِسُ»؟

أَتُرَاكَ اسْتَهَنْتَ بِشَأْنِي، وَاسْتَخْفَفْتَ بِقَدْرِي لِأَنَّنِي آثَرْتُ الصَّبْرَ عَلَى الْجَزَعِ، وَلَمْ تُذْهِلْنِي وَطْأَةُ الْمُصَابِ وَهَوْلُ الْفَجِيعَةِ، كَمَا أَذْهَلا هَاتَيْنِ الضَّعِيفَتَيْنِ «مَاجِدَةَ» وَ«نَرْجِسَ» عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ بِصَادِقِ الدُّعَاءِ وَخَالِصِ الرَّجَاءِ؛ لِيُنْقِذَكَ مِنْ غُمَّتِكَ، وَيُخَلِّصَكَ مِنْ كُرْبَتِكَ؟

لَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ تَوَسُّلِي وَدُعَائِي وَحَقَّقَ تَأْمِيلِي وَرَجَائِي، وَلَمْ يَنْفَعْكُ عَوِيلُهُمْ وَلَا بُكَاؤُهُمْ وَصَوْمُهُمْ عَنِ الطَّعَامِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ!

فَخَبِّرْنِي: كَيْفَ نَسِيتَ وَفَاءَ «حَلِيمَةَ» الَّتِي أَخْرَجَتْكَ مِنْ أَعْمَاقِ الْبِئْرِ السَّحِيقَةِ؟ عَفَا اللهُ عَنْكَ، وَغَفَرَ لَكَ مَا أَنْكَرْتَ مِنْ جَمِيلٍ. وَعَفَا اللهُ عَنِّي وَغَفَرَ لِي مَا أَطَلْتُ مِنْ حَدِيثٍ؛ فَقَدْ ثَرْثَرْتُ فِي غَيْرِ طَائِلٍ.[1]

وَمَا كَانَ أَجْدَرَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ: كَيْفَ قَضَيْتَ ذَلِكَ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ فِي أَعْمَاقِ الْبِئْرِ؟ وَمَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْآلَامِ؟ أَلَمْ تَنْزَعِجْ مِنْ وَحْدَتِكَ؟ وَتَتَبَرَّمْ مِنْ وَحْشَتِكَ؟»

---

[1] في غير طائل: في غير فائدة.

فَلَمْ يَتَمَالَكِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنْ أَغْرَقَ فِي الضَّحِكِ، مُثْنِيًا عَلَى دُعَابَتِهَا، وَظُرْفِهَا وَلَبَاقَتِهَا.

ثُمَّ خَتَمَ ثَنَاءَهُ وَشُكْرَهُ قَائِلًا: «لَقَدْ سَأَلْتِنِي كَيْفَ قَضَيْتُ أَيَّامِي فِي الْبِئْرِ؟

لَقَدْ قَضَيْتُهَا أَسْعَدَ مَا أَكُونُ حَالًا وَأَهْنَأَ بَالًا لَوْ لَمْ أَنْزَعِجْ عَلَيْكُنَّ، وَأَشْعُرْ بِالْحَنِينِ إِلَى لِقَائِكُنَّ. وَمَا أَنْسَ يَا «حَلِيمَةُ» لَا أَنْسَ مَا مَيَّزَكِ اللهُ بِهِ مِنْ طِيبَةِ نَفْسٍ وَطَهَارَةِ قَلْبٍ.

وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ خَيَّلَ لَكِ الْوَهْمُ هَذِهِ الْوَسَاوِسَ؟ وَلَوْلاكِ مَا خَرَجْنَا مِنَ الْبِئْرِ!

وَلَوْلاكِ لَبَقِينَا فِيهَا أَيَّامًا وَلَيَالِيَ وَأَسَابِيعَ دُونَ أَنْ يَفطُنَ أَحَدٌ إِلَى مَكَانِنَا فِيهَا!»

فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ «حَلِيمَةُ» تُرَبِّتُ كَتِفَهُ، شَاكِرَةً وَفَاءَهُ لَهَا، ثُمَّ قَالَتْ: «لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي الْآنَ بِمَا كَابَدْنَاهُ مِنْ أَيَّامِ الشَّقَاءِ، وَكَانَ فَرَحِي بِنَجَاتِكَ قَدْ أَنْسَانِيهِ.»

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَى «نَرْجِسَ» قَائِلَةً: «خَبِّرِينِي يَا «نَرْجِسُ»: كَيْفَ تَيَسَّرَ لَكِ أَنْ تَهْبِطِي إِلَى الْبِئْرِ سَالِمَةً، دُونَ أَنْ يَصْطَدِمَ رَأْسُكِ بِجِدَارِهَا، وَبَقِيتِ سَالِمَةً عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «إِنَّنِي لَمْ أَهْبِطْ إِلَى الْبِئْرِ كَمَا تَتَوَهَّمِينَ، بَلْ هَوَيْتُ إِلَى قَرَارِهَا.

وَلَقَدْ كُنْتُ — لَا مَحَالَةَ — هَالِكَةً لَوْ لَمْ يَتَلَقَّفْنِيَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، فَيُنْقِذَ حَيَاتِي مِنَ الْهَلاكِ، وَيُتِيحَ لِيَ الْفُرْصَةَ لِأَرَاكِ، وَأَنْعَمَ بِلُقْيَاكِ.»

فَقَالَتْ «حَلِيمَةُ»: «شُكْرًا لَكِ عَلَى مَا غَمَرْتِنِي بِهِ مِنْ ثَنَاءٍ، وَإِنْ كَانَ مَا تُحَدِّثِينَنِي بِهِ — عَنِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي هَيَّأَتْ لَكِ النَّجَاةَ، وَالْعَوْدَةَ إِلَى الْحَيَاةِ — أَمْرًا غَامِضًا، يَصْعُب عَلَى مِثْلِي أَنْ يُصَدِّقَهُ.

أَتَحْسَبِينَ يَا «نَرْجِسُ» أَنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَلَقَّفَكِ[٢] وَأَنْتِ هَاوِيَةٌ إِلَى أَعْمَاقِ الْبِئْرِ مِنْ ذَلِكِ الِارْتِفَاعِ الشَّاهِقِ، دُونَ أَنْ تَنْخَلِعَ رَقَبَتُكِ وَيُهْرَسَ لَحْمُكِ وَعَظْمُكِ؟!

أَلَا تَظُنِّينَ أَنَّ لِأَمِيرَةِ التَّوَابِعِ يَدًا فِي إِنْقَاذِكِ؟»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «ذَلِكَ يَقِينٌ لَا خَفَاءَ بِهِ وَلَا شَكَّ فِيهِ! وَلَوْلَا مَا بَذَلَتْهُ لَنَا أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ مِنْ عَوْنٍ وَتَأْيِيدٍ، مَا نَجَوْنَا مِنْ كَيْدِ شَقِيقَتِهَا أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ الَّتِي وَقَفَتْ جُلَّ[٣] حَيَاتِهَا عَلَى إِيْذَائِنَا وَالْكَيْدِ لَنَا.»

---

[٢] يتلقفك: يتناولك بسرعة.

[٣] جل: معظم.

وَهُنَا بَرَّحَ بِهِمُ الْجُوعُ، وَأَصْبَحُوا لَا يُطِيقُونَ صَبْرًا عَلَى الْبَقَاءِ بِلا طَعَامٍ.

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» قَدْ تَرَكَ فِي قَاعِ الْبِئْرِ مَا جَلَبَتْهُ لَهُ الْجِنِّيَّةُ مِنْ زَادٍ طَيِّبٍ شَهِيٍّ، وَشَرَابٍ سَائِغٍ هَنِيٍّ!

وَبَيْنَمَا كَانُوا مُنْهَمِكِينَ فِي بَثِّ الْأَشْوَاقِ وَتَبَادُلِ التَّهْنِئَاتِ، وَقَدِ امْتَزَجَتْ دُمُوعُ الْفَرَحِ — فِي كَلامِهِمْ — بِالْبَسَمَاتِ؛ إِذْ تَسَلَّلَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى الْبِئْرِ خُلْسَةً،[4] مُنْتَهِزَةً فُرْصَةَ اشْتِغَالِهِمْ بِالْحَدِيثِ، وَهَبَطَتْ دَرَكَاتِ السُّلَّمِ دُونَ أَنْ تَنْبِسَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ، فَحَمَلَتْ مَا كَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» قَدْ نَسِيَهُ مِنَ الزَّادِ، ثُمَّ صَعِدَتْ دَرَجَاتِهِ ثَانِيَةً فِي لَحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَوَضَعَتْ مَا جَلَبَتْهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ فَوْقَ حُزْمَةٍ مِنَ الْقَشِّ، وَأَعَدَّتْ أَرْبَعَ حُزَمٍ أُخْرَى مِثْلَهَا حَوْلَ الْمَائِدَةِ، لِتَكُونَ لَهُمْ مَقَاعِدَ، يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا فِي أَثْنَاءِ الْأَكْلِ.

وَمَا أَتَمَّتْ ذَلِكَ حَتَّى عَادَتْ إِلَيْهِمْ بَاسِمَةً وَهِيَ تَقُولُ: «الْآنَ تَهَيَّأَتْ لَكُمُ الْمَائِدَةُ؛ فَهَلُمُّوا إِلَيْهَا أَيُّهَا الْأَعِزَّاءُ؛ فَقَدْ خَوَتْ مِنَّا الْبُطُونُ، وَكَادَ الْجُوعُ يَفْتَرِسُنَا، وَمَا أَظُنُّكُمْ قَدْ شَبِعْتُمْ مِنَ الْكَلامِ.»

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«نَرْجِسُ» قَدْ بَرَّحَ بِهِمَا الْجُوعُ،[5] فَكَادَتَا تَسْقُطَانِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ فَرْطِ الضَّعْفِ وَالْإِعْيَاءِ. أَمَّا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» فَكَانَ قَدِ ارْتَوَى مِنْ عَصِيرِ الْفَوَاكِهِ اللَّذِيذِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذُقْ غَيْرَهُ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ «حَلِيمَةُ» قَائِلَةً وَالِابْتِسَامُ لَا يُفَارِقُ ثَغْرَهَا: «هَلُمُّوا أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ. هَاكُمُ الْفَطَائِرَ الشَّهِيَّةَ، الَّتِي بَعَثَتْ لَكُمْ بِهَا الْجِنِّيَّةُ. لَقَدْ أَعَدَّتْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا فَطِيرَةً كَامِلَةً؛ فَشُكْرًا لَهَا. وَهَاكُمُ الشِّوَاءُ اللَّذِيذُ الَّذِي أَعَدَّتْهُ لِطَعَامِنَا. وَإِلَيْكُمْ شَرَابَ التُّفَّاحِ الْفَاخِرَ الَّذِي أَعَدَّتْهُ لِشَرَابِنَا.

فَكُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا لَكُمْ. كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ هَذِهِ الْمَائِدَةِ الْحَافِلَةِ كَمَا تَشَاءُونَ، وَوَفْقَ مَا تَشْتَهُونَ.»

---

[4] خلسة: خفية.

[5] برح بهما الجوع: آلمهما.

فَجَلَسَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَ«مَاجِدَةُ» وَ«نَرْجِسُ» إِلَى الْمَائِدَةِ مَسْرُورِينَ. وَكَانَتْ حَافِلَةً بِأَشْهَى أَلْوَانِ الطَّعَامِ، وَلَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُ بَالَهُمْ شَيْءٌ، وَلا يُكَدِّرُ صَفْوَهُمْ أَحَدٌ. وَانْطَلَقُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَقَدْ غَمَرَتْهُمُ السَّعَادَةُ فَأَنْسَتْهُمْ — مِنْ صُنُوفِ الْعَذَابِ وَالْمِحَنِ — مَا كَابَدُوا مِنْ قَبْلُ.

وَلَمَّا انْتَهَوْا مِنَ الطَّعَامِ، أَظْهَرَتْ «حَلِيمَةُ» دَهْشَتَهَا لِتَغَيُّبِ أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ عَنْهُمْ، وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ تُعَلِّلُ تَوَانِيَهَا فِي حِرَاسَتِهِمْ وَنَجْدَتِهِمْ، وَلا كَيْفَ غَفَلَتْ عَنِ الْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِمْ، وَتَدْبِيرِ مَا يَكْفُلُ لَهُمُ الرَّاحَةَ فِي مَسْكَنِهِمْ وَنَوْمِهِمْ بَعْدَ أَنِ الْتَهَمَ الْحَرِيقُ الْبَيْتَ بِمَا يَحْوِيهِ، وَكَادَ — لَوْلا لُطْفُ اللهِ — يُهْلِكُ سَاكِنِيهِ.

وَلَمْ تَتَمَالَكْ «حَلِيمَةُ» أَنْ قَالَتْ لَهُمْ: «أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ تُصْبِحَ دَارُنَا خَرَابًا، وَدَسْكَرَتُنَا يَبَابًا،[٦] وَأَنْ نَنْتَقِلَ — فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ — مِنَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ، وَمِنَ السَّعَادَةِ إِلَى الشَّقَاءِ، وَأَنْ نَفْقِدَ كُلَّ مَا نَمْلِكُ مِنْ ثِيَابٍ وَطَعَامٍ وَمَأْوًى؟

أَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَدْهَمَنَا الْحَرِيقُ وَأَنْ تَحُلَّ بِنَا هَذِهِ النَّكَبَاتُ الْمُتَلاحِقَةُ دُونَ أَنْ تُدْرِكَنَا أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ، بِمَا تَعَوَّدَتْ أَنْ تُسْبِغَهُ عَلَيْنَا مِنْ مَعُونَةٍ وَنَجْدَةٍ؟ وَمَا أَدْرِي! كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدَ الْيَوْمِ؟ وَكَيْفَ نَصْنَعُ إِذَا عَضَّنَا الْجُوعُ بِنَابِهِ بَعْدَ أَنْ أَكَلْنَا آخِرَ مَا قَدَّمَتْهُ «لُؤْلُؤَةُ» لَنَا مِنَ الزَّادِ؟

وَا حَسْرَتَاهُ! لَقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ؛ فَقَدْ كُنَّا نَعِيشُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ، لَا نَكَادُ نَطْلُبُ شَيْئًا حَتَّى نَجِدَهُ مَاثِلًا أَمَامَنَا بِأَسْرَعَ مِمَّا تَمَنَّيْنَاهُ. أَمَّا الْآنَ، فَقَدْ أَصْبَحْنَا لَا نَظْفَرُ بِغَيْرِ الْجُوعِ وَالشَّقَاءِ؛ فَمَا سَبَبُ هَذَا الْبَلاءِ؟»

وَكَانَتْ «مَاجِدَةُ» تُصْغِي إِلَى حَدِيثِ «حَلِيمَةَ» مُنْصِتَةً مُتَعَجِّبَةً، وَهِيَ لَا تَدْرِي كَيْفَ تُجِيبُهَا …

ثُمَّ حَانَتْ مِنْهَا الْتِفَاتَةٌ إِلَى إِصْبَعِهَا — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ — فَلَمْ تَجِدْ خَاتَمَهَا فِيهَا.

[٦] يبابًا: خاوية مخربة.

فَأَدْرَكَتْ «مَاجِدَةُ» حِينَئِذٍ سِرَّ الشَّقَاءِ، وَمَصْدَرَ الْبَلَاءِ، وَعَرَفَتْ أَنَّ أَيَّامَ السَّعَادَةِ قَدِ انْقَضَتْ بِضَيَاعِ الْخَاتَمِ الَّذِي كَانَ يَجْلُبُ لَهُمُ السَّعَادَةَ وَالرَّخَاءَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُمْ لِكَسْبِ عَيْشِهِمْ — بَعْدَ الْيَوْمِ — غَيْرُ الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَحْدَهُ، وَإِلَّا هَلَكُوا جُوعًا.

وَلَمَّا رَأَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَ«نَرْجِسُ» مَا ارْتَسَمَ عَلَى جَبِينِ «مَاجِدَةَ» مِنْ أَمَارَاتِ الْأَسَى وَالْحُزْنِ، ابْتَدَرَاهَا بِالسُّؤَالِ عَنْ مَصْدَرِ اكْتِئَابِهَا وَحَسْرَتِهَا.

فَقَالَتْ لَهُمَا مُتَفَجِّعَةً: «لَعَلَّ مِنَ الْجُحُودِ وَالْكُفْرِ بِالنِّعْمَةِ أَنْ يَقْلَقَ بِالُنَا بَعْدَ مَا غَمَرَنَا بِهِ اللهُ مِنْ فُنُونِ السَّعَادَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَهَيَّأَهُ لَنَا مِنْ لِقَاءٍ بَعْدَ فُرْقَةٍ، وَأَمَلٍ بَعْدَ يَأْسٍ، فَأَظْفَرَنَا بِلِقَاءِ أَعَزِّ النَّاسِ عَلَيْنَا، وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْنَا!

لَا رَيْبَ أَنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلْهَمِّ بَعْدَ كُلِّ مَا يَسَّرَهُ اللهُ لَنَا مِنْ فُنُونِ الْخَيْرِ وَالْبَهْجَةِ، إِنَّمَا هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقُوقِ.

وَلَكِنْ لَا أَكْتُمُ — بِرَغْمِ هَذَا كُلِّهِ — قَلَقِي عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ أَنْ تَفَقَّدْتُ الْخَاتَمَ فِي إِصْبَعِي فَلَمْ أَجِدْهُ فِيهَا.

وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ ضَاعَ فِي أَثْنَاءِ الْحَرِيقِ.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْرَكُونَنِي فِي التَّأَلُّمِ لِفِقْدَانِهِ حِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْخَاتَمَ النَّفِيسَ كَانَ أَنْفَعَ هَدِيَّةٍ بَذَلَتْهَا لَنَا[7] «لُؤْلُؤَةُ» أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ، لِيُؤَدِّيَ لَنَا كُلَّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ شُئُونِ الْحَيَاةِ. وَكَانَتْ حَاجَاتُنَا مَقْضِيَّةً بِهِ مُيَسَّرَةً مَا بَقِيَ فِي حَوْزَتِنَا.[8]

أَمَّا الْآنَ — وَقَدْ فَقَدْنَاهُ — فَمَا أَدْرِي كَيْفَ نُوَاجِهُ مَطَالِبَ الْحَيَاةِ!»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «هَوِّنِي عَلَيْكِ يَا أُمَّاهُ، وَلَا تَجْعَلِي لِلْهَمِّ سَبِيلًا إِلَى قَلْبِكِ، وَلَا تَحْسِبِي لِلْمُسْتَقْبَلِ حِسَابًا، وَسَأَتَكَفَّلُ لَكِ بِكُلِّ مَا يُعْوِزُكِ؛ فَقَرِّي عَيْنًا، وَطِيبِي نَفْسًا!

أَلَسْتُ أَنَا كَبِيرَ السِّنِّ قَوِيَّ الْجِسْمِ؟ فَمَاذَا يَعُوقُنِي عَنِ الْعَمَلِ؟ وَمَاذَا يَمْنَعُنِي مِنْ كَسْبِ أَقْوَاتِنَا؟

---

[7] بذلتها لنا: قدمتها لنا.

[8] حوزتنا: ملكنا.

وَلَنْ يُعْجِزَنِي — إِنْ شَاءَ اللهُ — أَنْ أَحْصُلَ عَلَى كُلِّ مَا تَطْلُبِينَ، وَأَنْ أُيَسِّرَ لَكِ كُلَّ مَا تُرِيدِينَ، بِعَرَقِ الْجَبِينِ.»

وَهُنَا انْدَفَعَتْ «نَرْجِسُ» إِلَى الْكَلامِ، فَقَالَتْ لـ «مَاجِدَةَ» مُتَحَمِّسَةً: «وَمَاذَا يَمْنَعُنِي عَنِ الْعَمَلِ، أَلَسْتُ قَادِرَةً عَلَيْهِ؟ وَهَلْ تَعْجِزُ مِثْلِي عَنْ مُسَاعَدَتِكِ يَا أُمَّاهُ، وَمُشَارَكَةِ «حَلِيمَةَ» فِيمَا تَقُومُ بِأَدَائِهِ؟»

فَقَالَ لَهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «لِيَطْمَئِنَّ بَالُكُنَّ جَمِيعًا؛ فَهَا أَنَا ذَا أَبْدَأُ السَّعْيَ إِلَى رِزْقِي مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ، وَلَنْ أَتَرَدَّدَ فِي الْبَحْثِ عَمَّا يُدِرُّ عَلَيْنَا مَا يَكْفِي حَاجَتَنَا مِنَ الْعَيْشِ. فَإِلَى اللِّقَاءِ أَيَّتُهَا الْعَزِيزاتُ.»

ثُمَّ قَبَّلَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَدَ أُمِّهِ، وَحَيَّا «نَرْجِسَ» وَ«حَلِيمَةَ»، وَسَارَ فِي طَرِيقِهِ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ.

وَابْتَعَدَ عَنْهُنَّ وَقَلْبُهُ يَفِيضُ نَشَاطًا وَرَجَاءً وَاطْمِئْنَانًا، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَخْبَؤُهُ لَهُ الْقَدَرُ — فِي طَرِيقِهِ — مِنْ مَصَائِبَ وَعَقَبَاتٍ، وَمَا تُعِدُّهُ لَهُ الْأَيَّامُ مِنْ أَحْدَاثٍ وَمُفَاجِئَاتٍ.

# صَاحِبُ الدَّسْكَرَةِ

وَمَشَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى دَسْكَرَةٍ كَبِيرَةٍ، كَثِيرَةِ الْأَشْجَارِ، نَاضِجَةِ الثِّمَارِ؛ فَانْتَعَشَتْ نَفْسُهُ بِالْأَمَلِ، لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا عَمَلًا يَرْتَزِقُ مِنْهُ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يَشْغَلُهُ غَيْرُ السَّعْيِ إِلَى مَا يَكْفُلُ رِزْقَهُ وَرِزْقَ أُسْرَتِهِ، وَيُظْفِرُهُ بِأَقْوَاتِهِمْ، وَلا يُحْوِجُهُمْ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِهِمْ.

وَلاحَ لَهُ صَاحِبُ الدَّسْكَرَةِ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أُسْرَتِهِ يَأْكُلُونَ أَمَامَ دَارِهِمْ؛ فَاتَّجَهَ إِلَيهِمْ. وَلَمْ يَكَدْ يَخْطُو — فِي طَرِيقِهِ — خُطُوَاتٍ قَلِيلَةً، حَتَّى بَصُرَ بِهِ غُلامٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ.

وَمَا رَآهُ الْغُلامُ وَوَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَاهُ حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُهُ رُعْبًا وَفَزَعًا، وَاضْطَرَبَتْ نَفْسُهُ خَوْفًا وَهَلَعًا، وَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ قَفَزَ هَارِبًا إِلَى الدَّارِ وَهُوَ يَصْرُخُ مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ.

وَسَمِعَتْ أُخْتُهُ صَرْخَةَ أَخِيهَا، وَكَانَتْ فِي الثَّامِنَةِ مِنْ عُمُرِهَا، فَتَلَفَّتَتْ خَلْفَهَا تَبْحَثُ عَمَّا أَخَافَ أَخَاهَا وَفَزَّعَهُ.

وَمَا لَاحَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» لِعَيْنَيْهَا حَتَّى تَمَلَّكَهَا — مِنَ الرُّعْبِ — مِثْلُ مَا تَمَلَّكَ أَخَاهَا، وَارْتَفَعَتْ صَيْحَاتُهَا، مُسْتَنْجِدَةً[1] أُمَّهَا وَأَبَاهَا.

---

[1] مستنجدة: مستغيثة.

وَتَعَجَّبَ الْوَالِدَانِ مِنْ فَزَعِ صَغِيرَيْهِمَا ... وَتَلَفَّتَ الْجَالِسُونَ لِيَتَعَرَّفُوا مَصْدَرَ الرُّعْبِ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَيْهِمَا.

وَمَا كَادَتْ أَعْيُنُهُمْ تَلْتَقِي بـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»؛ حَتَّى تَفَزَّعَتِ النِّسَاءُ وَتَعَالَتْ صَرَخَاتُهُنَّ، وَتَحَمَّسَ الرِّجَالُ لِلْفَتْكِ بِذَلِكَ الْوَحْشِ الَّذِي اقْتَحَمَ دَسْكَرَتَهُمْ وَدَهَمَ دِيَارَهُمْ؛ فَأَسْرَعُوا إِلَى هِرَاوَاتِهِمْ[٢] لِيَذُودُوا بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَوِيهِمْ، وَيَدْفَعُوا بِهَا غَائِلَةَ «الدُّبِّ»[٣] إِذَا هَجَمَ عَلَيْهِمْ.

وَكَانُوا يَحْسَبُونَهُ وَحْشًا هَارِبًا فَرَّ مِنَ الْغَابَةِ وَقَدِمَ عَلَيْهِمْ يُحَاوِلُ افْتِرَاسَهُمْ.

وَلَمَّا رَأَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأُسْرَةِ مِنَ الْخَوْفِ، أَدْرَكَ أَنَّهُمْ أَسَاءُوا الظَّنَّ بِهِ؛ إِذْ رَاحُوا يَتَرَبَّصُونَ بِهِ، مُتَحَفِّزِينَ لِافْتِرَاسِهِ.

فَابْتَدَرَهُمْ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلامِ، لِيُبَدِّدَ بِكَلَامِهِ مَا سَاوَرَهُمْ مِنْ فَزَعٍ، ثُمَّ أَرْدَفَ تَحِيَّتَهُ قَائِلًا: «اطْمَئِنُّوا أَيُّهَا السَّادَةُ الْأَكْرَمُونَ، وَلَا تَخْشَوْا مِنِّي شَيْئًا. لَقَدْ حَسِبْتُمُونِي دُبًّا شَرِسًا، وَمَا أَنَا — عَلَى الْحَقِيقَةِ — إِلَّا إِنْسَانٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنِّي مُشَوَّهُ الصُّورَةِ.

وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ الْوَحِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

وَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ، لَعَلِّي أَجِدُ عَمَلًا فِي مَزْرَعَتِكُمْ، وَسَتُثْبِتُ لَكُمُ التَّجْرِبَةُ مَدَى صَلاحِيَتِي وَإِخْلَاصِي لِمَا تَكِلُونَهُ إِلَيَّ مِنْ أَعْمَالٍ. وَإِنِّي لَيُسْعِدُنِي أَنْ أَظْفَرَ بِثِقَتِكُمْ، وَأُوَفَّقَ إِلَى إِرْضَائِكُمْ.»

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ صَاحِبِ الدَّسْكَرَةِ حِينَ سَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُ النَّاسُ، وَيَنْطَلِقُ لِسَانُهُ بِمِثْلِ هَذَا الْأُسْلُوبِ الرَّائِعِ. وَحَسِبَهُ الرَّجُلُ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ، تَمَثَّلَ لَهُ فِي صُورَةِ دُبٍّ؛ فَتَمَلَّكَتْهُ الْحَيْرَةُ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَوْفُ وَالارْتِبَاكُ. فَلَمْ يَدْرِ: أَيَهْرُبُ مِنْهُ، أَمْ يَثْبُتُ فِي مَكَانِهِ؟ ثُمَّ عَنَّ[٤] لَهُ أَنْ يَتَشَجَّعَ وَيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ، لِيَتَثَبَّتَ مِنْ حَقِيقَتِهِ.

---

[٢] هراواتهم: عصيهم الغليظة.

[٣] غائلة الدب: داهيته ومصيبته.

[٤] عنَّ: ظهر.

فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُ[٥] عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا دَفَعَهُ إِلَى الْحُضُورِ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ وَهُوَ يُغَالِبُ الْخَوْفَ: «خَبِّرْنِي فِي صَرَاحَةٍ وَجَلَاءٍ[٦] وَلَا تَكْذِبْنِي: أَجِنِّيٌّ أَنْتَ أَمْ إِنْسَانٌ؟ وَآدَمِيٌّ فِي هَذَا الْفَرْوِ أَمْ حَيَوَانٌ؟

خَبِّرْنِي، أَجِبْنِي، وَاصْدُقْنِي وَلَا تَكْذِبْنِي.



قُلْ لِي: مِنْ أَيْنَ قَدِمْتَ؟ وَفِي أَيِّ الْبُلْدَانِ وُلِدْتَ؟ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ نَشَأْتَ؟»

فَأَجَابَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «مِنْ دَسْكَرَةِ الْخَشَبِ جِئْتُ، وَفِيهَا وُلِدْتُ، وَعَلَى أَرْضِهَا نَشَأْتُ، وَفِي رِحَابِهَا كَبِرْتُ وَتَرَعْرَعْتُ؛ حَيْثُ تَعَهَّدَتْنِي أُمِّي «مَاجِدَةُ»: صَاحِبَةُ تِلْكَ الدَّسْكَرَةِ.»

وَهُنَا أَدْرَكَ الرَّجُلُ أَنَّ مَنْ يُخَاطِبُهُ إِنْسَانٌ، لَا جِنِّيٌّ وَلا حَيَوَانٌ؛ فَزَايَلَهُ الْخَوْفُ، وَعَادَتْ إِلَيْهِ شَجَاعَتُهُ، وَقَالَ لَهُ مُتَعَجِّبًا: «أَأَنْتَ ابْنُ «مَاجِدَةَ»: صَاحِبَةِ دَسْكَرَةِ الْخَشَبِ؟ الْآنَ ذَكَرْتُكَ. أَلَسْتَ أَنْتَ الَّذِي كَانَ يَذْهَبُ — فِي زَمَنِ طُفُولَتِهِ — إِلَى السُّوقِ لِيُخِيفَ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَ جِيرَانِنَا، وَيَمْلَأَ قُلُوبَهُمْ فَزَعًا وَرُعْبًا؟ لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ تَعِيشُ فِي الْغَابَةِ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، وَأَنَّكَ قَانِعٌ بِمَا تَحْتَطِبُهُ فِيهَا، وَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَعُونَةِ أَحَدٍ.

[٥] اجتمع رأيه: عزم.

[٦] جلاء: وضوح.

فَكَيْفَ غَيَّرْتَ رَأْيَكَ فِي الِابْتِعَادِ عَنِ النَّاسِ؟ وَمَا بَالُكَ تُحَاوِلُ أن تُزْعِجُ الْآمِنِينَ؟

كَلَّا، لَا تَقْتَرِبْ مِنَّا؛ فَلَيْسَ لَكَ عَمَلٌ عِنْدَنَا.

وَالرَّأْيُ أَنْ تَعُودَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ، وَتَعِيشَ فِي الْغَابِ — كَمَا عِشْتَ مِنْ قَبْلُ — مَعَ أَمْثالِكَ مِنَ الدِّبَبَةِ.»

فَأَجَابَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مُتَوَسِّلًا مُسْتَعْطِفًا: «لَقَدْ شَبَّ فِي دَسْكَرَتِنَا — مُنْذُ أَيَّامٍ — حَرِيقٌ هائِلٌ، فَدَمَّرَهَا وَأَتَى عَلَى كُلِّ مَا فِيهَا[7] مِنْ شَجَرٍ وَثَمَرٍ، وَلَمْ يَبْقَ لِأُسْرَتِنَا مِنْ عَائِلٍ سِوايَ.

وَقَدْ أَصْبَحَ وَاجِبًا عَلَيَّ أَنْ أَسْعَى جَاهِدًا إِلَى الرِّزْقِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، لِأَظْفَرَ بِقُوتِ أُمِّي وَشَقِيقَتِي وَمُرَبِّيَتِي.

وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَتَوَاكَلَ[8] بَعْدَ الْيَوْمِ، كَمَا لَا يَسَعُنِي أَنْ أَتَخَلَّى عَنِ احْتِمَالِ هَذَا الْعِبْءِ الثَّقِيلِ، وَالِاضْطِلاعِ بِهَذَا الْوَاجِبِ الْجَلِيلِ.

وَقَدْ جِئْتُ أَسْأَلُكُمْ عَمَلًا يُسَاعِدُنِي عَلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ.

وَسَتَرَى — مِنْ إِخْلَاصِي وَإِتْقَانِي، لِمَا تَعْهَدُ إِلَيَّ بِهِ — مَا يَسُرُّكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَأَنَا — كَمَا تَرَانِي — مَوْفُورُ الْقُوَّةِ، سَلِيمُ الْجِسْمِ، صَحِيحُ الْبِنْيَةِ. وَأَنَا إِلَى ذَلِكَ شَرِيفُ الْمَقْصِدِ، حَسَنُ النِّيَّةِ، مِطْوَاعٌ لَا أُخَالِفُ لَكَ رَأْيًا، وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا!»

فَأَطْرَقَ صَاحِبُ الدَّسْكَرَةِ مُفَكِّرًا، ثُمَّ انْطَلَقَ يُعَنِّفُهُ[9] مُسْتَنْكِرًا، يَقُولُ: «لَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ يَدُورُ بِخَلَدِكَ[10] أَنْ يَتَعَاوَنَ إِنْسَانٌ مِثْلِي مَعَ حَيَوَانٍ مِثْلِكَ بِأَيِّ حَالٍ؟

هَلْ ضاقَتْ بِيَ الدُّنْيَا عَلَى رُحْبِهَا،[11] فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا مَنْ أَسْتَعِينُ بِهِ فِي أَدَاءِ عَمَلِي غَيْرُ حَيَوَانٍ دَمِيمٍ، مُشَوَّهِ الْخِلْقَةِ، فِي مِثْلِ صُورَتِكَ، وَبَشَاعَةِ هَيْئَتِكَ؛ لِيُدْخِلَ الْفَزَعَ عَلَى وَلَدِي وَزَوْجَتِي، وَأَهْلِي وَعَشِيرَتِي، وَيَمْلَأَ قَلْبَ كُلِّ مَنْ يَرَاهُ فَزَعًا وَرُعْبًا؟

---

[7] أتى على كل ما فيها: أهلكه.

[8] أتواكل: أكسل وأعتمد على غيري.

[9] يعنفه: يلومه.

[10] بخلدك: بعقلك.

[11] على رحبها: على سعتها.

أَحَسِبْتَنِي غَبِيًّا إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟ كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى تَحْقِيقِ رَغْبَتِكَ، وَلا مَعْدَى لَكَ عَنِ الرُّجُوعِ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ. وَمَا أَرَاكَ بَالِغًا إِقْنَاعِي مَهْمَا تَتَفَنَّنْ فِي الضَّرَاعَةِ وَالِاسْتِعْطَافِ؛ فَاخْتَصِرْ حَدِيثَكَ، وَكُفَّ عَنْ مُحَاوَلَتِكَ، وَاعْزُبْ عَنْ وَجْهِي، وَدَعْنَا نُتِمَّ غَدَاءَنَا بِسَلامٍ.»

فَقَالَ لَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ — يَا سَيِّدِي — أَنْ تَتَجَاوَزَ عَنْ بَشَاعَةِ مَنْظَرِي، وَتُقَدِّرَ طَهَارَةَ قَلْبِي وَحُسْنَ مَخْبَرِي.

وَسَتَرَى — إِذَا جَرَّبْتَنِي فِي الْعَمَلِ — أَنَّنِي نِعْمَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ.

وَلَكَ — إِذَا شِئْتَ — أَنْ تَزْوِيَنِي[١٢] فِي مَكَانٍ قَصِيٍّ، أُؤَدِّي فِيهِ مَا تَكِلُهُ إِلَيَّ مِنْ عَمَلٍ، بَعِيدًا عَنْ أَوْلَادِكَ وَأَفْرَادِ أُسْرَتِكَ؛ بِحَيْثُ لَا تَقَعُ عَلَيَّ عَيْنُ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا.»

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ غَاضِبًا: «كُفَّ عَنْ لَجَاجِكَ وَعِنَادِكَ، وَلَا تَتَمَادَ فِي إِلْحَافِكَ؛[١٣] فَمَا أَنْتَ بِبَالِغٍ مِنْ إِقْنَاعِي شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُ.

وَحَذَارِ أَنْ تَسْتَرْسِلَ، أَيُّهَا الدُّبُّ الْقَبِيحُ الصُّورَةِ!

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَنَحَّ عَنْ وَجْهِي فِي الْحَالِ، جَعَلْتُكَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ؛ فَهَلْ أَنْتَ سَامِعٌ مُطِيعٌ؟ اُعْزُبْ عَنْ وَجْهِي أَيُّهَا السَّمْجُ الْمِلْحَاحُ، وَإِلَّا أَنْفَذْتُ أَسْنَانَ مِذْرَاتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، وَفَرَيْتُ بِهَا فَرْوَكَ الْكَثِيفَ الْبَشِعَ.»

وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ مُزْعِجَةً، فَلَمْ يَتَمَالَكِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» أَنْ خَفَضَ رَأْسَهُ مَحْزُونًا، كَاسِفَ الْبَالِ، كَسِيرَ الْخَاطِرِ، لِمَا لَحِقَهُ مِنْ مَهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ. وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مُفَارَقَةِ الرَّجُلِ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ مَعُونَتِهِ، وَخَابَ أَمَلُهُ.

وَمَشَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» فِي طَرِيقِهِ مُبْتَعِدًا عَنْ صَاحِبِ الدَّسْكَرَةِ، بَطِيءَ السَّيْرِ، مُتَخَاذِلَ الْخُطُوَاتِ.[١٤]

وَلَمْ يَكَدْ يَرَاهُ ذَلِكَ الزَّارِعُ الْقَاسِي الْقَلْبِ، حَتَّى شَفَعَ مَا أَسْلَفَهُ مِنْ وَعِيدِهِ بِقَهْقَهَةٍ عَالِيَةٍ، تَفِيضُ شَمَاتَةً وَاسْتِهْزَاءً، وَسُخْرِيَةً وَاسْتِعْلَاءً … وَتَبِعَتْهَا أَصْوَاتُ الْأُسْرَةِ مُتَهَلِّلِينَ، فَرِحِينَ بِهَزِيمَتِهِ وَانْكِسَارِ خَاطِرِهِ!

---

[١٢] تزويني: تبعدني.

[١٣] إلحافك: إلحاحك.

[١٤] متخاذل الخطوات: ضعيف الخطوات.

وَمَا غَابَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» عَنْ أَنْظَارِهِمْ، حَتَّى طَفَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ حَزِينَةٌ. فَمَا كَانَ أَسْرَعَهُ إِلَى تَجْفِيفِهَا، مُعْتَصِمًا بِالصَّبْرِ، رَاضِيًا بِقَضَاءِ اللهِ، نَادِمًا عَلَى اسْتِسْلَامِهِ لِلْجَزَعِ.

وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ — بَعْدَ كُلِّ مَا نَالَهُ مِنَ التَّحْقِيرِ وَالْمَهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ — أَنْ يَأْخُذَ بِمَا اقْتَرَحَتْهُ عَلَيْهِ «نَرْجِسُ»؛ وَهُوَ أَنْ تَحُلَّ مَحَلَّهُ فِي لُبْسِ الْفَرْوِ وَاتِّخَاذِ شَكْلِ الدُّبِّ؛ فَتِلْكَ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تُخَلِّصُهُ مِنْ دَمَامَتِهِ، وَتَرْفَعُ عَنْهُ بَشَاعَةَ وَجْهِهِ، وَشَنَاعَةَ صُورَتِهِ.

# فِي سَبِيلِ الرِّزْقِ

وَاسْتَأْنَفَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» سَيْرَهُ فِي طَرِيقِهِ، سَاعِيًا إِلَى رِزْقِهِ وَرِزْقِ أُسْرَتِهِ.

وَانْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى مَزْرَعَةٍ ثَانِيَةٍ؛ فَلَمْ يَكَدْ يَدْنُو مِنْهَا، حَتَّى رَأَى — عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ — جَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ، مُنهَمِكِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ، مُتَحَمِّسِينَ لِأَدَائِهَا بَيْنَ غَادٍ وَرَائِحٍ، وَقَدْ سَرَتْ فِيهِمْ رُوحُ النَّشَاطِ سَرَيَانَ الْكَهْرُبَاءِ، فَلَمْ يُضِيعُوا لَحْظَةً مِنْ وَقْتِهِمْ سُدًى؛[1] فَهَذَا مَشْغُولٌ بِالْحَرْثِ، وَثَانٍ مُهْتَمٌّ بِالْحَصَادِ، وَثَالِثٌ مَعْنِيٌّ بِرِيَاضَةِ الْخَيْلِ، وَرَابِعٌ مُقْبِلٌ عَلَى تَسْمِيدِ الْأَرْضِ، وَخَامِسٌ مُنْهَمِكٌ فِي بَذْرِ الْحَبِّ، وَسَادِسٌ دَائِبٌ عَلَى رَيِّ الْأَرْضِ وَسَقْيِ الزَّرْعِ، وَسَابِعٌ لَا يَفْتَأُ يُشَذِّبُ النَّبَاتَ، وَآخَرُونَ مَشْغُولُونَ بِمُخْتَلِفِ الْأَعْمَالِ.

فَقَالَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» لِنَفْسِهِ: «لَعَلِّي أَجِدُ فِي هَذَا الْحَقْلِ الْفَسِيحِ عَمَلًا أَقُوتُ بِهِ أُسْرَتِي؛ فَإِنِّي أَرَى كُلَّ مَنْ فِيهِ رِجَالًا، لَيْسَ فِيهِمْ طِفْلٌ وَلَا فَتَاةٌ وَلَا امْرَأَةٌ؛ وَبِهَذَا أَضْمَنُ أَلَّا يَتَفَزَّعَ مِنْ لِقَائِي أَحَدٌ.

وَمَا أَظُنُّ الرِّجَالِ سَيَتَهَيَّبُونَ[2] رُؤْيَتِي، أَوْ يَنْفِرُونَ — عَلَى أَيِّ حَالٍ — مِنْ قُبْحِ شَكْلِي.»

وَهَكَذَا اقْتَنَعَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِصَوَابِ مَا رَآهُ؛ فَاقْتَرَبَ مِنَ الرِّجَالِ — فِي خُفْيَةٍ وَحَذَرٍ — بَاذِلًا جُهْدَهُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ، دُونَ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ.

---

[1] سدى: بلا فائدة.

[2] سيتهيبون: سيخافون.

وَمَا اقْتَرَبَ مِنْ مَكَانِهِمْ، حَتَّى ابْتَدَرَ بِالتَّحِيَّةِ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُ مِنْهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ — فِيمَا يَبْدُو عَلَى سِيمَاهُ — وَكِيلَ صَاحِبِ الدَّسْكَرَةِ، وَنَائِبَهُ فِيهَا.

وَمَا إِنْ حَيَّاهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» حَتَّى رَفَعَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ، فَالْتَقَتْ بِهِ عَيْنَاهُ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ تَرَاجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ خُطْوَةً، مُتَفَزِّعًا مِنْ مَرْآهُ.

وَظَلَّ يُجِيلُ النَّظَرَ فِي صُورَتِهِ، وَقَدْ تَعَاظَمَتْهُ الدَّهْشَةُ مِنْ بَشَاعَتِهِ، فَصَرَخَ فِيهِ يَسْأَلُهُ مُتَعَجِّبًا: «مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا السَّمْجُ الْبَغِيضُ؟ وَمَاذَا تَبْتَغِيهِ؟»[٣]

فَأَجَابَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «أَنَا ابْنُ «مَاجِدَةَ» الْقَرَوِيَّةِ: صَاحِبَةِ دَسْكَرَةِ الْخَشَبِ يَا سَيِّدِي!»

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ مُتَعَجِّبًا: «وَمَاذَا جَاءَ بِكَ إِلَى هُنَا؟ وَأَيُّ نَكْبَةٍ قَذَفَتْ بِكَ إِلَى أَرْضِنَا، وَأَغْرَتْكَ بِالْحُضُورِ إِلَى مَزْرَعَتِنَا؟»

فَأَجَابَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»: «لَمْ أَجِئْ — يَا سَيِّدِي — إِلَّا بَعْدَ أَنِ احْتَرَقَتْ دَسْكَرَتُنَا، وَنَضَبَ الْقُوتُ[٤] مِنْ أَرْضِنَا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ أَسْعَى وَرَاءَ الرِّزْقِ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ.[٥] وَلَيْسَ لِي عِنْدَكَ إِلَّا رَجَاءٌ وَاحِدٌ، هُوَ أَنْ تَقْبَلَنِي أَجِيرًا عِنْدَكَ؛ لِأَكْفُلَ بِذَلِكَ قُوتَ أُسْرَتِي، وَهِيَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ: وَالِدَتِي وَشَقِيقَتِي وَمُرَبِّيَتِي.

وَلَعَلِّي بَالِغٌ مِنْ عَطْفِكَ وَفَضْلِكَ مَا أَرْجُوهُ.»

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ فِي خُشُونَةٍ وَعَجْرَفَةٍ: «أَيَّ عَمَلٍ تُرِيدُ أَيُّهَا الشَّقِيُّ السَّمْجُ؟

أَيُّ عَمَلٍ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكِلَهُ إِلَى دُبٍّ فِي مِثْلِ دَمَامَتِكَ وَبَشَاعَتِكَ؟»

فَقَالَ لَهُ مُتَأَلِّمًا: «لَيْسَ لِي — يَا سَيِّدِي — مِنَ الدِّبَبَةِ إِلَّا قُبْحُ فَرْوِهَا، وَخُشُونَةُ مَظْهَرِهَا.

فَإِذَا تَجَاوَزْتَ عَنْ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْخَشِنِ، وَلَمْ تَشْغَلْكَ دَمَامَتِي وَتَشْوِيهُ سَحْنَتِي،[٦] وَخَبَرْتَ وَفَائِي وَنَقَاءَ سَرِيرَتِي، رَأَيْتَ — خَلْفَ هَذِهِ الْبَشَاعَةِ الظَّاهِرَةِ — قَلْبَ إِنْسَانٍ وَفِيٍّ يَخْفِقُ بِعَوَاطِفَ كُلُّهَا خَيْرٌ وَنُبْلٌ، وَلِسَانَ صِدْقٍ لَا يَتَرَدَّدُ فِي الثَّنَاءِ عَلَى صَاحِبِ الْمُرُوءَةِ وَالْفَضْلِ،

---

[٣] ماذا تبتغيه: ماذا تطلبه.

[٤] نضب القوت: زال وفني.

[٥] مناكب الأرض: نواحيها.

[٦] تشويه سحنتي: قبح هيئتي وصورتي.

وَنَفْسًا شَاكِرَةً، تَذْكُرُ الصَّنِيعَةَ[٧] وَلَا تَنْسَاهَا، وَلَوِ اسْتَطَاعَتْ لَرَدَّتْهَا — مُضَاعَفَةً — لِمَنْ أَسْدَاهَا![٨]

فَإِذَا عَجَزْتُ عَنِ الْوَفَاءِ بِجَمِيلِكَ، فَلَنْ تَرَى مِنِّي — عَلَى كُلِّ حَالٍ — مَا لَا يُرْضِيكَ فِيمَا أَعْمَلُ، وَلَا مَا يَسُوءُكَ فِيمَا أُضْمِرُ! وَسَتَرَى مِنِّي — مَتَى خَبَرْتَنِي — نَفْسًا مُنْطَوِيَةً عَلَى حُبِّ الْخَيْرِ، وَالتَّفَانِي فِي نَفْعِ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ.»

وَبَيْنَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» يَتَكَلَّمُ، وَالْوَكِيلُ يُصْغِي إِلَيْهِ هَازِئًا بِمَا يَسْمَعُهُ مِنْهُ، إِذْ أَجْفَلَتِ الْخَيْلُ[٩] لِسَبَبٍ مُفَاجِئٍ لَا يَدْرِيهِ رَاوِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ.

فَانْطَلَقَتِ الْخَيْلُ مِنَ الْفَزَعِ هَارِبَةً، مُتَدَافِعَةً مُتَوَاثِبَةً، يَرْكُلُ[١٠] بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَنْهَالُ عَلَى صَاحِبِهِ نَهْشًا وَعَضًّا، شَارِدَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَعَجَزَ السَّائِسُ عَنْ كَبْحِ جِمَاحِهَا وَرَدِّهَا إِلَى مَرَابِطِهَا، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ جُهْدٍ جَهِيدٍ، وَعَنَاءٍ شَدِيدٍ.

وَاشْتَدَّ الْغَيْظُ وَالْحَنَقُ بِالسَّائِسِ، فَصَاحَ مُتَبَرِّمًا سَاخِطًا: «لَا رَيْبَ أَنَّ بَشَاعَةَ «الدُّبِّ» كَانَتْ سَبَبَ انْزِعَاجِ الْخَيْلِ وَفَزَعِهَا، وَلَوْلَاهُ مَا نَفَرَتْ وَاضْطَرَبَ أَمْرُهَا، وَأَفْلَتَ مِنِّي زِمَامُهَا؛ فَعَجِّلْ — يَا سَيِّدِي — بِطَرْدِهِ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَحَسْبُنَا مَا حَلَّ بِنَا مِنْ شُؤْمِهِ وَنَحْسِهِ.»

فَصاحَ الْوَكِيلُ بـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» غَاضِبًا: «اُعْزُبْ عَنْ وَجْهِي أَيُّهَا الدُّبُّ الْبَغِيضُ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا رَائِدَ نَحْسٍ، وَجَالِبَ سُوءٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْتَ فِيهِ، فَامْضِ إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ، وَحَسْبُنَا مِنْ شُؤْمِكَ مَا نُعَانِيهِ.»

وَهُنَا ذَهِلَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَجَمَدَ فِي مَكَانِهِ، وَتَخَاذَلَتْ قُوَاهُ،[١١] فَأَصْبَحَ لَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ، لِشِدَّةِ مَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهَشِ وَالْحَيْرَةِ.

فَصَاحَ بِهِ الرَّجُلُ، وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ: «أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ عَنَّا بِسَلَامٍ؟

---

[٧] الصنيعة: المعروف.

[٨] أسداها: قدمها.

[٩] أجفلت الخيل: هربت مسرعة.

[١٠] يركل: يرفس.

[١١] تخاذلت قواه: ضعفت.

أَجِئْتَنَا تَبْغِي الْمُشَاكَسَةَ وَالْخِصَامَ؟

أَمَا وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتَ فِي مَكَانِكَ لَحْظَةً بَعْدَ أَنْ أَنْذَرْتُكَ وَحَذَّرْتُكَ لَأَهْرِيَنَّكَ،[١٢] ثُمَّ — وَاللهِ — لَأَتْرُكَنَّكَ جُثَّةً هَامِدَةً.»

وَانْدَفَعَ الْوَكِيلُ الشَّرِسُ يُنَادِي رِجَالَهُ، وَيَسْتَدْعِي كِلابَهُ لِيُطْلِقَهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَصِيحُ بِهِمْ: «عَجِّلُوا بِمُطَارَدَةِ هَذَا الْحَيَوَانِ، وَلا يُفْلِتَنَّ مِنْكُمْ ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ.



[١٢] لأهرينك: لأضربنك بالهراوة، وهي العصا الغليظة.

يَا للهِ! هَا هُوَ ذا يُسْلِمُ سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ، لَائِذًا بِالْفِرَارِ.
لَهُ الْوَيْلُ! لَقَدْ أَفْلَتَهُ مِنْ عِقَابِنَا حُسْنُ حَظِّهِ وَسُوءُ حَظِّنَا!»

وَكَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» — بَعْدَ هَذِهِ الصَّدْمَةِ الثَّانِيَةِ — أَقْرَبَ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلَى الْحَيَاةِ. فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ غَادَرَ مَكَانَهُ عَلَى عَجَلٍ،[١٣] وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي النَّجَاةِ بِنَفْسِهِ، بَاذِلًا قُصَارَى جُهْدِهِ[١٤] فِي الْخَلَاصِ مِنْ ذَلِكَ الْمَأْزِقِ الْحَرِجِ.

وَرَأَى مِنَ الْحَزْمِ أَنْ يَعْجَلَ بِالْفِرَارِ، قَبْلَ أَنْ تَتَهَيَّأَ تِلْكَ الْوُحُوشُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُفْتَرِسَةُ الْغَاضِبَةُ لِلِّحَاقِ بِهِ، بَعْدَ أَنْ شَهِدَ مِنْ حَمَاقَتِهِمْ وَشَرَاسَتِهِمْ، وَلُؤْمِ طَبْعِهِمْ وَخَسَاسَتِهِمْ، مَا حَزَنَهُ وَغَمَّهُ.

وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمُحَاوَلَةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي أَخْفَقَ فِيهَا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، كَمَا رَأَيْتَ. وَقَدِ احْتَمَلَهَا صَابِرًا رَاضِيًا، وَلَمْ يَفُتَّ الْأَلَمُ فِي عَضُدِهِ،[١٥] بِرَغْمِ مَا لَقِيَهُ فِي مُفَاجَأَتَيْهِ، وَعَانَاهُ فِي صَدْمَتَيْهِ.

وَمَشَى وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: «إِنَّ الْحَيَاةَ كِفَاحٌ، فَلَا مَعْنَى لِلْيَأْسِ فِي مَيْدَانِهَا، وَلَا يَزَالُ بَاقِيًا مِنَ النَّهَارِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ أَوْ أَرْبَعٌ، وَلَا يَزَالُ أَمَامِي فُسْحَةٌ مِنَ الْوَقْتِ لِمُوَاصَلَةِ السَّعْيِ عَلَى رِزْقِي، وَلَنْ يَتَخَلَّى لُطْفُ اللهِ وَمَعُونَتُهُ عَمَّنْ قَصَدَهُ وَرَجَاهُ مَا دَامَ يُوَاصِلُ جِهَادَهُ وَسَعْيَهُ فِي الْحَيَاةِ.»

ثُمَّ تَوَجَّهَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَى مَصْنَعِ حَدَّادٍ، يَبْعُدُ عَنْ دَسْكَرَةِ أُمِّهِ بِضْعَةَ أَمْيَالٍ.

وَكَانَ صَاحِبُ الْمَصْنَعِ يَمْلِكُ جُمْهُورًا كَبِيرًا مِنَ الْعُمَّالِ، وَلَا يَفْتَأُ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ مِنْهُمْ.

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَرُدَّ قَاصِدًا عَنِ الْعَمَلِ فِي مَصْنَعِهِ. وَمَا كَانَ ذَلِكَ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — كَرَمًا مِنْهُ وَلَا تَفَضُّلًا، بَلْ كَانَ فَرْطَ حِرْصٍ،[١٦] وَتَهَالُكًا عَلَى تَثْمِيرِ مَالِهِ، وَمُضَاعَفَةِ ثَرْوَتِهِ.

---

[١٣] على عجل: بسرعة.

[١٤] قصارى جهده: أقصى جهده.

[١٥] لم يفت الألم في عضده: لم يضعفه.

[١٦] فرط حرص: زيادة بخل.

وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مَحْبُوبًا، بَلْ كَانَ مَكْرُوهًا أَشَدَّ الْكُرْهِ مِنْ كُلِّ عَارِفِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِيمَا يَدْعُوهُ الشَّرَهُ وَالْأَنَانِيَّةُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِيهِ، وَلا يَشْغَلُهُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا تَنْمِيَةُ مَوَارِدِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ بِبَالِهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَكَانَ النَّاسُ يُطْلِقُونَ عَلَى ذَلِكَ الْأَنَانِيِّ لَقَبَ «الْقَابِضِ»، لِبُخْلِهِ وَفَرْطِ حِرْصِهِ … وَكَانَ مَكْرُوهًا فِي نَظَرِ كُلِّ مَنْ عَرَفَهُ مِنْ عُمَّالِهِ الْمُتَّصِلِينَ بِهِ.

وَقَدْ وَاصَلَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» سَيْرَهُ إِلَى هَذَا الْمَصْنَعِ، بَعْدَ أَنْ ضَاقَتْ بِهِ السُّبُلُ؛ فَرَأَى «الْقَابِضَ» وَاقِفًا عِنْدَ بَابِهِ يُؤَنِّبُ[17] طَائِفَةً مِنْ عُمَّالِهِ، وَيُهَدِّدُ آخَرِينَ، وَيُشِيعُ الْفَزَعَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَحُلُّ فِيهِ، وَيَمْلَأُ بِالرُّعْبِ كُلَّ مَنْ يُدَانِيهِ.[18]

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ»، قَالَ لَهُ: «أَتُرَانِي وَاجِدًا عِنْدَكَ عَمَلًا أُؤَدِّيهِ يَا سَيِّدِي؟»

فَأَجَابَ «الْقَابِضُ»، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى مُحَدِّثِهِ: «لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ أَيُّهَا السَّائِلُ؛ فَعِنْدِي — فِي كُلِّ وَقْتٍ — عَمَلٌ لِكُلِّ رَاغِبٍ فِيهِ مَتَى عَرَفَ كَيْفَ يُؤَدِّيهِ … فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا تُحْسِنُهُ. وَخَبِّرْنِي: أَيُّ الْأَعْمَالِ تُجِيدُهُ وَتُتْقِنُهُ؟»

وَلَمَّا انْتَهَى «الْقَابِضُ» مِنْ إِجَابَتِهِ، رَفَعَ رَأْسَهُ لِيَتَبَيَّنَ وَجْهَ مُحَدِّثِهِ … وَلَمْ تَكَدْ تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنَاهُ، حَتَّى هَالَهُ شَنَاعَةُ مَا يَرَاهُ!

وَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنِ اقْتَضَبَ حَدِيثَهُ،[19] وَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، وَالشَّرَرُ يَكَادُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ لِشِدَّةِ سُخْطِهِ عَلَيْهِ.

وَانْدَفَعَ «الْقَابِضُ» يُمْطِرُ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» سَيْلًا مِنَ اللَّوْمِ وَالسُّخْرِيَةِ.

وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: «أَيُّ دُعَابَةٍ سَخِيفَةٍ اخْتَرْتَهَا، وَأَيُّ سَمَاجَةٍ وَقِحَةٍ آثَرْتَهَا؟ أَفِي مَسْرَحٍ هَازِلٍ أَعْدَدْتَ هَذَا الْمَظْهَرَ الْمَمْسُوخَ؟

وَمَا الَّذِي أَعْجَبَكَ مِنْ صُورَةِ الدِّبَبَةِ حَتَّى ارْتَضَيْتَهَا، وَلَمْ تَخْجَلْ مِنَ الظُّهُورِ بِهَا، وَكَيْفَ جَرُؤْتَ عَلَى الظُّهُورِ بِهَا أَمَامِي، غَيْرَ مُتَهَيِّبٍ بَطْشِي وَانْتِقَامِي!»

---

[17] يؤنب: يوبخ.

[18] يدانيه: يقترب منه.

[19] اقتضب حديثه: اختصره.



فَأَجَابَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» وَقَدْ بَرَّحَ بِهِ الْحُزْنُ:[٢٠] «مَعَاذَ اللهِ — يَا سَيِّدِي — أَنْ أَكُونَ عَابِثًا مُدَاعِبًا، أَوْ خَاتِلًا[٢١] مُشَاغِبًا.

وَإِنِّي لَيُؤْسِفُنِي — عَلِمَ اللهُ — أَنْ أُقَرِّرَ لَكَ أَنَّ هَذَا الْفَرْوَ الْبَشِعَ لَيْسَ — لِسُوءِ حَظِّي — إِلَّا جِلْدِيَ الطَّبِيعِيَّ الَّذِي يَكْسُو جِسْمِي، مُنْذُ وِلَادَتِي إِلَى الْيَوْمِ!

عَلَى أَنَّ مَظْهَرِي لَنْ يَضِيرَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَسَتَرَى مِنْ حُسْنِ قِيَامِي بِمَا تَعْهَدُ إِلَيَّ مِنْ عَمَلٍ، مَا يُنْسِيكَ مَا تَرَى مِنْ قُبْحِ صُورَتِي، وَبَشَاعَةِ هَيْئَتِي.»

---

[٢٠] برح به الحزن: آلمه إيلامًا شديدًا.

[٢١] خاتلًا: مخادعًا.

فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ غَضَبُ «الْقَابِضِ»، وَقَالَ لَهُ وَهُوَ يُرْغِي وَيُزْبِدُ، وَيَتَوَعَّدُ وَيُهَدِّدُ: «لَكَ مَا تُرِيدُ أَيُّهَا الدُّبُّ الْبَشِعُ الْعَنِيدُ.

وَلَنْ أَضِنَّ عَلَيْكَ بِالْعَمَلِ الَّذِي يَجْدُرُ بِكَ أَنْ تُؤَدِّيَهُ!

فَلَيْسَ أَصْلَحَ لِمِثْلِكَ مِنْ أَنْ أُودِعَهُ غِرَارَةً،[٢٢] ثُمَّ أُرْسِلَهُ إِلَى حَدِيقَةِ الْحَيَوَانِ، هَدِيَّةً يَذْكُرُونَهَا لِي بِالشُّكْرِ؛ حَيْثُ يُلْقُونَكَ مَعَ أَمْثَالِكَ، وَهُنَاكَ تَجِدُ مِنَ الْعَمَلِ مَا تَشْغَلُ بِهِ فَرَاغَ وَقْتِكَ، وَتَظَلُّ تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِكَ. فَإِذَا جَهَدَتْكَ الدِّبَبَةُ وَصَرَعَتْكَ،[٢٣] وَمَزَّقَتْ جِلْدَكَ وَأَكَلَتْكَ، أَنْجَتْكَ مِنْ مَتَاعِبِكَ، وَخَلَّصَتْكَ مِنْ شَقَائِكَ وَأَرَاحَتْكَ. فَهَلْ يُرْضِيكَ هَذَا الْعَمَلُ؟ وَهَلْ يَسُرُّكَ أَنْ أُعَجِّلَ لَكَ بِهِ؟ فَإِذَا كُنْتَ تَأْبَاهُ وَلَا تَرْضَاهُ، فَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَعْزُبَ عَنْ وَجْهِي إِذَا أَرَدْتَ لِنَفْسِكَ السَّلَامَةَ، وَآثَرْتَ النَّجَاةَ!»

ثُمَّ رَفَعَ «الْقَابِضَ» هِرَاوَتَهُ مُلَوِّحًا بِهَا فِي الْفَضَاءِ، وَكَادَ يَهْرِيهِ[٢٤] لَوْ لَمْ يُسْرِعِ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» بِمُغَادَرَتِهِ، لِيَخْلُصَ مِنْ أَذِيَّتِهِ، وَيَنْجُوَ مِنْ قَسْوَتِهِ وَشَرَاسَتِهِ.

---

[٢٢] أودعه غرارة: أضعه في زكيبة.

[٢٣] صرعتك الدببة: غلبتك وألقتك على الأرض.

[٢٤] يهريه: يضربه بهراوة.

# وَفَاءُ «نَرْجِسَ»

وَمَشَى «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» فِي طَرِيقِهِ عَائِدًا إِلَى الْبَيْتِ، كَاسِفَ الْبَالِ، مَحْزُونَ الْقَلْبِ فَاتِرَ الْهِمَّةِ.

وَمَا زَالَ يَسِيرُ مُتَمَهِّلًا فِي مِشْيَتِهِ، مُسْتَسْلِمًا لِحَيْرَتِهِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى دَارِهِ الْمُحْتَرِقَةِ بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ.

وَكَانَتْ «نَرْجِسُ» أَوَّلَ مَنْ أَسْرَعَ إِلَى اسْتِقْبَالِهِ.

وَمَا كَادَتْ تَلْقَاهُ حَتَّى أَمْسَكَتْ بِيَدِهِ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهَا دَلَائِلُ الْجِدِّ وَالِاهْتِمَامِ. وَمَشَتْ مَعَهُ إِلَى أُمِّهِ «مَاجِدَةَ» دُونَ أَنْ تَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. وَلَمَّا بَلَغَاهَا، رَكَعَتْ «نَرْجِسُ» أَمَامَهَا ضَارِعَةً وَهِيَ تَقُولُ: «لَقَدْ أَفْضَتْ إِلَيَّ «عَاصِفَةُ»، وَعَلَى سِيمَاهَا عَلَائِمُ التَّشَفِّي وَالِانْتِقَامِ بِكُلِّ مَا كَابَدَهُ وَلَدُكِ — فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمَنْحُوسِ — مِنْ مَصَائِبَ وَآلَامٍ.

فَكَأَنَّمَا صَبَّتَ عَلَيَّ سَوْطَ عَذَابٍ، أَوْ أَلْهَبَتْنِي بِشُوَاظٍ[1] مِنْ نَارٍ!

ثُمَّ جَاءَتْ بَعْدَهَا «لُؤْلُؤَةُ» أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ؛ فَأَسَرَّتْ إِلَيَّ بِمَا لَقِيَهُ وَلَدُكِ الصَّابِرُ الْكَرِيمُ مِنْ هَوْلٍ عَظِيمٍ ... وَكَانَتْ تُحَدِّثُنِي بِمَأْسَاتِهِ، وَالْحُزْنُ يَتَمَثَّلُ فِي نَبَرَاتِ كَلِمَاتِهَا ... وَلَمْ تَحْجُبْ عَنِّي شَيْئًا مِمَّا دَهِمَهُ مِنَ الْآلَامِ، وَالْكَوَارِثِ الْعِظَامِ ... وَقَدْ أَظْهَرَتْ «لُؤْلُؤَةُ» — فِي حَدِيثِهَا مِنَ الْحُنُوِّ وَالْعَطْفِ وَالرِّثَاءِ — مِقْدَارَ مَا أَظْهَرَتْهُ أُخْتُهَا مِنَ الشَّمَاتَةِ وَالتَّشَفِّي وَالِاسْتِهْزَاءِ.

وَلَمْ تَكَدْ تَنْتَهِي مِنْ حَدِيثِهَا الْمُزْعِجِ، حَتَّى تَمَثَّلَتْ أَمَامِي تِلْكَ الْمَأْسَاةُ الْفَاجِعَةُ الَّتِي قَصَصْتِهَا عَلَيْنَا — مُنْذُ يَوْمَيْنِ — حِينَ غَابَ وَلَدُكِ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْكِ الْيَأْسُ مِنْ لِقَائِهِ، فَحَسِبْتِ

---

[1] الشواظ: اللهب الذى لا دخان له.

غَيْبَتَهُ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ؛ فَأَطْلَعْتِنِي عَلَى سِرِّهِ الدَّفِينِ،[2] وَلَمْ تُخْفِي شَيْئًا مِمَّا كَانَ يُوصِيكِ بِكِتْمَانِهِ عَنِّي فِي سَالِفِ السِّنِينَ! نَعَمْ، عَرَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ، وَفَهِمْتُ مِنْ مَأْسَاتِهِ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ أَحَدٌ غَيْرِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ وَلَدِكِ مَا يُقَاسِي مِنْ غُمَّتِهِ، وَيَرْفَعَ عَنْهُ مَا يُكَابِدُ مِنْ آلَامٍ.

وَإِنِّي لَيُسْعِدُنِي — وَايْمُ اللهِ — أَنْ هُيِّئَتْ هَذِهِ الْفُرْصَةُ الَّتِي تُتِيحُ لِي أَنْ أُخَلِّصَهُ مِنْ ضَائِقَتِهِ وَمِحْنَتِهِ، وَأُمَكِّنَهُ مِنِ اسْتِرْدَادِ بَشَرَتِهِ، وَاسْتِرْجَاعِ مَا أَفْقَدَهُ السِّحْرُ مِنْ مَلَاحَتِهِ، وَجَمَالِ صُورَتِهِ!

وَإِنَّ السَّعَادَةَ لَتَغْمُرُ قَلْبِي، كُلَّمَا شَعَرْتُ أَنَّنِي قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ أَهَبَ حَيَاتِي فِدَاءً لَهُ؛ لَعَلِّي أُؤَدِّي بَعْضَ مَا بَذَلَهُ!

وَهَيْهَاتَ أَنْ أُوَفِّيَهُ حَقَّهُ مِنَ الثَّنَاءِ، وَأَقُومَ بِمَا يَسْتَوْجِبُهُ عَلَيَّ فَضْلُهُ مِنَ الْمُكَافَأَةِ وَالْجَزَاءِ.

وَلَقَدْ عَقَدْتُ الْعَزْمَ — يَا أُمَّاهُ — عَلَى تَلْبِيَةِ اقْتِرَاحِ الْجِنِّيَّةِ الْكَرِيمَةِ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ.

وَهَا أَنَا ذِي أَتَوَسَّلُ إِلَى وَلَدِكِ الْآنَ؛ لَعَلَّهُ يَأْذَنُ لِي فِي أَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الْجَلِيلِ، فِي غَيْرِ تَسْوِيفٍ[3] وَلا تَأْجِيلٍ.»

وَمَا كَادَتْ «نَرْجِسُ» تَبْلُغُ — مِنْ حَدِيثِهَا — هَذَا الْمَدَى، حَتَّى بَلَغَ الْغَضَبُ بِـ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» كُلَّ مَبْلَغٍ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ صَرَخَ فِي وَجْهِهَا، وَقَدْ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ[4] مِنْ شِدَّةِ فَزَعِهِ عَلَيْهَا. وَانْدَفَعَ إِلَيْهَا يُحَذِّرُهَا هَوْلَ الْمَصِيرِ.[5]

ثُمَّ قَالَ لَهَا ضَارِعًا مُتَوَسِّلًا: «نَرْجِسُ، نَرْجِسُ! أَلا تَكُفِّينَ عَنْ هَذَا الْعَبَثِ؟! مَا بَالُكِ تُعَرِّضِينَ نَفْسَكِ لِلْخَطَرِ، وَتَتَمَادَيْنَ فِي هَذِهِ الْإِساءَةِ الَّتِي لَا تُغْتَفَرُ؟!

فَبِاللهِ عَلَيْكِ إِلَّا مَا اسْتَرْجَعْتِ دُعَاءَكِ، وَعَاهَدْتِنِي عَلَى أَلَّا تَعُودِي إِلَى هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ مَرَّةً أُخْرَى.

إِيَّاكِ يَا «نَرْجِسُ»! إِيَّاكِ أَنْ تُقْدِمِي عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الشَّنِيعِ، إِنَّكِ لَتَجْهَلِينَ فَدَاحَةَ مَا تُقْدِمِينَ عَلَيْهِ، مِنْ حَيَاةٍ حَافِلَةٍ بِصُنُوفِ الْأَلَمِ وَالشَّقَاءِ.

---

[2] الدفين: الخفي.

[3] في غير تسويف: في غير تأخير.

[4] تهدج صوته: تقطع في ارتعاش.

[5] هول المصير: سوء الخاتمة.

إِنَّكِ لَا تَعْرِفِينَ أَيَّ حَيَاةٍ حَزِينَةٍ قَاتِلَةٍ، تُحَاوِلِينَ أَنْ تَنْكُبِي بِهَا نَفْسَكِ إِذَا أَقْدَمْتِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الطَّائِشِ!

كَلَّا، وَلَسْتِ تُدْرِكِينَ أَيَّ فَزَعٍ يَمْلَأُ قَلْبَكِ، حِينَ تَرَيْنَ صُورَتَكِ قَدْ شُوِّهَتْ وَأَصْبَحَتْ رَائِعَةَ الْقُبْحِ وَالدَّمَامَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ رَائِعَةَ الْجَمَالِ وَالْقَسَامَةِ، فَاتِنَةَ الْحُسْنِ وَالْوَسَامَةِ.[٦]

أَلَا تَكُفِّينَ عَنْ هَذَا الْإِصْرَارِ؟ وَا حَسْرَتَاهُ!

عَجِيبٌ أَمْرُكِ وَاللهِ! مَا بَالُكِ تَتَمَادَيْنَ فِي إِغْضَابِي؟ وَلَا تُبَالِينَ حَسْرَتِي وَعَذَابِي.

أَتَوَسَّلُ إِلَيْكِ، يَا «نَرْجِسُ» أَلَّا تُفَكِّرِي فِي الْعَوْدَةِ إِلَى هَذِهِ الْحَمَاقَةِ مَرَّةً أُخْرَى.»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»، فِي هُدُوءٍ وَإِصْرَارٍ: «إِنَّ مَا أَبْذُلُهُ لَكَ — يَا عَزِيزِي — مِنَ الْفِدَاءِ، إِنَّمَا هُوَ بَعْضُ مَا أَسْلَفْتَهُ إِلَيَّ مِنْ دَيْنٍ وَاجِبِ الْوَفَاءِ مَحْتُومِ الْأَدَاءِ، وَهُوَ — عَلَى إِكْبَارِكَ مِنْ شَأْنِهِ، وَتَعْظِيمِكَ مِنْ أَمْرِهِ — تَافِهٌ قَلِيلٌ، بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا أَسْلَفْتَهُ إِلَيَّ مِنْ جَمِيلٍ.

وَإِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَلَّا أَجِدَ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ هَذَا الْفِدَاءِ لِأَبْذُلَهُ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِكَ. وَمَا أَجْدَرَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَكْبَرَ آمَالِي، وَأَعْظَمَ أَمَانِيَّ، أَنْ أَرَاكَ سَعِيدًا هَانِئًا، وَأَنْ يَتَجَلَّى لِعَيْنَيْكَ مَا أُضْمِرُهُ لَكَ مِنْ تَكْرِيمٍ وَتَبْجِيلٍ، وَاعْتِرَافٍ بِالْجَمِيلِ ... وَإِنِّي لَأَكْبُرُ فِي عَيْنِ نَفْسِي إِذَا وَفَّقَنِي اللهُ إِلَى إِنْجَازِ هَذَا الْمُهِمِّ، وَأَظْفَرَنِي بِبُلُوغِ هَذِهِ الْغَايَةِ؛ بِمِقْدَارِ مَا أَصْغُرُ فِي عَيْنِ نَفْسِي إِذَا أَخْفَقْتُ فِي بُلُوغِهَا، وَعَجَزْتُ عَنْ تَحْقِيقِهَا.»

فَقَالَ لَهَا مُسْتَعْطِفًا: «أَنَاةً — يَا «نَرْجِسُ» — وَصَبْرًا. أَنَاةً[٧] أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ. تَرَيَّثِي، فَمَا بِكِ مِنْ حَاجَةٍ إِلَى الْعَجَلَةِ. فَفَكِّرِي — يَا ابْنَةَ عَمِّ — فِيمَا أَنْتِ قَادِمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ عَزْمٍ أَخْرَقَ، وَانْدِفَاعٍ أَحْمَقَ. وَمَثِّلِي لِنَفْسِكِ مَا أُكَابِدُهُ مِنْ شَقَاءٍ، وَأُعَانِيهِ مِنْ بَلَاءٍ حِينَ أَتَلَفَّتُ فَلَا أَجِدُ أَمَامِي «نَرْجِسَ» الْحَسْنَاءَ!

تَصَوَّرِي مَا تَتَعَرَّضِينَ لَهُ مِنْ سُخْرِيَةِ النَّاسِ وَمَهَانَتِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَفَظَاظَتِهِمْ، وَمَا تُكَابِدِينَهُ مِنْ قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ وَوَقَاحَتِهِمْ!

[٦] الوسامة: الجمال.

[٧] أناة يا نرجس: تمهلي ولا تسرعي.

فَكِّرِي فِي ذَلِكِ كُلِّهِ وَلا تَنْسَيْهِ، وَلَا تَحْكُمِي عَلَى صَدِيقِكِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» الْمِسْكِينِ بِالتَّعَرُّضِ لِهَذِهِ النَّتِيجَةِ الصَّاعِقَةِ، وَمُوَاجَهَةِ هَذِهِ الصَّدْمَةِ!»

فَتَجَهَّمَ وَجْهُ «نَرْجِسَ»، وَبَدَتْ دَلَائِلُ الْقَلَقِ عَلَيْهِ، وَغَاضَ إِشْرَاقُهُ، وَخَيَّمَتْ سَحَابَةٌ مِنَ الْحُزْنِ عَلَى سِيمَاهُ،[٨] وَانْتَظَمَتِ الرِّعْشَةُ جِسْمَهَا مِنْ أَدْنَاهُ إِلَى أَعْلَاهُ، وَتَمَلَّكَهَا الْفَزَعُ حِينَ تَمَثَّلَتْ أَنَّ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لَنْ يُطِيقَ رُؤْيَتَهَا الْمُفَزِّعَةَ، فِي صُورَتِهَا الْجَدِيدَةِ الْبَشِعَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ جَوَابٍ عَمَّا قَالَهُ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَّا أَنْ أَسْرَعَتْ إِلَى «مَاجِدَةَ» مُحْتَمِيَةً بِهَا مُسْتَنْجِدَةً، وَارْتَمَتْ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، حَانِيَةً عَلَيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ لَهَا مُسْتَعْطِفَةً: «أَسْرِعي يَا أُمَّاهُ، فَقَبِّلِي «نَرْجِسَ» آخِرَ قُبْلَةٍ تَطْبَعِينَهَا عَلَى جَبِينِهَا، قَبْلَ أَنْ تُوَدِّعَ «نَرْجِسُ» جَمَالَهَا إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ.»

وَانْدَفَعَتْ «مَاجِدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» إِلَى تَقْبِيلِهَا وَشُكْرِهَا، عَلَى حِينِ وَقَفَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» ذَاهِلًا وَاجِمًا، جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ سَاهِمًا، لَا يَفْتَأُ أَنْ يَنْهَاهَا عَنْ عَزْمِهَا، وَلا يَكُفُّ عَنِ التَّوَسُّلِ إِلَيْهَا، لِتَتْرُكَ لَهُ فَرْوَهُ الْبَشِعَ الَّذِي تَعَوَّدَهُ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَسُرْعَانَ مَا صَاحَتْ «نَرْجِسُ» تُنَادِي أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ، وَتُلِحُّ فِي دَعْوَتِهَا، قَائِلَةً: «هَلُمِّي يَا أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ، تَعَالَيْ يَا سَيِّدَةَ الْجِنِّيَّاتِ، وَأَمِيرَةَ السَّادَاتِ؛ فَقَدْ وَهَبْتُ حَيَاتِي لَهُ فِدَاءً. هَلُمِّي، هَلُمِّي فَانْقُلِي أَثَرَ السِّحْرِ مِنْهُ إِلَيَّ، وَلَا تَأْخُذْكِ — فِي سَبِيلِ هَذَا الْوَاجِبِ — شَفَقَةٌ عَلَيَّ!

هَلُمِّي، فَارْفَعِي ذَلِكِ الْفَرْوَ الْكَثِيفَ، عَنْ جِسْمِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، إِلَى جِسْمِ «نَرْجِسَ» اللَّطِيفَ.»

وَمَا كَادَتْ «نَرْجِسُ» تُتِمُّ نِدَاءَهَا، حَتَّى ظَهَرَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ أَمَامَهَا، فِي أَبْهَى حُلَلِهَا، وَأَتَمِّ جَمَالِهَا، وَقَدْ حَمَلَتْهَا مَرْكَبَةٌ مُلُوكِيَّةٌ، وَارْتَدَتْ ثَوْبًا نَفِيسًا، وَتَدَلَّى عَلَى كَتِفَيْهَا مِعْطَفٌ، نُسِجَ مِنْ شِبَاكِ الْمَاسِ، وَقَدْ تَدَلَّى ذَيْلُهُ خَلْفَهَا عَشْرَ خُطُوَاتٍ، بَعْدَ أَنْ طُرِّزَ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ، وَتَبَدَّى فِي صُورَةٍ شَائِقَةٍ، وَهُوَ فِي مِثْلِ الرِّيشَةِ الْوَاحِدَةِ: رِقَّةً وَوَزْنًا، وَمَنْظَرًا وَلَوْنًا.

---

[٨] سيماه: علامات وجهها.

وَكَانَ شَعْرُهَا يَبْرُقُ، فَيُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ صِيغَ مِنَ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ جَمِيعًا. وَكَانَ يَعْلُو مَفْرِقَهَا[٩] تَاجٌ بَدِيعٌ، صِيغَ مِنْ أَكْرَمِ الْيَوَاقِيتِ وَأَثْمَنِهَا، وَهُوَ يَتَلَأْلَأُ كَمَا تَتَلَأْلَأُ الشُّمُوسُ، وَكَانَتْ تَحْتَذِي نَعْلًا رَائِعَةَ الشَّكْلِ، بَدِيعَةَ الْمَنْظَرِ، صِيغَتْ مِنْ يَاقُوتَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَتْ دَلَائِلُ الْبِشْرِ وَالْإِينَاسِ تَلُوحُ عَلَى وَجْهِهَا، وَهِيَ تَرْنُو إِلَى «نَرْجِسَ» بِعَيْنَيْنِ يَنْبَعِثُ مِنْهُمَا الْإِجْلَالُ وَالْإِكْبَارُ. ثُمَّ أَتْبَعَتْ نَظَرَاتِهَا قَائِلَةً: «لَقَدْ دَعَوْتِنِي يَا فَتَاتِيَ الْعَزِيزَةَ. وَقَدْ لَبَّيْتُ دُعَاءَكِ؛ فَاطْلُبِي مَا تَشَائِينَ، أُحَقِّقْ لَكِ مَا تُرِيدِينَ.»

فَأَسْرَعَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» إِلَى «لُؤْلُؤَةَ» مُتَوَسِّلًا، مُسْتَعْطِفًا، يُحَاوِلُ جُهْدَهُ أَنْ يَثْنِيَهَا عَنْ تَحْقِيقِ مَا تُرِيدُهُ «نَرْجِسُ».

ثُمَّ خَتَمَ رَجَاءَهُ، مُكَرِّرًا قَوْلَهُ: «بِرَبِّكِ يَا أَمِيرَةَ الْجِنِّيَّاتِ، بِحَقِّ مَا أَسْبَغْتِ عَلَيَّ مِنْ جَمِيلٍ فِي إِثْرِ جَمِيلٍ، وَصَنِيعٍ جَلِيلٍ، إِلَّا مَا قَبِلْتِ رَجَائِي، وَأَصْغَيْتِ إِلَى دُعَائِي، وَكَفَفْتِ عَنْ تَلْبِيَةِ رَغْبَتِهَا، وَلَمْ تَسْتَجِيبِي إِلَى طِلْبَتِهَا، رَحْمَةً بِكِلَيْنَا، وَشَفَقَةً عَلَيْنَا.

كُونِي عَلَى ثِقَةٍ — يَا مَوْلَاتِي — أَنَّ مَا هِيَ قَادِمَةٌ عَلَيْهِ، كَفِيلٌ بِتَنْغِيصِ هَنَاءَتِي، وَالْقَضَاءِ عَلَى سَعَادَتِي، وَنَقْلِي مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، إِلَى سَعِيرِ الْجَحِيمِ.

كَلَّا، كَلَّا أَيَّتُهَا الْجِنِّيَّةُ الْكَرِيمَةُ الْعَزِيزَةُ. إِنَّكِ لَا تَرْضَيْنَ أَنْ تُحَوِّلِي عَيْشَنَا الْوَادِعَ الْهَنِيَّ، إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ التَّاعِسِ الشَّقِيِّ!»

---

[٩] مفرقها: وسط رأسها.

# الْمَعْرَكَةُ الْحَاسِمَةُ

وَبَيْنَا كَانَ «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» مُنْدَفِعًا فِي تَوَسُّلِهِ وَرَجَائِهِ، إِذْ أَقْبَلَتْ «لُؤْلُؤَةُ» عَلَى «نَرْجِسَ»، فَلَمَسَتْهَا بِعَصَاهَا اللُّؤْلُئِيَّةِ لَمْسَةً رَقِيقَةً. ثُمَّ لَمَسَتِ «الدُّبَّ الصَّغِيرَ» لَمْسَةً مِثْلَهَا، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى الصَّدِيقَيْنِ الْوَفِيَّيْنِ وَهِيَ تَقُولُ: «لِيَكُنْ مَا يُرِيدُ قَلْبُكِ أَنْتِ يَا بُنَيَّتِيَ الْعَزِيزَةَ، وَلْيَكُنْ لَكَ مَا لَا تُرِيدُ أَنْتَ يَا وَلَدِيَ الْعَزِيزَ.»

وَمَا كَادَتْ «لُؤْلُؤَةُ» تُتِمُّ قَوْلَهَا، حَتَّى انْتَقَلَ الْفَرْوُ الْبَشِعُ إِلَى جِسْمِ «نَرْجِسَ» الْغَضِّ،[1] فَغَطَّى وَجْهَهَا وَذِرَاعَيْهَا، وَكَسَا جِسْمَهَا كُلَّهُ؛ كَمَا خُلِعَ الْفَرْوَ الْبَشِعُ عَنْ جِسْمِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ»، فَبَدَا فِي أَحْسَنِ رُوَائِهِ،[2] وَأَكْمَلِ بَهَائِهِ. وَتَجَلَّى أَمَامَهُمْ فَتًى نَاعِمَ الْبَشَرَةِ غَضَّ الْإِهَابِ، فِي مَيْعَةِ السِّنِّ[3] وَمُقْتَبَلِ الشَّبَابِ! وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ «نَرْجِسُ» فِي إِكْبَارٍ وَإِعْجَابٍ، عَلَى حِينِ خَفَضَ الْمِسْكِينُ مِنْ بَصَرِهِ، وَقَدْ تَفَزَّعَ لِمَا رَأَى مِنْ تَغَيُّرِ «نَرْجِسَ». وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْحَيْرَةُ، مِنْ سُرْعَةِ الْمُفَاجَأَةِ الَّتِي تَمَّتْ فِي مِثْلِ غَمْضَةِ الْعَيْنِ، أَوْ لَمْحَةِ الْبَرْقِ.

وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْتَمِلَ الْكَارِثَةَ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهَا، فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ، ثُمَّ فَتَحَهُمَا، وَانْدَفَعَ إِلَيْهَا بَاكِيًا ... وَبَكَتْ «نَرْجِسُ» مَعَ صَاحِبِهَا.

---

[1] الغض: الطري.

[2] روائه: جماله.

[3] ميعة السن: أول العمر.

وَلَكِنْ شَتَّانَ مَا بَيْنَ الْبُكَاءَيْنِ؛ فَقَدْ بَكَى الْأَمِيرُ لِفَرْطِ حُزْنِهِ عَلَى مَا أَصَابَ «نَرْجِسَ»، وَبَكَتْ «نَرْجِسُ» لِفَرْطِ ابْتِهَاجِهَا بِشِفَاءِ ابْنِ عَمِّهَا.

ثُمَّ شَفَعَتِ الْجِنِّيَّةُ صَنِيعَهَا بِقَوْلِهَا: «وَالْآنَ، يَتَغَيَّرُ لَقَبُكَ الْكَرِيهُ، وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ لَقَبُكَ الْجَدِيدُ، الْجَدِيرُ بِكَ؛ فَأَنْتَ — مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ — الْأَمِيرُ: «فَائِقٌ».

أَمَّا «الدُّبُّ الصَّغِيرُ» فَقَدْ أَصْبَحَ — مُنْذُ الْيَوْمِ — قِصَّةً مِنَ الْقِصَصِ الْمَرْوِيَّةِ، وَأُسْطُورَةً مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْمَحْكِيَّةِ، تُرْوَيَانِ كَمَا تُرْوَى عَجَائِبُ الْقِصَصِ وَغَرَائِبُ الْأَسْمَارِ، لِلْعِظَةِ وَالِاعْتِبَارِ.»

وَانْدَفَعَتْ «مَاجِدَةُ» إِلَى «نَرْجِسَ» تَغْمُرُهَا بِقُبُلَاتِهَا، وَثَنَائِهَا وَدَعَوَاتِهَا.

فَلَمْ تَتَمَالَكْ «نَرْجِسُ» أَنْ هَمَسَتْ فِي أُذُنِ «مَاجِدَةَ»، تَسْأَلُهَا مُتَعَجِّبَةً: «أَتُحِبِّينَنِي الْآنَ يَا أُمَّاهُ بَعْدَ أَنِ انْتَقَلْتُ إِلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ؟!»

فَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا حَانِيَةً عَاطِفَةً، وَأَجَابَتْهَا مُتَوَدِّدَةً مُلَاطِفَةً: «كَيْفَ لَا أُحِبُّكِ أَيَّتُهَا الْفَادِيَةُ الْوَفِيَّةُ، الرَّاضِيَةُ الْمَرْضِيَّةُ؟ لَقَدْ نَمَتْ مَحَبَّتُكِ فِي قَلْبِي، وَزادَتْ أَضْعَافَ مَا كَانَتْ.»

وَانْدَفَعَ إِلَيْهَا الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» يُرَبِّتُهَا[٤] قَائِلًا: «أَتَحْسَبِينَ — يَا «نَرْجِسُ» — أَنَّكِ بِهَذَا الْفَرْوِ قَدْ قَبُحْتِ فِي عَيْنِ مَنْ يَرَاكِ؟ كَلَّا وَايْمُ اللهِ! بَلِ ازْدَدْتِ فِتْنَةً وَرُوَاءً، وَنُورًا وَبَهَاءً.

لَقَدْ كُنْتِ — قَبْلَ الْيَوْمِ — آيَةً مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ، ثُمَّ أَصْبَحْتِ فِي أَعْيُنِنَا — الْآنَ — أَجْمَلَ مِمَّا كُنْتِ أَلْفَ مَرَّةٍ.

إِنَّكِ — يَا «نَرْجِسُ»، بِلَا رَيْبٍ — أَجْمَلُ إِنْسَانَةٍ فِي الْوُجُودِ. وَسَتَكُونِينَ دَائِمًا شَرِيكَتِي فِي الْحَيَاةِ، وَالْمَثَلَ الْأَعْلَى الَّذِي أَتَوَخَّاهُ.»[٥]

وَهَمَسَتْ «نَرْجِسُ» بِشُكْرِ الْأَمِيرِ «فَائِقٍ»، فَلَمْ يَسْمَعْ هَمْسَهَا أَحَدٌ؛ فَقَدْ حَدَثَتْ مُفَاجَأَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي الْحِسْبانِ، وَلَمْ تَكُنْ لتَخْطُرَ ببالِ كَائِنٍ كَانَ؛ فَتَعَالَتِ الصَّيْحَاتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَامْتَلَأَ الْجَوُّ بِالضَّجِيجِ وَالْعَجِيجِ؛ فَضَاعَ صَوْتُ «نَرْجِسَ» فِي ثَنَايَا هَذِهِ الْجَلَبَةِ، وَتَزَايَلَ فِي الْفَضَاءِ، دُونَ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ.

---

[٤] يربتها: يضرب بيده عليها ضربات خفيفة في عطف وحنان.

[٥] أتوخاه: أتطلع إليه.

وَهَبَطَتْ مِنَ الْجَوِّ مَرْكَبَةٌ رَائِعَةُ الْمَنْظَرِ، صُنِعَتْ مِنْ جِلْدِ التِّمْسَاحِ، وَمَا زَالَتِ الْمَرْكَبَةُ تَهْبِطُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، حَتَّى أَصْبَحَتْ قَيْدَ أَنْظَارِهِمْ، وَكَانَ يَجُرُّهَا جَمْهَرَةٌ مِنْ كَبِيرَاتِ الضَّفَادِعِ، يَتَرَجَّحُ عَدَدُهَا بَيْنَ الْخَمْسِينَ وَالسِّتِّينَ.

وَمَا كَادَتِ الضَّفَادِعُ تَسْتَقِرُّ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى تَعَالَتْ مِنْهَا أَصْوَاتٌ مُنْكَرَةٌ. وَكَانَ يَنْبَعِثُ مِنْ حَنَاجِرِهَا نَقِيقٌ، يَتَخَلَّلُهُ زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ؛ تَصْحَبُهُمَا أَصْوَاتٌ غَاضِبَةٌ، وَجَلْجَلَةٌ صَاخِبَةٌ، وَقَفَزَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ مُتَوَاثِبَةٌ، تُدَوِّي فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَيُصِمُّ ضَجِيجَهَا الْآذَانَ.

وَكَادَتِ الضَّفَادِعُ الْخَبِيثَةُ تَبْلُغُ أُمْنِيَّتَهَا، وَتُدْرِكُ غَايَتَهَا، لَوْلَا يَقَظَةُ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ، الَّتِي تَصَدَّتْ لِعِقَابِهَا، وَكَفِّ أَذَاهَا عَنْ أَصْحَابِهَا.

وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّتْ مَرْكَبَةُ «عَاصِفَةَ» عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنْهَا مَخْلُوقَةٌ ضَخْمَةُ الْجِسْمِ، قَبِيحَةُ الرَّسْمِ.

وَلا رَيْبَ أَنَّكَ أَدْرَكْتَ مِمَّا وَصَفْتُ، أَنَّ تِلْكَ الضِّفْدِعَ الْبَشِعَةَ لَمْ تَكُنْ غَيْرَ «عَاصِفَةَ» أَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ. وَكَانَتْ عَيْنَاهَا الْجَاحِظَتَانِ تَبْدُوَانِ لِمَنْ يَرَاهُمَا كَأَنَّمَا بَرَزَتَا مِنْ رَأْسِ شَيْطَانٍ، عَلَى حِينَ يُغَطِّي أَنْفُهَا الْكَبِيرُ الْأَفْطَسُ الضَّخْمُ خَدَّيْنِ ذَابِلَيْنِ.

وَكَانَ فُوهَا يَتَّسِعُ، وَشِدْقَاهَا يَمْتَدَّانِ مِنْ إِحْدَى أُذُنَيْهَا إِلَى الْأُخْرَى؛ فَإِذَا فَتَحَتْهُ تَكَشَّفَ عَنْ لِسَانٍ مَسْنُونٍ حَادٍّ، شَدِيدِ السَّوَادِ، لَا يَكُفُّ عَنْ لَعْقِ مَا يَتَكَاثَفُ عَنْ أَسْنَانِهَا الْمُثَلَّمَةِ مِنْ لُعَابٍ أَخْضَرَ، يَتَقَزَّزُ الْأَنْفُ وَالنَّاظِرُ مِنْ لَوْنِهِ وَرَائِحَتِهِ، وَيَتَفَزَّعُ الْفِكْرُ وَالْخَاطِرُ مِنْ تَصَوُّرِهِ وَفَظَاعَتِهِ.

وَكَانَتْ قَامَتُهَا ثَلَاثَ أَقْدَامٍ عَلَى التَّقْرِيبِ.

وَهِيَ — إِلَى ذَلِكَ — كَثِيفَةُ الشَّعْرِ، كَبِيرَةُ الْحَجْمِ، مُتَرَهِّلَةُ الْجِسْمِ، صَفْرَاءُ الشَّحْمِ، مُنْتِنَةُ اللَّحْمِ، يَطْفُو دُهْنُهَا عَلَى بَطْنِهَا، فَيُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّهُ طَبْلٌ أَجْوَفُ، لَا بَطْنُ ضِفْدِعٍ أَعْجَفَ![٦]

أَمَّا جِلْدُهَا الْأَسْمَرُ، فَكَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ اللُّزُوجَةِ وَالْبُرُودَةِ، كَمَا يَجْمَعُ شَعْرُهَا الْقَلِيلُ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسُّمْرَةِ. ثُمَّ تَتَدَلَّى فَتَائِلُ الشَّعْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى عُنُقِهَا الْمُلْتَوِي، وَتَلْتَفُّ حَوْلَهُ، مُهَوَّشَةً غَيْرَ مُتَسَاوِيَةٍ.

---

[٦] أعجف: هزيل.

وَكَانَتْ يَدَاهَا الْكَبِيرَتَانِ الْمُفَلْطَحَتَانِ تَبْدُوَانِ كَأَنَّهُمَا زِعْنِفَتَانِ[٧] كَبِيرَتَانِ. أَمَّا ثَوْبُهَا فَكَانَ مِنْ جِلْدِ الْبُزَاقِ، كَمَا كَانَ مِعْطَفُهَا مِنْ جِلْدِ الضَّفَادِعِ الْبَرَّاقِ.

وَتَقَدَّمَتْ «عَاصِفَةُ» نَحْوَ الْأَمِيرِ «فَائِقٍ»، فِي بُطءٍ وَحَذَرٍ. وَقَدِ اشْتَدَّ غَيْظُهَا مِنْهُ، بَعْدَ أَنْ تَغَيَّرَ لَقَبُهُ الْبَغِيضُ، وَاسْتُبْدِلَ بِهِ ذَلِكَ اللَّقَبُ الْجَمِيلُ، لَقَبُ: الْأَمِيرِ «فَائِقٍ»، وَهُوَ — كَمَا تَرَى — أَجْدَرُ الْأَلْقَابِ بِهِ، وَأَدْنَاهَا إِلَيْهِ، وَأَكْثَرُهَا انْطِبَاقًا عَلَيْهِ.



ثُمَّ وَقَفَتْ «عَاصِفَةُ» أَمَامَهُ تَتَحَدَّاهُ غَاضِبَةً، وَأَلْقَتْ بِنَظْرَةٍ أُخْرَى عَلَى أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ، مُتَأَلِّمَةً عَاتِبَةً.

ثُمَّ اتَّجَهَتْ إِلَى «نَرْجِسَ» بِنَظْرَةٍ مُنْكَرَةٍ حَانِقَةٍ، يَشِعُّ فِيهَا مِزَاجٌ مِنَ الْحِقْدِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالصَّلَفِ وَالْكِبْرِيَاءِ: نَظَرَاتٌ تَدُلُّ عَلَى لُؤْمِ صَاحِبَتِهَا، وَخُبْثِ نِيَّتِهَا، وَفَسَادِ طَوِيَّتِهَا.

ثُمَّ ضَمَّتْ «عَاصِفَةُ» ذِرَاعَيْهَا الضَّخْمَتَيْنِ عَلَى بَطْنِهَا، وَقَالَتْ فِي صُرَاخٍ يُشْبِهُ الْبُكَاءَ وَالنُّوَاحَ، تُخَالِطُهُ بُحَّةٌ مُزْعِجَةٌ: «هَنِيئًا لِلْأَمِيرِ «فَائِقٍ» مَا ظَفِرَ بِهِ — بَعْدَ طُولِ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ — مِنْ فَوْزٍ وَنَصْرٍ. هَنِيئًا لَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؛ فَقَدْ غَلَبْتَنِي عَلَى أَمْرِي وَقَهَرْتَنِي، وَأَرْغَمْتَ أَنْفِي وَأَذْلَلْتَنِي.

[٧] زعنفتان: الزعنفة جناح السمك.

وَلَئِنْ عَجَزْتُ عَنْ هَزِيمَتِكَ أَمَامَ إِصْرَارِكَ وَصِدْقِ عَزِيمَتِكَ، فَإِنَّ الْفُرْصَةَ لَا تَزَالُ سَانِحَةً أَمَامِي.

وَسَتَرَى أَنَّكَ لَنْ تَظْفَرَ بِالسَّعَادَةِ الْحَقِّ عَلَى أَيِّ حَالٍ، وَسَيَظَلُّ الْعَذَابُ رَائِدَكَ طُولَ عُمْرِكَ، لَا يَفْتَأُ يُعَكِّرُ عَلَيْكَ صَفْوَ أَيَّامِكَ، كُلَّمَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ لَمْ تَسْتَرِدَّ جَمَالَكَ الْفَاتِنَ إِلَّا بَعْدَ فِدَاءٍ عَظِيمٍ، أَطَاحَ بِسَعَادَةِ هَذِهِ الصَّغِيرَةِ الْحَسْنَاءِ، بَعْدَ أَنْ سَلَبَ مِنْهَا الْحُسْنَ وَالرُّوَاءَ.

وَسَيَكُونُ عِقَابُكَ عَلَى جَرِيمَتِكَ الشَّنْعَاءِ: أَنَّكَ لَنْ تُطِيقَ رُؤْيَتَهَا بَعْدَ أَنْ غَاضَ جَمَالُهَا وَسُلِبَ بَهَاؤُهَا.»

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَى «نَرْجِسَ»، وَفِي نَظْرَتِهَا شَمَاتَةٌ وَخَسَاسَةٌ، وَاسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «مَا أَجْدَرَكِ بِاللَّوْمِ وَالرِّثَاءِ، أَيَّتُهَا الْحَسْنَاءُ الشَّوْهَاءُ!

وَحَسْبُكِ عِقَابًا عَلَى تَعَجُّلِكِ وَإِسْرَاعِكِ، وَتَهَوُّرِكِ وَانْدِفَاعِكِ،[٨] أَنْ تَقْضِي مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِكِ الطَّوِيلِ، فِي الْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ، مُتَفَزِّعَةً مِنْ شَقَاءٍ كُتِبَ، وَجَمَالٍ سُلِبَ، وَمُسْتَقْبَلٍ أَسْوَدَ، وَعَيْشٍ أَنْكَدَ، وَمِحْنَةٍ تَطُولُ، وَبَلَاءٍ لَا يَزُولُ، وَسَيَتَجَلَّى لَكِ — عَمَّا قَرِيبٍ — صِدْقُ مَا أَقُولُ!»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «كَلَّا، يَا سَيِّدَتِي. فَمَا شَعَرْتُ بِأَسَفٍ وَلَا نَدَمٍ.

وَلَقَدْ أَدَّيْتُ لِابْنِ عَمِّي بَعْضَ مَا يَفْرِضُ عَلَيَّ الْوَفَاءُ مِنْ دَيْنٍ واجِبِ الْأَدَاءِ ... وَلَوْ أَسْتَطِيعُ كُنْتُ لَهُ فِدَاءً!»

[٨] اندفاعك: تسرعك.

# خَاتِمَةُ الْمَعْرَكَةِ

وَهُنَا ظَهَرَ الْغَيْظُ عَلَى وَجْهِ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةِ التَّوَابِعِ، مِنْ جُرْأَةِ «عَاصِفَةَ» وَصَفَاقَتِهَا، وَإِسْرَافِهَا فِي غَيْظِهَا وَشَمَاتَتِهَا.

غَضِبَتْ «لُؤْلُؤَةُ» النَّبِيلَةُ عَلَى أُخْتِهَا، وَضَاقَتْ ذَرْعًا بِشُرُورِهَا وَإِسَاءَاتِهَا؛ فَظَهَرَ عَلَى أَسَارِيرِهَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعَزْمٍ، وَقُدْرَةٍ وَحَزْمٍ؛ فَرَفَعَتْ عَصَاهَا فِي وَجْهِ «عَاصِفَةَ» وَهِيَ تَقُولُ: «صَهٍ[1] أَيَّتُهَا الشِّرِّيرَةُ! حَسْبُكِ[2] مَا أَلْحَقْتِ بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْوَادِعَةِ مِنْ كَيْدٍ وَانْتِقَامٍ، وَمَا أَنْزَلْتِ بِهَا مِنْ مَصَائِبَ وَآلَامٍ.

حَسْبُكِ مَا أَسْلَفْتِ مِنْ شَرِّكِ، وَكُونِي — مُنْذُ الْيَوْمِ — عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكِ؛ فَلَنْ أُمَكِّنَكِ مِنَ الْإِسَاءَةِ لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ مَا بَقِيتُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَلَنْ تَبْلُغِي مِنْ كَيْدِكِ — بَعْدَ الْآنَ — شَيْئًا مِمَّا تَأْمُلِينَ. وَسَتَرَيْنَ فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ أَنَّ الْبَغْيَ سَرِيعُ الزَّوَالِ، وَلَنْ يُفْلِحَ كَيْدُكِ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

لَقَدْ وَقَفْتُ حَيَاتِي عَلَى نُصْرَةِ «نَرْجِسَ» وَ«فَائِقٍ»، وَالدِّفَاعِ عَنْهُمَا، وَحَلِّ مَا تَعَقَّدَ مِنْ أَمْرِهِمَا، بَعْدَ مَا عَرَفْتُهُ مِنْ طَهَارَةِ قَلْبَيْهِمَا، وَصِدْقِ وَفَائِهِمَا.

وَلَنْ يَضِيعَ جَمِيلُهُمَا سُدًى، وَلَنْ يُخَيِّبَ اللهُ رَجَاءَهُمَا أَبَدًا. وَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الْمُخْلِصِينَ، وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ!»

---

[1] صه: اسكتي.

[2] حسبك: يكفيك.

فَقَالَتْ «عَاصِفَةُ» فِي لَهْجَةٍ مِثْلِ دَوِيِّ الرَّعْدِ، مُجَلْجِلَةٍ قَاصِفَةٍ: «حَذَارِ أَنْ تُسَاعِدِيهِمَا بَعْدَ الْيَوْمِ. وَإِيَّاكِ أَنْ تُسِدِي إِلَيْهِمَا يَدًا، وَإِلَّا عَرَّضْتِ نَفْسَكِ لِلرَّدَى.[3]

وَخَيْرٌ لَكِ أَنْ تَسْتَشْعِرِي النَّدَمَ عَلَى مَا جَنَيْتِ، وَتَرْجِعِي مِنْ حَيْثُ أَتَيْتِ.

وَحَذَارِ أَنْ تَتَعَمَّدِي سُخْطِي وَإِغْضَابِي، فَتَحُلَّ بِكِ نِقْمَتِي وَعِقَابِي، ثُمَّ لَا يُنْجِيكِ مِنِّي — بَعْدَ ذَلِكِ — كَائِنٌ كَانَ.»

فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهَا «لُؤْلُؤَةُ» عَابِسَةً مُتَجَهِّمَةً، وَأَجَابَتْهَا سَاخِرَةً مُتَهَكِّمَةً: «أَلِمِثْلِي يُقَالُ هَذَا الْكَلَامُ؟ إِنَّكِ لَتَرُومِينَ — بِحَمَاقَتِكِ — مَا لَا يُرَامُ!

أَوَتَحْسَبِينَنِي أَخَافُ التَّهْدِيدَ، أَوْ أَجْزَعُ مِنَ الْوَعِيدِ؟

وَلَوْ شِئْتُ لَعَاقَبْتُكِ، وَنَكَّلْتُ بِكِ[4] وَأَدَّبْتُكِ.

وَلَكِنَّنِي أَكْرَمُ مِنْ أَنْ أَجْزِيَكِ عَلَى إِسَاءَتِكِ، وَأُعَاقِبَكِ عَلَى حَمَاقَتِكِ ... وَقَدْ رَأَيْتُ — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — أَنْ أَتَجَاوَزَ عَنْ زَلَّتِكِ.»

فَصَرَخَتْ «عَاصِفَةُ» وَقَدِ اشْتَدَّ بِهَا الْغَضَبُ، قَائِلَةً لَهَا: «ما أَشَدَّ جُرْأَتَكِ، وَأَعْجَبَ بَلَاهَتِكِ؛ إِذْ تَتَظَاهَرِينَ بِالصَّفْحِ وَالْمَغْفِرَةِ، كَأَنَّمَا نَسِيتِ أَنَّ الْعَفْوَ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ!

وَمِنْ أَيْنَ لَكِ الْقُدْرَةُ عَلَيَّ، وَالتَّمَكُّنُ مِنَ الْإِسَاءَةِ إِلَيَّ؟

إِنَّمَا يَصْدُرُ الْعَفْوُ مِنْ مِثْلِي، لِقُدْرَتِي وَنُبْلِي. وَلَوْلَا ذَلِكِ لَمَزَّقْتُ جِسْمَكِ أَشْلَاءً.»[5]

وَتَمَادَتْ «عَاصِفَةُ» فِي سُخْطِهَا، وَأَصَمَّتْ أُذُنَهَا عَنْ سَمَاعِ نَصِيحَةِ أُخْتِهَا. واشْتَدَّ بِهَا الْغَيْظُ حَتَّى أَخَذَ مِنْهَا كُلَّ مَأْخَذٍ، وَسَدَّ عَلَيْهَا — مِنْ طَرَائِقِ الْعَقْلِ — كُلَّ مَنْفَذٍ، فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ صَرَخَتْ فِي وَجْهِ أُخْتِهَا مُتَوَعِّدَةً.

وَانْبَعَثَ مِنْ فَمِهَا صَفِيرٌ مُزْعِجٌ يُصِمُّ الْآذَانَ، وَتَقْشَعِرُّ مِنْ هَوْلِهِ الْأَبْدَانُ.

وَارْتَفَعَتْ فِي الْهَوَاءِ لِتَأْدِيبِ أُخْتِهَا وَمُعَاقَبَتِهَا، بَعْدَ أَنْ أَمَرَتْ ضَفَادِعَهَا بِقَذْفِ سُمُومِهَا ... وَتَعَالَتِ الضَّفَادِعُ تَقُودُهُنَّ زَعِيمَتُهُنَّ، مُحَاوِلَاتٍ أَنْ يَرْتَفِعْنَ إِلَى مَرْكَبَةِ «لُؤْلُؤَةَ»، لِيُمْطِرْنَهَا سُمُومَهُنَّ.

---

[3] الردى: الهلاك.

[4] نكلت بك: عذبتك.

[5] أشلاء: أجزاء متفرقة.

وَلَمْ تَكُنْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ غَافِلَةً عَنْ كَيْدِ أُخْتِهَا، فَلَمْ تُؤْخَذْ عَلَى غِرَّتِهَا،[٦] وَلَمْ يَجُزْ عَلَيْهَا مَكْرُهَا.

وَسُرْعَانَ مَا ارْتَفَعَتْ «لُؤْلُؤَةُ» بِمَرْكَبَتِهَا وَقَنَابِرِهَا فَوْقَ مُتَنَاوَلِ السُّمُومِ.

وَمَا زَالَتْ مَرْكَبَتُهَا فِي ارْتِفَاعٍ، وَمَرْكَبَةُ خُصُومِهَا فِي انْخِفَاضٍ، حَتَّى عَلَتِ الْقَنَابِرُ فَوْقَ أَعْدَائِهِنَّ مِائَةَ ذِرَاعٍ.

وَلَمْ يُهْلِكِ السَّمُّ مِنْ جُنُودِ «لُؤْلُؤَةَ» غَيْرَ عَدَدٍ قَلِيلٍ، لَا يَشْفِي — مِنْ صُدُورِ أَعْدَائِهَا — الْغَلِيلَ.[٧]

وَانْقَضَّتْ «لُؤْلُؤَةُ» عَلَى أُخْتِهَا انْقِضَاضَ الصَّقْرِ، وَانْدَفَعَتْ إِلَيْهَا فِي سُرْعَةِ السَّهْمِ الْمَارِقِ، وَهَوَتْ مَعَ قَنَابِرِهَا عَلَى الضَّفَادِعِ فَفَقَأْنَ عُيُونَهُنَّ بِأَظْفَارِهِنَّ، ثُمَّ ارْتَفَعَتْ بِمَرْكَبَتِهَا مَرَّةً أُخْرَى؛ قَبْلَ أَنْ يَتَّسِعَ الْوَقْتُ لِأَمِيرَةِ الزَّوَابِعِ لِمُسَاعَدَةِ جَيْشِهَا، فِي حَرْبِ عَدُوِّهَا.

وَكَانَ صِيَاحُ الضَّفَادِعِ وَصَفِيرُ الْقَنَابِرِ يَمْلَآنِ الْجَوَّ ضَجِيجًا وَعَجِيجًا يُصِمَّانِ الْآذَانَ. وَصَاحَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ تُوصِي جُنُودَهَا وَأَعْوَانَهَا — مِنَ الْقَنَابِرِ اللَّائِي كُنَّ يَشْهَدْنَ الْمَعْرَكَةَ — وَتُحَذِّرُهُنَّ قَائِلَةً: «ابْتَعِدْنَ، وَاسْدُدْنَ آذَانَكُنَّ، حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِلصَّمَمِ مِنْ أَصْوَاتِ أَعْدَائِكُنَّ.»

وَسُرْعَانَ مَا أَذْعَنَتِ الْقَنَابِرُ لِتَنْفِيذِ مَا أَمَرَتْهُنَّ بِهِ زَعِيمَتُهُنَّ. وَضَاعَفَتْ «عَاصِفَةُ» مِنْ قُوَّتِهَا، وَاسْتَلْهَمَتْ كُلَّ غَضَبِهَا وَقَسْوَتِهَا، ثُمَّ كَرَّتْ[٨] عَلَى الْقَنَابِرِ ثَانِيَةً، بَاذِلَةً آخِرَ مَا تَمْلِكُ مِنْ جُهْدٍ. وَأَقْبَلَتْ هِيَ وَجُنُودُهَا مُنْدَفِعَاتٍ يُهَاجِمْنَ الْقَنَابِرَ مُتَحَمِّساتٍ، وَيَقْذِفْنَهُنَّ بِالسُّمُومِ الْمُهْلِكَاتِ.

وَلَكِنَّ أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ خَبِيرَةٌ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحَرْبِ، فَظَلَّتْ هِيَ وَجُنُودُهَا يَرْتَفِعْنَ فَوْقَ الضَّفَادِعِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثْنَ أَنْ يَهْوِينَ عَلَيْهِنَّ مُنْقَضَّاتٍ، سَاحِقَاتٍ أَجْسَامَهُنَّ مُنْتَصِرَاتٍ.

---

[٦] لم تؤخذ على غرتها: لم تفاجأ.

[٧] الغليل: شدة العطش.

[٨] كرت: هجمت ثانية.

وَظَلَّتْ «عَاصِفَةُ» تُحَاوِلُ أَنْ تَعْلُوَ بِمَرْكَبَتِهَا عَلَى مَرْكَبَةِ أُخْتِهَا، فَلا تَسْتَطِيعُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. وَهُنَالِكَ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْغَضَبُ فَأَذْهَلَهَا، وَسَلَبَ مِنْهَا عَقْلَهَا وَخَبَّلَهَا؛ فَانْدَفَعَتْ تَصِيحُ فِي جُنُونٍ وَحَمَاقَةٍ: «مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْبَاطِشَةُ، أَيَّتُهَا الْبَلْهَاءُ الطَّائِشَةُ؟ لَا رَيْبَ أَنَّ مَلِكَةَ الْجِنِّيَّاتِ تُسَاعِدُكِ!

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكِ؛ فَهِيَ — فِيمَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ — عَجُوزٌ حَمْقَاءُ، غَبِيَّةٌ بَلْهَاءُ! وَسَيَكُونُ الْهَلَاكُ عِقَابَهَا، وَالْجَحِيمُ مُسْتَقَرَّهَا. وَمَا أَسْعَدَنِي حِينَ أَرَاهَا فِي أَعْمَاقِ سَقَرَ،[٩] بَادِيَةَ الذُّلِّ وَالِانْكِسَارِ، مُكْتَوِيَةً بِالزَّمْهَرِيرِ وَالنَّارِ!»

وَمَا كَادَتْ «عَاصِفَةُ» تُتِمُّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى لاحَقَتْهَا لَعْنَةُ مَلِيكَةِ الْجِنِّ؛ فَهَوَتْ مَرْكَبَتُهَا إِلَى الْأَرْضِ، وَأَنَاخَتْ عَلَى الضَّفَادِعِ بِثِقْلِهَا … وَسُحِقَتِ الْمَرْكَبَةُ بِكُلِّ مَنْ فِيهَا، وَهَلَكَتِ الضَّفَادِعُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ جُمُوعِهِنَّ إِلَّا أَفْرَادٌ.

وَوَقَفَتْ «عَاصِفَةُ» وَحْدَهَا ضَعِيفَةً مُسْتَخْذِيَةً، وَقَدِ انْتَقَلَتْ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى الْهَرَمِ، وَمِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ، وَأَصْبَحَتْ ضِفْدِعًا عَجُوزًا، تُحَاوِلُ الْكَلَامَ فَلَا تَسْتَطِيعُ بَعْدَ أَنْ أَصَابَهَا الْخَرَسُ، فَلَا تَقْدِرُ عَلَى غَيْرِ الصَّفِيرِ.

وَاشْتَدَّ حَنَقُهَا، وَتَعَاظَمَ غَضَبُهَا عَلَى «لُؤْلُؤَةَ» أُخْتِهَا وَقَنَابِرِهَا، وَعَلَى الْأَمِيرِ «فَائِقٍ» وَ«نَرْجِسَ» وَ«مَاجِدَةَ» جَمِيعًا؛ وَلَكِنَّ قُدْرَتَهَا عَلَى الْأَذَى وَالشَّرِّ تَزَايَلَتْ وَتَخَاذَلَتْ، وَأَدْرَكَهَا الضَّعْفُ وَالْإِعْيَاءُ،[١٠] فَأَعْجَزَاهَا عَنْ الِانْتِقَامِ.

وَهُنَا هَبَطَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ إِلَى الْأَرْضِ بِمَرْكَبَتِهَا، وَنَزَلَتْ مِنْهَا وَهِيَ تَقُولُ: «لَقَدْ أَنْزَلَتْ بِكِ مَلِكَةُ الْجِنِّيَّاتِ مَا أَنْتِ أَهْلٌ لَهُ مِنْ عِقَابٍ؛ جَزَاءً لَكِ عَلَى جُرْأَتِكِ. فَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ، وَاعْتَصِمِي بِالتَّوْبَةِ إِذَا أَرَدْتِ النَّجَاةَ.»

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ جَوَابٍ إِلا أَنْ قَذَفَتِ الْقَنَابِرَ بِسَمِّهَا؛ فَلَمْ تُصِبْ مِنْهُنَّ أَحَدًا لِحُسْنِ الْحَظِّ.

---

[٩] سقر: جهنم.

[١٠] الإعياء: التعب.

وابْتَدَرَتْهَا[11] «لُؤْلُؤَةُ» مُلَوِّحَةً بِعَصَاهَا[12] وَهِيَ تَقُولُ: «الْآنَ تَحِقُّ عَلَيْكِ لَعْنَةُ أَمِيرَةِ الْجِنِّ. وَقَدْ حَكَمَتْ عَلَيْكِ أَنْ تَقْضِي حَيَاتَكِ سَجِينَةً مُنْزَوِيَةً، وَأَنْ تَسْتَخْفِي عَنِ الْعُيُونِ، ثُمَّ لَا تَظْهَرِي فِي طَرِيقِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ بَعْدَ الْيَوْمِ.»

وَمَا انْتَهَتْ «لُؤْلُؤَةُ» مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى كُتِبَتْ عَلَى «عَاصِفَةَ» اللَّعْنَةُ، فَتَوَارَتْ مَعَ ضَفَادِعِهَا، وَأَصْبَحَتْ عَاجِزَةً عَنِ الْإِسَاءَةِ، وَلَمْ يَبْقَ لِمَرْكَبَتِهَا أَثَرٌ.

---

[11] ابتدرتها: أسرعت إليها.

[12] ملوحة بعصاها: محركة لها.

# حَدِيثُ الْأَوْفِيَاءِ

وَلَبِثَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ سَاهِمَةً وَاجِمَةً،[1] بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمَعْرَكَةِ الْفَاصِلَةِ الْحَاسِمَةِ. وَاسْتَغْرَقَتْ لَحَظَاتٍ فِي صَمْتِهَا، تَتَصَفَّحُ مَا مَرَّ بِهَا مِنْ عَجَائِبِ الْأَحْدَاثِ فِي يَوْمِهَا. ثُمَّ مَرَّتْ بِرَاحَتِهَا[2] عَلَى جَبِينِهَا، كَأَنَّمَا تَمْحُو مَا عَلِقَ بِهِ مِنْ ذِكْرَيَاتٍ قَدِيمَةٍ، وَأَحْدَاثٍ بَغِيضَةٍ مُحْزِنَةٍ.

وَمَا انْتَهَتْ مِنْ تَصَفُّحِ تِلْكَ الْمَأْسَاةِ، حَتَّى أَقْبَلَتْ عَلَى الْأَمِيرِ «فَائِقٍ» تُؤْنِسُهُ وَتَرْعَاهُ، وَتُرَفِّهُ عَنْهُ مَا حَزَنَهُ وَشَجَاهُ، وَتَمْحُو مِنْ ذِكْرَيَاتِهِ مَا آلَمَهُ وَأَضْنَاهُ،[3] غَيْرَ مُدَّخِرَةٍ جُهْدًا فِي تَخْفِيفِ عَذَابِهِ، وَتَهْوِينِ مُصَابِهِ.

ثُمَّ خَتَمَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «الْآنَ يَبْدَأُ عَهْدُ أُنْسِكَ وَسَعَادَتِكَ، وَيَنْقَضِي زَمَنُ نَحْسِكَ وَشَقَاوَتِكَ … وَلَنْ يُنَادِيَكَ أَحَدٌ — بَعْدَ الْيَوْمِ، أَيُّهَا الْأَمِيرُ — بِغَيْرِ لَقَبِكَ الْجَدِيدِ.

أَنْتَ الْآنَ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» كَمَا بَشَّرْتُكَ مِنْ قَبْلُ، فَأَنْتَ أَجْدَرُ[4] الْأُمَرَاءِ بِهَذَا اللَّقَبِ، وَهُوَ أَجْدَرُ الْأَلْقَابِ بِكَ. لَقَدْ بَرْهَنْتَ — بَعْدَ اخْتِبَارٍ طَوِيلٍ — عَلَى أَنَّكَ فَائِقٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ وَلَيْسَ يُدَانِيكَ[5] — فِي شَجَاعَتِكَ وَفَضَائِلِكَ — إِنْسَانٌ، وَلَا يَفُوقُكَ فِي مَزَايَاكَ وَشَمَائِلِكَ أَحَدٌ مِنْ كِرَامِ الْعَفَارِيتِ وَالْجَانِّ.

---

[1] ساهمة واجمة: حزينة.

[2] براحتها: بيدها.

[3] أضناه: أتعبه.

[4] أجدر: أحق.

[5] يدانيك: يقاربك.

وَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ الَّذِي أُفْضِي إِلَيْكَ فِيهِ بِمَا حُجِبَ عَنْكَ مِنْ عَجِيبِ الْأَخْبَارِ، وَأَبُوحُ لَكَ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُكَ مِنْ خَفِيِّ الْأَسْرَارِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ أَوَانًا، وَلِكُلِّ حَدِيثٍ زَمَانًا!

وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّكَ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» ابْنُ «الْبَاطِشِ»: زَوْجِ الْمَلِكَةِ «زُبَيْدَةَ».

أَرَاكَ تُغْمِضُ عَيْنَيْكَ، وَتُمِرُّ عَلَى جَبِينِكَ يَدَيْكَ، تُحَاوِلُ أَنْ تَعُودَ بِذَاكِرَتِكَ إِلَى مَاضِيكَ؛ لَعَلَّكَ تَعْرِفُ: مَنْ هِيَ «زُبَيْدَةُ»؟ وَلَكَ مَوْفُورُ الْعُذْرِ.

وَإِنْ كُنْتَ — بِرَغْمِ ذَلِكَ — أَعْرَفَ النَّاسِ بِفَضْلِهَا، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهَا، وَأَعَزَّهُمْ لَدَيْهَا، وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهَا، وَأَعْطَفَهُمْ عَلَيْهَا، وَأَبَرَّهُمْ بِهَا، وَأَجْدَرَهُمْ بِحُنُوِّهَا.

إِنَّهَا أُمُّكَ الَّتِي عَرَفْتَهَا بِاسْمِ «مَاجِدَةَ»!

وَهُوَ اسْمٌ مُسْتَعَارٌ، تَخَيَّرْتُهُ لَهَا — بَعْدَ أَنْ فَارَقَتْ مُلْكَهَا — حَتَّى لَا يَفْطُنَ[٦] «الْبَاطِشُ» إِلَى مَكَانِهَا، وَلَا يَهْتَدِيَ إِلَى مَقَرِّهَا، وَلَا يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِهَا، بَعْدَ أَنْ هَجَرَتْ مَمْلَكَتَهُ إِلَى هَذِهِ الدَّسْكَرَةِ الْقَصِيَّةِ، فِي زِيِّ فَلَّاحَةٍ قَرَوِيَّةٍ.

وَقَدْ عُرِفَتْ أُمُّكَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — بِاسْمِ «مَاجِدَةَ»، كَمَا عُرِفْتَ أَنْتَ بِاسْمِ «الدُّبِّ الصَّغِيرِ» ... وَلَازَمَتْكُمَا التَّسْمِيَتَانِ، وَلَصِقَ بِكُمَا اللَّقَبَانِ، مُنْذُ حَالَفَكُمَا النَّحْسُ، الَّذِي انْقَضَى عَهْدُهُ بِانْقِضَاءِ أَمْسِ.

وَهَكَذَا دَارَ الزَّمَنُ دَوْرَتَهُ، وَانْتَهَى عَهْدُ الشَّقَاءِ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، وَاسْتَرْجَعْتُمَا لَقَبَيْكُمَا السَّعِيدَيْنِ؛ لِتَسْتَقْبِلَا عَهْدًا حَافِلًا بِفُنُونِ الْهَنَاءِ، وَالْبِشْرِ وَالصَّفَاءِ؛ جَزَاءً بِمَا صَبَرْتُمَا، وَمُكَافَأَةً لَكُمَا عَلَى مَا كَابَدْتُمَا وَقَاسَيْتُمَا.

وَلَعَلَّكَ أَدْرَكْتَ مِنَ اللَّقَبِ الَّذِي أَطْلَقَهُ النَّاسُ عَلَى أَبِيكَ مَا كَانَ يَنْطَوِي عَلَيْهِ طَبْعُهُ مِنْ شَرَاسَةٍ وَفَظَاظَةٍ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ هِيَاجِهِ وَثَوْرَتِهِ عَلَى الْمَلِكَةِ «زُبَيْدَةَ»، حِينَ هَمَّتْ أَنْ تَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَتْلِ «فَيْرُوزَ» وَزَوْجَتِهِ «سَلْوَى». وَأَوَّلُهُمَا أَخُوهُ، وَالثَّانِيَةُ زَوْجُ أَخِيهِ.

وَكَانَتْ مُكَافَأَةُ «الْبَاطِشِ» الَّتِي أَسْدَاهَا إِلَى «زُبَيْدَةَ»، أَنْ يَتَنَكَّرَ لَهَا وَيَضْطَهِدَهَا، وَيَجْزِيَهَا عَلَى صُنْعِهَا الْجَمِيلِ، وَمَعْرُوفِهَا الْجَلِيلِ، بِأَنْ يَحْقِدَ عَلَيْهَا، وَيُصِرَّ عَلَى مُعَاقَبَتِهَا، وَالْبَطْشِ بِهَا.

[٦] لا يفطن: لا ينتبه.

وَقَدْ كَادَ يَتِمُّ لَهُ مَا أَرَادَ؛ لَوْ لَمْ أَتَدَارَكْهَا — بِعَوْنٍ مِنَ اللهِ — قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ.

وَكَانَ مِنْ حُسْنِ الْحَظِّ، وَجَمِيلِ التَّوْفِيقِ، أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ مُعَاوَنَتِهَا، وَأُبَادِرَ[٧] إِلَى نَجْدَتِهَا؛ فَأَسْرَعْتُ إِلَى سَحَابَةٍ عَابِرَةٍ طَائِرَةٍ عَلَى مَتْنِ الرِّيَاحِ، فَرَفَعْتُ إِلَيْهَا «زُبَيْدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ»، ثُمَّ زَجَّيْتِ[٨] الْغَمَامَةَ بِهِمَا، حَتَّى انْتَهَتَا إِلَى هَذِهِ الدَّسْكَرَةِ الَّتِي أَعْدَدْتُهَا لَهُمَا، وَتَخَيَّرْتُهَا لِسُكْنَاهُمَا. وَأَوْصَيْتُهُمَا أَنْ تُلَازِمَاهَا وَلَا تَبْرَحَاهَا، حَتَّى تَنْقَضِيَ شِقْوَتُهُمَا، وَيَتَبَدَّلَ نَحْسُهُمَا.

أَرَاكَ تَتَطَلَّعُ مُتَعَجِّبًا مَدْهُوشًا، كَأَنَّمَا تَتَعَجَّلُ سَمَاعَ بَقِيَّةِ الْقِصَّةِ، لِتَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ «نَرْجِسَ»: صَاحِبَتِكَ الْوَفِيَّةِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

فَقَالَ لَهَا الْأَمِيرُ «فَائِقٌ»: «مَا عَدَوْتِ مَا فِي نَفْسِي يَا مَوْلَاتِي؛ فَهَاتِي حَدِيثَكِ الشَّائِقَ هَاتِي!»

فَاسْتَأْنَفَتْ «لُؤْلُؤَةُ» قَائِلَةً: «لَقَدِ اسْتَطَاعَتِ الْمَلِكَةُ «زُبَيْدَةُ» — كَمَا أَسْلَفْتُ — أَنْ تُنْقِذَ بِفَضْلِ جُرْأَتِهَا وَشَجَاعَتِهَا عَمَّكَ وَزَوْجَةَ عَمِّكَ مِنْ بَطْشِ أَبِيكَ. وَلَوْ قُتِلَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمَا أَنْجَبَا «نَرْجِسَ» الَّتِي أَسْعَدَتْ حَيَاتَكَ، وَسَبَّبَتْ نَجَاحَكَ، وَأَصْبَحَتْ مَصْدَرَ أُنْسِكَ، وَبَهْجَةَ نَفْسِكَ.

وَكَانَتْ حَيَاةُ «نَرْجِسَ» أَكْبَرَ مُكَافَأَةٍ ظَفِرَتْ بِهَا أُمُّكَ؛ جَزَاءً لَهَا عَلَى مَا قَدَّمَتْهُ مِنْ جَمِيلٍ لـ «فَيْرُوزَ» وَ«سَلْوَى»: أَبَوَيْ «نَرْجِسَ»، حِينَ وُفِّقَتْ — أَوَّلَ مَرَّةٍ — إِلَى إِنْقَاذِهِمَا مِنْ بَطْشِ أَبِيكَ! عَلَى أَنَّهَا — وَا أَسَفَاهُ — قَدْ أَنْقَذَتْهُمَا إِلَى حِينٍ! ثُمَّ لَمْ يَلْبَثِ «الْبَاطِشُ» — بَعْدَ أَنْ سَافَرَتْ «زُبَيْدَةُ» بِأَعْوَامٍ — أَنْ ظَفِرَ بِهِمَا، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِاغْتِيَالِهِمَا[٩] وَاسْتِئْثَارِهِ[١٠] بِالْمُلْكِ بَعْدَهُمَا!

ثُمَّ مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَالسِّنُونُ، وَ«الْبَاطِشُ» لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيًا فِي ظُلْمِهِ وَطُغْيَانِهِ؛ حَتَّى هَاجَ النَّاسُ وَمَاجُوا، وَبَلَغَ بِهِمُ الْغَيْظُ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَلَمْ يَتَمَالَكُوا أَنْ بَطَشُوا بِهِ ... وَتَمَّ لَهُمْ مَصْرَعُهُ مُنْذُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ.

---

[٧] أبادر: أسرع.

[٨] زجيت: سقت.

[٩] باغتيالهما: بقتلهما.

[١٠] استئثاره: انفراده.

ثُمَّ اجْتَمَعُوا أَمْسِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَنْ يُوَلُّونَهُ عَلَى عَرْشِهِ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَأَخْبَرْتُهُمْ بِمَا أَثْلَجَ صُدُورَهُمْ،[11] وَحَقَّقَ أَحْلَامَهُمْ.

وَلَا تَسَلْ عَنِ ابْتِهَاجِهِمْ حِينَ عَلِمُوا أَنَّ الْأَمِيرَ «فَائِقًا» وَلِيَّ الْعَرْشِ، لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

وَسَتَرَى غَدًا فِي قَصْرِ أَبِيكَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فَتَاةً مِنَ الْأَمِيرَاتِ، أَنْجَبَهُنَّ اثْنَا عَشَرَ مَلِكًا مِنْ جِيرَانِ أَبِيكَ، فَلَمْ يَلْبَثِ «الْبَاطِشُ» أَنْ أَغَارَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُمْ،[12] وَاعْتَقَلَ بَنَاتِهِمُ الْأَمِيرَاتِ فِي قَصْرِهِ، دُونَ أَنْ يَسْتَشْعِرَ شَيْئًا مِنَ الرَّحْمَةِ فِي قَتْلِ آبَائِهِنَّ.

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَنْ شِئْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَمِيرَاتِ، لِتَكُونَ شَرِيكَةَ حَيَاتِكَ، وَسَائِسَةَ الْمَمْلَكَةِ مَعَكَ؛ فَإِنَّهُنَّ جَمِيعًا مِنْ بَنَاتِ الْمُلُوكِ، كَمَا أَسْلَفْتُ.

وَسَتَرَى مِنْ حُسْنِ أَدَبِهِنَّ، وَمَوْفُورِ عَقْلِهِنَّ، مَا يَسُرُّكَ وَيُرْضِيكَ، وَيُحَقِّقُ كُلَّ أَمَانِيِّكَ.»

وَكَأَنَّمَا انْقَضَّتْ صَاعِقَةٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى قَلْبِ الْأَمِيرِ «فَائِقٍ» مِنْ هَوْلِ مَا سَمِعَهُ مِنْ «لُؤْلُؤَةَ».

وَحَانَتْ مِنْهُ الْتِفَاتَةٌ إِلَى «نَرْجِسَ» فَرَأَى وَجْهَهَا مُمْتَقِعًا، وَالدُّمُوعُ تَتَرَقْرَقُ فِي عَيْنَيْهَا مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ.

فَسَأَلَهَا مُتَعَجِّبًا: «مَاذَا يُبْكِيكِ يَا «نَرْجِسُ» الْعَزِيزَةَ؟

أَتَظُنِّينَ أَنَّنِي أَرْضَى بِصُحْبَتِكِ بَدِيلًا؟

أَوَتَحْسَبِينَنِي أَخْجَلُ مِنَ الظُّهُورِ مَعَكِ أَمَامَ النَّاسِ، يَا أَجْمَلَ مَنْ رَأَيْتُ، وَأَكْرَمَ مَنْ عَرَفْتُ؟

مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَتَنَكَّرَ لَكِ، أَوْ أَنْسَى مَا أَسْدَيْتِهِ إِلَيَّ مِنْ جَمِيلٍ إِثْرَ جَمِيلٍ...[13] كَلَّا، لَنْ يَكُونَ إِلَّا مَا تُحِبِّينَ. كَيْفَ أَنْسَاكِ بَعْدَ أَنْ وَلَّى زَمَانُ النَّحْسِ. وَاقْتَرَبَتْ سَاعَةُ الْعُرْسِ؟!

كَلَّا، لَا تَفْتَرِقُ «نَرْجِسُ» عَنْ شَرِيكِ حَيَاتِهَا «فَائِقٍ»، وَلَنْ يَعُوقَ زَوَاجَهُمَا — إِنْ شَاءَ اللهُ — عَائِقٌ؟»

---

[11] أثلج صدروهم: طمأنهم.

[12] قهرهم: غلبهم.

[13] جميل إثر جميل: جميل بعد جميل.

فَقَالَتْ لَهُ مُتَعَجِّبَةً: «كَيْفَ تُفَكِّرُ فِي الزَّوَاجِ بِي يَا ابْنَ عَمٍّ؟ إِنَّكَ بِهَذَا تَطْلُبُ الْمُحَالَ؟ وَتَخْدَعُ نَفْسَكَ بِكَاذِبِ الْآمَالِ.

كَيْفَ تُشَارِكُكَ فِي الْمُلْكِ دُبَّةٌ شَوْهَاءُ؟ وَكَيْفَ تُوَاجِهُ بِهَا رَعِيَّتَكَ وَوُزَرَاءَكَ، وَأَنْدَادَكَ مِنَ الْمُلُوكِ وَنُظَرَاءَكَ؟

فَلَا تُعَرِّضْ نَفْسَكَ — مِنْ أَجْلِي — لِلسُّخْرِيَةِ وَاللَّوْمِ، وَلَا يَشْغَلْكَ أَمْرِي بَعْدَ الْيَوْمِ. وَحَسْبِي أَنْ أَقْضِيَ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِي عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْكَ، مُنْزَوِيَةً فِي رُكْنٍ خَفِيٍّ، مِنْ بَلَدٍ قَصِيٍّ.[١٤] حَسْبِي ذَلِكَ فَمَا أَطْمَعُ فِي أَكْثَرَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ وَاجِبَاتِ الْوَفَاءِ أَلَّا يُعَرِّضَ الْإِنْسَانُ صَاحِبَهُ لِلْحَرَجِ وَالِامْتِهَانِ.»

وَحَاوَلَ الْمَلِكُ «فَائِقٌ» أَنْ يَثْنِيَهَا عَنْ رَأْيِهَا، وَلَمْ يَدَّخِرْ وُسْعًا فِي سَبِيلِ إِقْنَاعِهَا، فَلَمْ يَظْفَرْ مِنْ ذَلِكَ بِطَائِلٍ.[١٥]

وَأَرَادَتِ الْمَلِكَةُ «زُبَيْدَةُ» أَنْ تُهَوِّنَ عَلَى وَلَدِهَا مَا صَعُبَ مِنَ الْأَمْرِ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تُزَيِّنُ لَهُ اقْتِرَاحَ «نَرْجِسَ».

فَلَمْ يُصْغِ إِلَى نَصِيحَتِهَا، وَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِهَا.

وَأَعَادَتْ عَلَيْهِ الرَّجَاءَ، فَلَمْ يَزْدَدْ إِلَّا رَفْضًا وَإِبَاءً؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ يَئِسَتْ مِنْ إِقْنَاعِهِ.

وَرَأَتْ «حَلِيمَةُ» مَا يَعْتَرِضُ سَعَادَتَهُ مِنْ عَقَبَةٍ لَا سَبِيلَ إِلَى تَذْلِيلِهَا؛ فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ بَاكِيَةً، مُسْتَعْطِفَةً، تَسْأَلُهُ أَلَّا يُخَيِّبَ رَجَاءَ أُمِّهِ وَرَجَاءَهَا، وَأَنْ يَأْخُذَ بِاقْتِرَاحِ «زُبَيْدَةَ» وَ«نَرْجِسَ»؛ فَلَمْ تَجِدْ مِنْهُ إِلَّا إِعْرَاضًا وَإِبَاءً.

وَلَمَّا رَآهُنَّ لَا يَكْفُفْنَ عَنْ تَكْرَارِ النُّصْحِ، وَلَا يَكَادُ الْيَأْسُ يَدِبُّ فِي قُلُوبِهِنَّ، حَتَّى يُعَاوِدَهُنَّ الْأَمَلُ فِي إِقْنَاعِهِ مِنْ جَدِيدٍ، تَوَجَّهَ إِلَى «نَرْجِسَ» وَقَالَ لَهَا فِي إِصْرَارٍ وَعَزْمٍ: «إِذَا لَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا إِلَّا أَنْ نَخْتَارَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، وَنُفَاضِلَ بَيْنَ «نَرْجِسَ» وَالْمُلْكِ، فَلَا مَجَالَ لِلتَّرَدُّدِ.

فَقَدْ أَسْعَدَتْنِي «نَرْجِسُ» وَأَنَا بَعِيدٌ عَنِ الْمُلْكِ، وَلَنْ يُسْعِدَنِي الْمُلْكُ وَأَنَا بَعِيدٌ عَنْ «نَرْجِسَ».

---

[١٤] قصي: بعيد.

[١٥] طائل: فائدة.

فَكَيْفَ أَتَنَكَّبُ[١٦] عَنْ سَبِيلِ السَّعَادَةِ، وَهُوَ أَمَامِي وَاضِحٌ جَلِيٌّ؟

إِنَّ صَوْلَجَانَ الْمُلْكِ وَأُبَّهَةَ السُّلْطَانِ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَجْلُبَا لِنَفْسِي مِنَ السَّعَادَةِ بَعْضَ مَا أَلْقَاهُ فِي جِوَارِكِ مِنْ بِشْرٍ وَإِينَاسٍ.

وَإِنِّي لَأَرَى فِي دَسْكَرَتِنَا الصَّغِيرَةِ — وَأَنْتِ إِلَى جِوَارِي — سَعَادَةً تَتَضَاءَلُ أَمَامَهَا سَعَادَاتُ الدُّنْيَا جَمِيعًا. وَخَيْرٌ لَنَا أَنْ يُظَلِّلَنَا سَقْفٌ وَاحِدٌ نَعِيشُ تَحْتَهُ فِي بِشْرٍ وَإِينَاسٍ، بَعِيدَيْنِ عَنِ النَّاسِ.

وَالرَّأْيُ لـ «نَرْجِسَ» عَلَى كُلِّ حَالٍ.

فَكَيْفَ تُرِيدِينَ؟ وَأَيَّ السَّعَادَةِ تُفَضِّلِينَ؟»

فَقَالَتْ «نَرْجِسُ»: «أَمَّا الْآنَ فَلا سَبِيلَ لِي عَلَيْكَ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَرْفُضَ رَأْيَكَ الْحَكِيمَ، وَاقْتِرَاحَكَ الْكَرِيمَ! وَمَا أَسْعَدَنَا بِقَضَاءِ أَيَّامِنَا فِي هَذِهِ الدَّسْكَرَةِ الصَّغِيرَةِ، وَادِعَيْنَ هَانِئَيْنَ، كَمَا قَضَيْنَاهَا فِيمَا مَضَى مِنْ عُمْرِنَا، مُتَوَافِقَيْنِ فِي ذَوْقَيْنَا، سَعِيدَيْنِ فِي حَيَاتَيْنَا.»

فَقَالَتِ الْجِنِّيَّةُ، وَقَدْ بَهَرَهَا إِخْلَاصُهُمَا، وَفَتَنَهَا وَفَاؤُهُمَا: «عَلَى رِسْلِكُمَا أَيُّهَا الْأَمِيرَانِ النَّبِيلَانِ.

قَرَّا عَيْنًا وَطِيبَا نَفْسًا أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ الْوَفِيَّانِ؛ فَقَدْ كَفَلْتُ لَكُمَا السَّعَادَةَ وَالْهَنَاءَةَ، وَلَنْ تَلْقَيَا إِلَّا مَا تُحِبَّانِ؛ فَإِنَّ مَنْ يَنْفَرِدُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشَّمَائِلِ الْعَالِيَةِ جَدِيرٌ أَنْ يُذَلَّلَ لَهُ الْمُحَالُ؛ وَيَدْنُو لَهُ الْبَعِيدُ مِنَ الْآمَالِ، وَيَظْفَرَ مِنْ فُنُونِ السَّعَادَةِ بِمَا لَا يُنَالُ.»

---

[١٦] أتنكب: أبعد.

# عَوْدَةٌ إِلَى الْبِئْرِ

ثُمَّ سَكَتَتْ «لُؤْلُؤَةُ» قَلِيلًا، وَاسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «إِنِّي لَيُسْعِدُنِي أَنْ أَضَعَ حَدًّا لِشَقَائِكُمَا، أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ.»

ثُمَّ اتَّجَهَتْ «لُؤْلُؤَةُ» إِلَى «فَائِقٍ» وَرَبَّتَتْ كَتِفَهُ، وَقَالَتْ لَهُ مُبْتَسِمَةً: «وَإِنَّهُ لَيَطِيبُ لِي أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ فِي غَوْرِ الْبِئْرِ — الَّتِي نَقَلْتُكَ إِلَيْهَا لِأُنْقِذَكَ مِنْ خَطَرِ الْحَرِيقِ — كَنْزًا نَفِيسًا مِنَ الْعِطْرِ لَا يُقَوَّمُ بِمَالٍ، وَسَيَجْلُبُ لَكَ وَلـ «نَرْجِسَ» كُلَّ مَا تَحْلُمَانِ بِهِ مِنْ سَعَادَةٍ وَرَاحَةِ بَالٍ. فَأَسْرِعْ — يَا «فَائِقُ» — إِلَى الْبِئْرِ، وَلَا تَتَوَانَ[1] فِي الْبَحْثِ عَنْهُ، ثُمَّ أَحْضِرْهُ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ تَحْصُلَ عَلَيْهِ. وَسَأُطْلِعُكَ عَلَى فَائِدَتِهِ مَتَى جِئْتَنِي بِهِ.»

فَبَادَرَ الْأَمِيرُ إِلَى الْبِئْرِ — وَكَانَ السُّلَّمُ لَا يَزَالُ فِيهَا — ثُمَّ هَبَطَ دَرَكَاتِ السُّلَّمِ، فَبَلَغَ قَرَارَهَا فِي رَشَاقَةٍ وَخِفَّةٍ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ غَيْرَ السَّجَّادَةِ الَّتِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَهَا فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى جُدْرَانِ الْبِئْرِ؛ يَفْحَصُ عَنْهَا بِعِنَايَةٍ وَانْتِبَاهٍ وَيَقَظَةٍ، فَلَمْ يَجِدْ مَا يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ كَنْزٍ.

وَلَكِنَّهُ كَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ صِدْقِ «لُؤْلُؤَةَ»؛ فَلَمْ يَدِبَّ إِلَى قَلْبِهِ الْيَأْسُ مِنْ إِدْرَاكِ طِلْبَتِهِ. وَعَنَّ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ السَّجَّادَةَ، لَعَلَّ الْكَنْزَ مَخْبُوءٌ تَحْتَهَا.

---

[1] لا تتوانَ: لا تقصر ولا تتأخر.

وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ حَتَّى لاحَ لَهُ حَجَرٌ أَسْوَدُ فِي وَسَطِهِ حَلْقَةٌ صَغِيرَةٌ. فَأَمْسَكَ بِالْحَلْقَةِ وَجَذَبَهَا إِلَيْهِ، فَارْتَفَعَ الْحَجَرُ، وَظَهَرَ تَحْتَهُ صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ، يَتَلَأْلَأُ كَمَا تَتَلَأْلَأُ النُّجُومُ.

فَقَالَ «فَائِقٌ» فِي نَفْسِهِ: «لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْكَنْزَ الَّذِي حَدَّثَتْنِي عَنْهُ الْجِنِّيَّةُ «لُؤْلُؤَةُ».»

ثُمَّ حَمَلَ الصُّنْدُوقَ فَلَمْ يَشْعُرْ لَهُ بِثِقْلٍ، وَخُيِّلَ إِلَيْهِ لِخِفَّةِ وَزْنِهِ أَنَّهُ يَحْمِلُ قِشْرَةَ جَوْزَةٍ أَوْ بُنْدُقَةٍ ... فَصَعِدَ السُّلَّمَ — وَهُوَ يَحْمِلُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ بِعِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ — فَوَجَدَ الْجَمْعَ فِي انْتِظَارِ عَوْدَتِهِ ... وَوَضَعَ الصُّنْدُوقَ أَمَامَ الْجِنِّيَّةِ.

فَصَاحَتْ «زُبَيْدَةُ» تَقُولُ لِأَمِيرَةِ التَّوَابِعِ «لُؤْلُؤَةَ»: «يا للهِ! أَلَيْسَ هَذَا الصُّنْدُوقُ هُوَ بِعَيْنِهِ الَّذِي أَوْدَعْتِنِي إِيَّاهُ[٢] يَا سَيِّدَتِي؟ فَكَيْفَ سَلِمَ مِنَ النَّارِ؟»

فَقَالَتِ الْجِنِّيَّةُ «لُؤْلُؤَةُ»: «هُوَ بِعَيْنِهِ، وَهَا هُوَ ذَا مِفْتَاحُهُ، أُقَدِّمُهُ لِلْمَلِكِ «فَائِقٍ» هَدِيَّةَ الْعُرْسِ. إِنَّهُ مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ! هَلُمَّ يَا «فَائِقُ»، فَافْتَحْ بِهِ الصُّنْدُوقَ.»

فَأَسْرَعَ «فَائِقٌ» إِلَى فَتْحِهِ. وَلا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْبَةِ وَالْحُزْنِ حِينَ فَتَّشَ عَنِ الْكَنْزِ الْمَنْشُودِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا فِي الصُّنْدُوقِ.

وَكَانَ كُلُّ مَا عَثَرَ عَلَيْهِ سِوَارَ «نَرْجِسَ» الَّذِي كَانَتْ تَتَحَلَّى بِهِ عِنْدَمَا لَقِيَهَا وَهِيَ رَاقِدَةٌ فِي الْغَابَةِ، وَإِلَى جَانِبِ السِّوَارِ زُجَاجَةُ عِطْرٍ زَكِيِّ الرَّائِحَةِ.

فَنَظَرَتِ الْجِنِّيَّةُ إِلَيْهِمْ — وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ — ثُمَّ ضَحِكَتْ لِمَا رَأَتْهُ عَلَى أَسَارِيرِهِمْ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالدَّهْشَةِ، وَتَنَاوَلَتِ السِّوَارَ، فَقَدَّمَتْهُ إِلَى «نَرْجِسَ» قَائِلَةً: «إِلَيْكِ — أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ الْكَرِيمَةُ — هَدِيَّةَ الزَّوَاجِ، وَهِيَ مِنْحَةٌ مِنِّي لَكِ يَا ابْنَتِي الْعَزِيزَةَ.

وَاعْلَمِي أَنَّ كُلَّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْ هَذِهِ اللَّآلِئِ الْكَرِيمَةِ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَعْصِمَ[٣] حَامِلَهَا مِنَ السِّحْرِ، وَتُجَنِّبَهُ الْأَذَى وَالشَّرَّ، وَتَمْنَحَهُ أَسْمَى الْفَضَائِلِ، وَتُهَيِّئَ لَهُ كُلَّ أَنْواعِ الْغِنَى وَالرَّخاءِ، وَتُضْفِيَ عَلَيْهِ آيَاتِ الرَّوْعَةِ وَالْجَمَالِ، وَالْمَهَابَةِ وَالْجَلالِ، وَتُعِينَهُ بِالْعَقْلِ الرَّاجِحِ وَالسَّعَادَةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا.

---

[٢] أودعتني إياه: تركته عندي وديعة.

[٣] تعصم: تحفظ.

فَادَّخِرِيهَا لِأَبْنَائِكِ الَّذِينَ سَتُرْزَقِينَ بِهِمْ مِنَ الْأَمِيرِ فَائِقٍ.»

ثُمَّ تَنَاوَلَتِ الزُّجَاجَةَ، وَقَالَتْ: «وَأَمَّا هَذِهِ الزُّجَاجَةُ الْعِطْرِيَّةُ، فَهِيَ هَدِيَّةُ ابْنِ عَمِّكِ لِزَوَاجِكِ. وَقَدْ آثَرْتُكِ[٤] بِهَا لِأَنَّكِ تُحِبِّينَ الْعُطُورَ. وَسَتَتَكَشَّفُ لَكِ مَزَايَاهَا الْجَلِيلَةُ بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ؛ فَانْتَفِعِي بِهَا مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ.

وَسَأَمُرُّ غَدًا عَلَيْكُمَا، لِأَحْمِلَكُمَا إِلَى مَمْلَكَتِكُمَا.»

فَقَالَ لَهَا «فَائِقٌ»: «لَقَدْ نَزَلْتُ عَنِ الْمُلْكِ يَا سَيِّدَتِي، وَحَسْبِي أَنْ أَعِيشَ هُنَا مَعَ «نَرْجِسَ» الْعَزِيزَةِ الْمُخْلِصَةِ.»

فَقَاطَعَتْهُ الْمَلِكَةُ «زُبَيْدَةُ»، مُسَائِلَةً: «وَلِمَنْ تَتْرُكُ عَرْشَ مَمْلَكَتِكَ يَا وَلَدِي؟»

فَأَجَابَهَا «فَائِقٌ»: «أَنْتِ بِالْمُلْكِ أَجْدَرُ يَا أُمَّاهُ.

وَإِنِّي لَيُسْعِدُنِي أَنْ تَتَوَلَّيْهِ، وَأَنْ تَقْبَلِي رَجَائِي وَلَا تَرْفُضِيهِ.

أَمَّا أَنَا، فَهَيْهَاتَ أَنْ أَرْضَاهُ، وَأَقُومَ بِأَعْبَائِهِ وَأَتَوَلَّاهُ!»

وَهَمَّتِ الْمَلِكَةُ أَنْ تُعْلِنَ رَفْضَهَا تَاجَ ابْنِهَا، وَلَكِنَّ الْجِنِّيَّةَ حَذَّرَتْهَا أَنْ تَنْطِقَ بِشَيْءٍ، وَانْبَرَتْ لَهَا قَائِلَةً: «حَذَارِ أَنْ تَتَعَجَّلِي بِالْكَلَامِ فِي هَذَا الْأَمْرِ؛ فَإِنَّ أَوَانَهُ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ. وَنَصِيحَتِي إِلَيْكِ أَنْ تُرْجِئِيهِ[٥] إِلَى الْغَدِ. أَلَيْسَ الْغَدُ بِقَرِيبٍ؟»

ثُمَّ قَالَتْ «لُؤْلُؤَةُ» لِلْأَمِيرِ بِصَوْتٍ عَذْبٍ، نَاظِرَةً إِلَيْهِ فِي حُنُوٍّ وَعَطْفٍ: «لَقَدْ مَنَعْتُ أُمَّكَ عَنِ الْكَلَامِ فِي هَذَا الصَّدَدِ. وَلَنْ آذَنَ لَكَ — أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْمَحْبُوبُ — فِي تَرْكِ الْمُلْكِ عَلَى أَيِّ حَالٍ؛ فَحَذَارِ أَنْ تَتَسَرَّعَ فِي رَفْضِهِ! وَعَلَيْكَ بِالتَّرَوِّي وَالصَّبْرِ؛ فَلَا تُبْرِمْ رَأْيًا وَلَا تَنْقُضْهُ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَيْكَ؛ فَوَدَاعًا.

وَسَأَلْقَاكَ غَدًا لِأُضْفِيَ عَلَيْكَ وَعَلَى «نَرْجِسَ» كُلَّ مَا تَحْلُمَانِ بِهِ مِنْ سَعَادَةٍ.

فَإِذَا تَمَّ لَكُمَا هَذَا — وَهُوَ مِنْكُمَا قَرِيبٌ — فَلَا تَنْسَيَا «لُؤْلُؤَةَ» صَدِيقَتَكُمَا الْوَفِيَّةَ، وَلَا تَشْغَلْكُمَا السَّعَادَةُ الشَّامِلَةُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِيهَا بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ.»

---

[٤] آثرتك: خصصتك.

[٥] ترجئيه: تؤخريه.

ثُمَّ صَعِدَتْ «لُؤْلُؤَةُ» إِلَى مَرْكَبَتِهَا، وَطَارَتْ — وَمَعَهَا قَنَابِرُهَا — مُسْرِعَةً.

وَلَمْ تَنْقَضِ عَلَى طَيَرَانِهَا لَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ، حَتَّى غَابَتْ عَنِ الْأَنْظَارِ، بَعْدَ أَنْ خَلَّفَتْ وَرَاءَهَا رَائِحَةً عَبِقَةً.[٦]

فَنَظَرَ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» إِلَى صَاحِبَتِهِ «نَرْجِسَ» الْوَفِيَّةِ، وَقَلْبُهُ يَفِيضُ حُزْنًا وَأَلَمًا.

وَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ يُذْرِفَ مِنْ عَيْنَيْهِ عَبْرَةً[٧] تَنُمُّ عَمَّا يُسَاوِرُ نَفْسَهُ مِنْ لَوْعَةٍ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا زَفْرَةً، تَحْمِلُ كُلَّ مَا يُعَانِيهِ مِنْ مَعَانِي التَّفَجُّعِ وَالْحَسْرَةِ.

وَلَمْ يَخْفَ عَلَى «نَرْجِسَ» مَا يُكَابِدُهُ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» مِنْ آلَامٍ.

فَقَالَتْ لَهُ مُبْتَسِمَةً: «شَدَّ مَا أَنْتَ جَمِيلٌ يَا ابْنَ عَمٍّ! شَدَّ مَا أَنَا سَعِيدَةٌ بِانْقِضَاءِ عَهْدِ النَّحْسِ وَالشَّقَاءِ، وَحُلُولِ عَهْدِ السُّرُورِ وَالْهَنَاءِ؛ بَعْدَ أَنْ سَلِمْتَ مِنَ الشَّرِّ، وَنَجَوْتَ مِنَ السِّحْرِ، وَاسْتَرْجَعْتَ جَمَالَكَ، وَبَلَغْتَ آمَالَكَ.

وَمَا أَدْرِي أَيَّةُ رَائِحَةٍ زَكِيَّةٍ تَعْبَقُ فِي هَذَا الْمَكَانِ!

أَلَيْسَتْ هِيَ رَائِحَةَ الْعِطْرِ الْبَدِيعِ الَّذِي قَدَّمَتْهُ لَنَا «لُؤْلُؤَةُ» الْكَرِيمَةُ؟

يا لَهُ مِنْ عِطْرٍ زَكِيٍّ، لَمْ أَرَ لِرَائِحَتِهِ مَثِيلًا!

وَإِنِّي لَيَبْهَجُنِي أَنْ أَصُبَّ قَطَرَاتٍ مِنْهُ عَلَى يَدِي، لَعَلِّي أُعَوِّضَ بِطِيبِهَا مَا لَحِقَ وَجْهِي مِنْ تَشْوِيهٍ.»

ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِيَدِهَا زُجَاجَةَ الْعِطْرِ، ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، لِتَصُبَّ عَلَى جَبِينِهَا شَيْئًا مِمَّا تَحْوِيهِ.

وَحَاوَلَتْ أَنْ تَفْتَحَ سِدَادَهَا، فَاسْتَعْصَى عَلَيْهَا.

فَأَمْسَكَ الْأَمِيرُ بِالزُّجَاجَةِ، وَقَلْبُهُ يَخْفِقُ خَفْقًا شَدِيدًا مُتَوَاصِلًا، وَيَدَاهُ تَرْتَعِشَانِ مِنْ فَرْطِ التَّأَثُّرِ، دُونَ أَنْ يَدْرِيَ لِذَلِكَ سَبَبًا.

وَمَا إِنْ فَتَحَ سِدَادَ الْقَارُورَةِ[٨] حَتَّى صَبَّ عَلَى «نَرْجِسَ» قَطَرَاتٍ مِمَّا تَحْوِيهِ مِنْ عِطْرٍ.

---

[٦] رائحة عبقة: عطرة الشذى.

[٧] عبرة: دمعة.

[٨] القارورة: الزجاجة.

وَلَمْ تَكَدْ هَذِهِ الْقَطَرَاتُ الْمُعَطَّرَةُ تَمَسُّ جَبِينَهَا حَتَّى وَقَعَتِ الْمُفَاجَأَةُ الَّتِي بَهَرَتْهُمَا، وَغَمَرَتْ بِالْبَهْجَةِ قَلْبَيْهِمَا، وَكَادَا — لِفَرْطِ مَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِمَا مِنَ الْحَيْرَةِ — لَا يُصَدِّقَانِ أَعْيُنَهُمَا.

وَلَعَلَّكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ — سَتَشْرَكُهُمَا فِي الدَّهَشِ وَالْفَرَحِ، حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ قَطَرَاتِ الْعِطْرِ لَمْ تَكَدْ تَمَسُّ وَجْهَ «نَرْجِسَ» حَتَّى زَالَ كُلُّ أَثَرٍ لِلْفَرْوِ الْبَغِيضِ، الَّذِي كَانَ يُغَطِّي وَجْهَهَا الْبَضَّ، وَيُشَوِّهُ جَمَالَهَا الْغَضَّ!

وَسُرْعَانَ مَا عَادَ إِلَيْهَا صَفَاؤُهَا، وَإِشْرَاقُهَا وَبَهَاؤُهَا.

وَمَا كَادَا يُبْصِرَانِ مَا تَفَرَّدَ بِهِ الْعِطْرُ السِّحْرِيُّ الْعَجِيبُ مِنْ مِيزَةٍ صَادِقَةٍ، وَيَتَحَقَّقَانِ مَا رَأَيَاهُ مِنْ عَجِيبَةٍ خَارِقَةٍ، حَتَّى تَعَالَتْ صَيْحَاتُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ... وَانْطَلَقَا مُسْرِعَيْنِ إِلَى الزَّرِيبَةِ، حَيْثُ تَجْلِسُ الْمَلِكَةُ «زُبَيْدَةُ» وَوَصِيفَتُهَا «حَلِيمَةُ»، وَذَكَرَا لَهُمَا مَا كَانَ مِنْ أَثَرِ الْعِطْرِ الَّذِي تَفَضَّلَتْ بِهِ الْجِنِّيَّةُ عَلَى «نَرْجِسَ».

فَاسْتَوْلَى عَلَى «زُبَيْدَةَ» وَ«حَلِيمَةَ» مِنَ السَّعَادَةِ مَا يَفُوقُ الْوَصْفَ، وَلَمْ تَدْرِيَا كَيْفَ تُعَبِّرَانِ عَنْ شُكْرِهِمَا لِلْجِنِّيَّةِ وَتَقْدِيرِهِمَا!

وَرَأَى الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» أَنَّ مَا كَانَ يَحُولُ دُونَ اقْتِرَانِهِمَا مِنْ عَائِقٍ، قَدْ مَحَاهُ الْعِطْرُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ.

وَهَكَذَا لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يَخْشَاهُ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ»، وَزَالَ عَنْ قَلْبِهِ ذَلِكَ الْكَابُوسُ الثَّقِيلُ الَّذِي كَانَ يُنَغِّصُ سَعَادَتَهُ، كُلَّمَا شَعَرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَرِدَّ جَمَالَهُ وَبَهَاءَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خَلَعَ عَلَى غَيْرِهِ نَحْسَهُ وَشَقَاءَهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِأُمْنِيَّتِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَشْقَى بِنْتَ عَمِّهِ، الَّتِي أَرْسَلَهَا اللهُ لَهُ لِتُسْعِدَهُ وَتَمْلَأَ حَيَاتَهُ بَهْجَةً وَانْشِرَاحًا، فَكَيْفَ يَرْضَى لَهُ الْوَفَاءُ أَنْ يَجْلُبَ عَلَيْهَا كُلَّ هَذَا الشَّقَاءِ؟

# الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

وَكَانَتِ الْمَلِكَةُ تُفَكِّرُ فِيمَا تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ مَهَامِّ الْغَدِ وَمَشَاغِلِهِ، حِينَ تَعُودُ إِلَى حَاضِرَةِ مُلْكِهَا، الَّتِي طَالَتْ عَنْهَا غَيْبَتُهَا، وَحَانَتْ عَوْدَتُهَا بَعْدَ عِشْرِينَ عَامًا مِنْ فِرَارِهَا وَهِجْرَتِهَا!

وَأَرَادَتْ «زُبَيْدَةُ» أَنْ يَكُونَ لَهَا وَلِوَلَدِهَا وَلـ «نَرْجِسَ» مِنْ فَاخِرِ الثِّيَابِ مَا يُلَائِمُ ذَلِكَ الِاحْتِفَالِ الْعَظِيمِ؛ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ مِنَ الْوَقْتِ وَالْوَسَائِلِ مَا يُسْعِفُ حَاجَتَهَا، وَيُحَقِّقُ رَغْبَتَهَا.

وَجَلَسَتْ حَائِرَةً، لَا تَدْرِي: كَيْفَ تُذَلِّلُ هَذِهِ الْعَقَبَةَ الْعَارِضَةَ، بَعْدَ أَنْ ذَلَّلَتْ مَا قَبْلَهَا مِنْ عَقَبَاتٍ؟ وَلَمْ تَدْرِ: كَيْفَ تَظْهَرُ — هِيَ وَمَنْ مَعَهَا — أَمَامَ الشَّعْبِ الْمُتَحَمِّسِ لِاسْتِقْبَالِهِمْ! وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ ثِيَابِهِمُ الرِّيفِيَّةِ الْخَشِنَةِ، الَّتِي لَا تَصْلُحُ لِغَيْرِ الْمَزَارِعِ وَالْخَلَوَاتِ.

وَكَانَ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» وَبِنْتُ عَمِّهِ «نَرْجِسُ» يَضْحَكَانِ مِمَّا يُساوِرُ «زُبَيْدَةَ» مِنَ الْقَلَقِ وَالِانْزِعَاجِ، بَعْدَ أَنْ تَهَيَّأَتْ لِسَعَادَتِهِمَا الْأَسْبَابُ.

وَأَقْبَلَتْ «نَرْجِسُ» عَلَى «زُبَيْدَةَ» لِتُسَرِّيَ عَنْهَا وَتُدَاعِبَهَا، وَتُهَوِّنَ[١] عَلَيْهَا مَتَاعِبَهَا، فَقَالَتْ: «مَا أَجْدَرَكِ أَلَّا تَشْغَلِي نَفْسَكِ بِمُشْكِلَةِ الثِّيَابِ؛ فَهِيَ مُشْكِلَةٌ هَيِّنَةٌ لَا قِيمَةَ لَهَا وَلَا خَطَرَ.

أَلَا تَرَيْنَ يَا أُمَّاهُ، أَنَّ مِثْلَ الْأَمِيرِ «فَائِقٍ» يَزِيدُ جَمَالُهُ عَلَى كُلِّ جَمَالٍ، بِمَا كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْوَفَاءِ مِمَّا لَمْ يَظْفَرْ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ؟ وَلَنْ تَزِيدَهُ الثِّيَابُ الْفَاخِرَةُ جَمَالًا، وَلَنْ تُكْسِبَهُ بَعْضَ مَا ظَفِرَ بِهِ مِنْ تَقْدِيرٍ وَإِعْجَابٍ!»

---

[١] تهون عليها: تخفف عنها.

ثُمَّ قَالَ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ»: «أَلَا تَشْرَكِينَنِي — يَا أُمَّاهُ — فِيمَا أَعْتَقِدُهُ وَأَرَاهُ؟

أَلا تَرَيْنَ أَنَّ جَمَالَ «نَرْجِسَ» يُغْنِيهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُزَيِّنُهَا بِأَحْسَنَ مِمَّا يُزَيِّنُهَا فَاخِرُ الثِّيَابِ، وَأَنَّ مَا تُشِعُّهُ عَيْنَاهَا مِنَ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ وَالْإِخْلَاصِ، وَالطَّهَارَةِ وَإِنْكَارِ الذَّاتِ، وَمَا إِلَى ذَلِكِ مِنْ نَبِيلِ السَّجَايَا وَكَرِيمِ الصِّفَاتِ؛ تُزْرِي بِأَنْفَسِ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ؟

أَلَا تَرَيْنَ فِي تَأَلُّقِ أَسْنَانِهَا مَا يُزْرِي بِبَرِيقِ اللَّآلِئِ وَلَمَعَانِهَا؟

وَأَيُّ إِكْلِيلٍ أَنْفَسُ مِنْ غَدَائِرِهَا[٢] الَّتِي يَفُوقُ جَمَالُهَا أَنْفَسَ التِّيجَانِ الْمُرَصَّعَةِ بِأَكْرَمِ الدُّرَرِ وَأَثْمَنِهَا!»

فَقَالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ؛ فَكِلَاكُمَا آيَةٌ فِي الْحُسْنِ وَالرَّوْعَةِ وَالْجَمَالِ، وَلَكِنْ أَيُّ ضَيْرٍ[٣] فِي أَنْ يَجْتَمِعَ جَمَالُ النَّفْسِ وَجَمَالُ الصُّورَةِ، ثُمَّ يُضَافُ إِلَيْهِمَا جَمَالُ الزِّيِّ؟

وَمَاذَا عَلَيْكُمَا إِذَا شُغِلْتُمَا بِالتَّفْكِيرِ فِيمَا تُرِيدَانِهِ مِنَ الثِّيَابِ، لِتَظْهَرَا أَمَامَ الشَّعْبِ بِمَا يَلِيقُ بِسُمُوِّ مَكَانِكُمَا، وَعُلُوِّ قَدْرِكُمَا؟

إِنَّ نَفَاسَةَ الْحُلِيِّ وَرَوْعَةَ الثِّيَابِ لَنْ تُقَلِّلَ مِنْ جَمَالِكُمَا وَلَنْ تَنْقُصَ مِنْ رَوْعَتِكُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ!

أَمَّا أَنَا، فَلَيْسَ لِي إِلَى فَاخِرِ الثِّيَابِ حَاجَةٌ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَتْ بِيَ السِّنُّ، وَأَصْبَحْتُ عَجُوزًا كَمَا تَرَيَانِ!»

وَهُنَا قَاطَعَتْهَا «نَرْجِسُ» قَائِلَةً: «إِنَّ مَا يَزِينُكِ مِنْ جَمَالِ النَّفْسِ، وَسَمَاحَةِ الْخُلُقِ وَنَضَارَةِ الْوَجْهِ، لَيَتَضَاءَلُ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ كُلُّ جَمَالٍ.

وَلَنْ يَضِيرَكِ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — مَا تَرْتَدِينَ مِنْ ثِيَابٍ قَرَوِيَّةٍ.

وَحَسْبُكِ جَمَالًا مَا تَحَلَّيْتِ بِهِ مِنَ الشَّمَائِلِ الْعَالِيَةِ، وَمَا أَسْدَيْتِهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي سَبِيلِ إِنْقَاذِ أُمِّي وَأَبِي، وَمَا تَحَمَّلْتِهِ مِنَ الْعَنَاءِ وَالْجُهْدِ وَشَظَفِ الْعَيْشِ وَالْفَاقَةِ، وَالصَّبْرِ فِي تَعَهُّدِنَا[٤] وَرِعَايَتِنَا وَتَنْشِئَتِنَا جَمِيعًا.

---

[٢] غدائرها: ضفائرها.

[٣] أي ضير: أي ضرر.

[٤] تعهدنا: تربيتنا وملاحظتنا.

وَلَيْسَ يُخَامِرُنِي شَكٌّ فِي أَنَّكِ سَتَجِدِينَ فِي مَمْلَكَتِكِ — مَتَى أَسْعَدْتِهَا بِطَلْعَتِكِ، وَشَرَّفْتِهَا بِزِيَارَتِكِ — كُلَّ مَا يَجْدُرُ بِمَقَامِكِ الْعَالِي، مِنْ نَفِيسِ الْحُلِيِّ، وَفَاخِرِ الثِّيَابِ.»

وَهَكَذَا قَضَوْا يَوْمَهُمْ فِي سُرُورٍ وَابْتِهَاجٍ، بَعْدَ أَنْ زَالَ عَنْهُمُ الْهَمُّ وَالْقَلَقُ.

وَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءُ، وَحَانَ وَقْتُ الْعَشَاءِ، بَعَثَتْ لَهُمْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ بِمَائِدَةٍ حَافِلَةٍ بِأَشْهَى أَلْوَانِ الطَّعَامِ.

وَكَانَتْ — فِي الْحَقِّ — أَسْعَدَ لَيْلَةٍ قَضَوْهَا فِي زَرِيبَتِهِمْ، كَمَا كَانَتْ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِالنَّوْمِ عَلَى حُزَمِ الْقَشِّ وَالتِّبْنِ.

وَكَانَ مَا بَذَلُوهُ مِنَ الْجُهْدِ — فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ — قَدْ أَتْعَبَهُمْ وَأَضْنَاهُمْ، وَجَهَدَهُمْ وَهَدَّ قُوَاهُمْ؛ فَلَا عَجَبَ إِذَا اسْتَسْلَمُوا لِلسُّبَاتِ،[٥] وَلَمْ يَسْتَيْقِظُوا إِلَّا بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ بِوَقْتٍ طَوِيلٍ.

وَأَقْبَلَتْ أَمِيرَةُ التَّوَابِعِ قُبَيْلَ انْتِبَاهِهِمْ مِنْ نَوْمِهِمُ الطَّوِيلُ، بِوَقْتٍ قَلِيلٍ، فَهَمَسَتْ فِي آذَانِهِمْ هَمَسَاتٍ خَفِيفَةً، أَيْقَظَتْهُمْ مِنْ رُقَادِهِمْ.

وَكَانَ الْأَمِيرُ «فَائِقٌ» أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَقَلْبُهُ يَفِيضُ إِينَاسًا وَبِشْرًا، وَعِرْفَانًا بِالْجَمِيلِ وَشُكْرًا.

وَمَا لَمَحَتْ عَيْنَاهُ «لُؤْلُؤَةَ»، حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْهَا يَبُثُّهَا مَا يُضْمِرُهُ لَهَا مِنْ تَقْدِيرٍ عَمِيقٍ، وَحُبٍّ وَثِيقٍ، فَرَبَّتَتْ كَتِفَهُ، مُظْهِرَةً لَهُ فَرْطَ إِعْجَابِهَا بِمَا شَهِدَتْهُ مِنْ صَادِقِ وَفَائِهِ، وَمَا سَمِعَتْهُ مِنْ جَمِيلِ ثَنَائِهِ؛ فَأَهْوَى عَلَى جَنَاحِهَا يُقَبِّلُهُ، مُضَاعِفًا ثَنَاءَهُ، مُؤَكِّدًا وَلَاءَهُ.

وَأَقْبَلَتْ «زُبَيْدَةُ» عَلَى «لُؤْلُؤَةَ» تُحَيِّيهَا وَتُرَبِّتُهَا، وَتُشَارِكُ ابْنَهَا فِي ثَنَائِهِ عَلَيْهَا وَشُكْرِهِ لَهَا.

فَقَالَتْ لَهُمَا «لُؤْلُؤَةُ»: «لَسْتُ أَشُكُّ فِيمَا مَنَحَكُمَا اللهُ مِنْ فَضْلٍ جَلِيلٍ، وَمَزِيَّةِ اعْتِرَافٍ بِالْجَمِيلِ.

وَإِنِّي لَيُؤْسِفُنِي أَنْ تَعَتَرِضَنِي شَوَاغِلُ كَثِيرَةٌ، لَا يَسَعُنِي إِغْفَالُ شَأْنِهَا، وَلا مَعْدَى لِي[٦] عَنِ الْإِسْرَاعِ إِلَى أَدَائِهَا ... فَقَدْ أَرْسَلَتْ تَطْلُبُنِي الْمَلِكَةُ الشَّقْرَاءُ، زَوْجَةُ الْمَلِكِ «سَعْدَانَ»: مَلِكِ

[٥] السبات: النوم العميق.

[٦] لا معدى لي: لا مفر لي.

الْإِنْسِ وَالْجَانِّ، وَحَارِسِ كُنُوزِ الْمَلِكِ «سُلَيْمَانَ». وَقَدْ بَعَثَتْ إِلَيَّ مُنْذُ قَلِيلٍ، تَدْعُونِي لِمُشَارَكَتِهَا فِي الِاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِ طِفْلِهَا الثَّالِثِ، فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ»، وَهُوَ أَمْرٌ مُطَاعٌ مُجَابٌ، لَا سَبِيلَ إِلَى مُخَالَفَتِهِ مَهْمَا كَانَتِ الدَّوَاعِي وَالْأَسْبَابُ.

وَسَيَكُونُ هَذَا الطِّفْلُ زَوْجًا لِأُولَى مَا تُنْجِبَانِهِ مِنْ بَنَاتٍ، بَعْدَ أَنْ يَتَحَلَّى مِنْ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ، وَنَبِيلِ الْمَزَايَا، بِمَا يُؤَهِّلُهُ لِشَرَفِ مُصَاهَرَتِكُمَا، وَيَجْعَلُهُ جَدِيرًا بِزَوَاجِ ابْنَتِكُمَا ... وَقَدْ أَصْبَحَ أَوَّلَ واجِباتِي الْآنَ، أَنْ أَنْقُلَكُمْ إِلَى مَمْلَكَتِكُمْ قَبْلَ ذَهَابِي إِلَى جَزِيرَةِ عَبْقَرٍ.»

وَالْتَفَتَتْ «لُؤْلُؤَةُ» إِلَى الْمَلِكَةِ «زُبَيْدَةَ»، وَهِيَ تَقُولُ: «سَنَذْهَبُ تَوًّا إِلَى مَمْلَكَةِ وَلَدِكِ، فَهَلْ أَنْتِ وَ«حَلِيمَةُ» الْمُخْلِصَةُ الْأَمِينَةُ الْوَفِيَّةُ مُتَأَهِّبَتَانِ؟»[7]

فَبَدَا عَلَى الْمَلِكَةِ وَوَصِيفَتِهَا شَيْءٌ مِنَ الْقَلَقِ وَالْحَيْرَةِ وَالِارْتِبَاكِ.

وَجَمْجَمَتْ تَقُولُ: «إِنَّ إِشَارَتَكِ — يَا مَوْلَاتِي — مُطَاعَةٌ، وَرَغْبَتَكِ وَاجِبَةُ النَّفَاذِ وَالطَّاعَةِ، وَهَا نَحْنُ أُولاءِ عَلَى أُهْبَةِ السَّفَرِ، فَهَلْ يُرْضِيكِ أَنْ نَسْتَقْبِلَ الشَّعْبَ بِمِثْلِ هَذِهِ الثِّيَابِ الْقَرَوِيَّةِ الْقَدِيمَةِ؟

فَإِذَا رَأَيْتِ أَنَّ ذَلِكِ لَا يَضِيرُنَا، وَلَا يُصَغِّرُنَا فِي عُيُونِ الشَّعْبِ وَلَا يُحَقِّرُنَا، فَلَنْ نَعْصِيَ لَكِ أَمْرًا، وَلَنْ تَرَيْ مِنَّا إِلَّا تَلْبِيَةً وَشُكْرًا.»

فَأَجَابَتْهَا «لُؤْلُؤَةُ» مُبْتَهِجَةً مُسْتَبْشِرَةً: «مَا أَهْوَنَ مَا تَطْلُبِينَ، وَمَا أَيْسَرَ مَا تُرِيدِينَ!»

وَهُنَا أَقْبَلَتْ «لُؤْلُؤَةُ» عَلَى «زُبَيْدَةَ» مُبْتَسِمَةً، وَرَفَعَتْ عَصَاهَا فِي الْهَوَاءِ، مُلَوِّحَةً بِهَا فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّمَا تَرْسُمُ فَوْقَ رَأْسِهَا دَائِرَةً.

وَمَا كَادَتْ «لُؤْلُؤَةُ» تَنْتَهِي مِنْ إِشَارَتِهَا، حَتَّى دَهِشَتْ «زُبَيْدَةُ» وَاشْتَدَّتْ حَيْرَتُهَا.

فَقَدْ رَأَتْ عَلَى مَفْرِقِهَا[8] تَاجًا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ، يَعِزُّ مِثْلُهُ فِي التِّيجَانِ، وَقَدْ حُلِّيَ بِأَنْفَسِ الْيَوَاقِيتِ وَاللَّآلِئِ. وَرَأَتْ ثَوْبَهَا الرِّيفِيَّ الْحَقِيرَ قَدْ تَبَدَّلَ ثَوْبًا مِنَ الْحَرِيرِ، يُوَشِّيهِ الْقَصَبُ، وَيُطَرِّزُهُ الذَّهَبُ.

---

[7] متأهبتان: مستعدتان.

[8] المفرق: وسط الرأس.

وَنَظَرَتْ إِلَى قَدَمَيْهَا فَإِذَا بِهِمَا تَحْتَذِيَانِ نَعْلَيْنِ، قَدْ صُنِعَتَا مِنَ الْمُخْمَلِ وَالذَّهَبِ؛ فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ تُظْهِرَ ابْتِهَاجَهَا، وَالْتَفَتَتْ إِلَى «لُؤْلُؤَةَ» تُعْلِنُ لَهَا عَجْزَهَا عَنْ شُكْرِهَا ... ثُمَّ خَتَمَتْ ثَنَاءَهَا قَائِلَةً: «لَقَدْ غَمَرْتِنِي بِعَطْفِكِ وَكَرَمِكِ، وَمَا أَظُنُّكِ نَسِيتِ وَلَدِي وَبِنْتَ عَمِّهِ ... وَمَا أَحْسَبُكِ تَضِنِّينَ عَلَيْهِمَا بِمَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنْ نَفِيسِ الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ.»

فَقَالَتْ «لُؤْلُؤَةُ» مُبْتَسِمَةً: «لَهُمَا مَا يُرِيدَانِ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُظْهِرَا مُوَافَقَتَهُمَا، وَلَمْ يُعْلِنَا رَغْبَتَهُمَا؛ فَإِنْ شَاءَا لَبَّيْتُ، وَإِنْ أَبَيَا أَبَيْتُ.

فَخَبِّرِينِي يَا «نَرْجِسُ»: أَتُوَافِقِينَ عَلَى تَبْدِيلِ ثِيَابِكِ؟»

فَغَضَّتْ «نَرْجِسُ» مِنْ بَصَرِهَا، وَاحْمَرَّ — مِنْ فَرْطِ الْخَجَلِ — وَجْهُهَا، وَأَجَابَتْهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ: «لَقَدْ كُنْتُ سَعِيدَةً — يَا مَوْلَاتِي — فِي هَذِهِ الثِّيَابِ الْقَرَوِيَّةِ الْبَسِيطَةِ، وَهَيْهَاتَ أَنْ أَرْضَى بِهَا بَدِيلًا.

فَقَدْ طَالَمَا لَبِسْتُهَا وَتَعَوَّدْتُهَا، وَأَلِفْتُ الظُّهُورَ بِهَا، فَمَا أَنْكَرَ ابْنُ عَمِّي زِيَّهَا، وَلَا أَنْكَرْتُهَا.

وَإِنِّي لَيُسْعِدُنِي أَنْ تَبْقَى فِي حَوْزَتِي، كَمَا بَقِيَتْ ذِكْرَيَاتُهَا عَالِقَةً بِذَاكِرَتِي، وَهِيَ تَحْتَوِي مِنْ ذِكْرَيَاتِ طُفُولَتِي أَكْرَمَ مَا أَعْتَزُّ بِهِ.

ذَلِكِ مَا يُعْجِبُنِي وَأَرْتَضِيهِ، وَأَسْعَى لَهُ وَأَبْتَغِيهِ.

وَلَوْ تُرِكَ لِيَ الْخِيَارُ لَآثَرْتُهُ، وَلَمْ أُفَرِّطْ فِيهِ.

وَمَا أَظُنُّ ذَلِكِ — عَلَى أَيِّ حَالٍ — يَتَنَافَى مَعَ التَّقَالِيدِ الْكَرِيمَةِ، وَالْمَبَادِئِ الْقَوِيمَةِ.»

وَلَمْ يَتَمَالَكْ «فَائِقٌ» أَنْ يُعْلِنَ ابْتِهَاجَهُ بِمَا سَمِعَ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا فِي حُنُوٍّ وَابْتِسَامٍ، يُرَبِّتُ كَتِفَيْهَا وَيُثْنِي عَلَيْهَا.

وَأَعْلَنَتْ «لُؤْلُؤَةُ» مُوَافَقَتَهَا عَلَى مَا قَالَتْهُ «نَرْجِسُ»! بَعْدَ أَنْ وَجَدَتْ «فَائِقًا» يَبْتَهِجُ لَهُ، وَيَفْرَحُ بِهِ، لِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مَعَانِي الْوَفَاءِ، وَصِدْقِ الْوَلَاءِ.

ثُمَّ أَشَارَتْ «لُؤْلُؤَةُ» إِلَى أَعْوَانِهَا، بِنَقْلِ الْأُسْرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ إِلَى قَصْرِهَا، فِي حَاضِرَةِ مُلْكِهَا؛ فَحَمَلُوهَا إِلَى الْمَرْكَبَةِ، فِي غَيْرِ ضَجَّةٍ وَلَا جَلَبَةٍ، وَأَجْلَسَتْ «لُؤْلُؤَةُ» إِلَى جِوَارِهَا الْمَلِكَةَ «زُبَيْدَةَ» وَوَلَدَهَا، وَ«نَرْجِسَ» وَ«حَلِيمَةَ».

وَلَمْ تَلْبَثِ الْقَنَابِرُ أَنِ اجْتَازَتْ مَسَافَةَ مَا بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ فِي أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ، وَهِيَ مَسَافَةٌ مُتَرَامِيَةٌ، وَمَرْحَلَةٌ قَاصِيَةٌ.

# خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَسُرْعَانَ مَا تَحَقَّقَتْ لَهُمُ الْآمَالُ، بَعْدَ أَنْ قَطعُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْأَمْيَالِ، وَحَالَفَهُمُ التَّوْفِيقُ فِي رِحْلَتِهِمْ، فَقَطَعُوا فِي سَفَرِهِمْ مَا كَانَ يَفْصِلُهُمْ عَنْ وَطَنِهِمْ، مِنْ مَسَافَاتٍ شَاسِعَةٍ، وَصَحَارَى وَاسِعَةٍ.

وَاجْتَازُوا — فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ — جِبَالًا وَأَنْهَارًا، وَحَدَائِقَ وَأَزْهَارًا، وَجَدَاوِلَ وَغُدْرَانًا، وَجَزَائِرَ وَخُلْجَانًا، وَقُرًى وَبُلْدَانًا، وَقَدْ مَرَّتْ بِهِمْ تِلْكَ الْمَنَاظِرُ، كَمَا يَمُرُّ الْحُلْمُ الْعَابِرُ، أَوِ الذِّكْرَيَاتُ السَّعِيدَةُ عَلَى الْخَاطِرِ.

وَبَلَغُوا سَاحَةَ الْوَطَنِ، بَعْدَ سَاعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَقَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَمْلَكَتِهِمْ.

وَوَقَفَتْ جُمُوعُ الشَّعْبِ عَلَى جَنَبَاتِ الطَّرِيقِ، وَشُرُفَاتِ الْمَنَازِلِ وَسُطُوحِهَا، مُبْتَهِجِينَ، يَسْتَقْبِلُونَهُمُ اسْتِقْبَالَ الْفَاتِحِينَ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ خَفَّ لِاسْتِقْبَالِهِمْ، وَالتَّرْحِيبِ بِهِمْ، سَرَاةُ الدَّوْلَةِ[1] وَأُمَرَاؤُهَا، وَأَعْلَامُهَا وَوُزَرَاؤُهَا.

وَمَا أَظُنُّكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — فِي حَاجَةٍ إِلَى السُّؤَالِ عَمَّنْ أَفْضَى إِلَيْهِمْ[2] بِاقْتِرَابِ عَوْدَةِ مَلِيكِهِمْ.

فَلَيْسَ بِكَثِيرٍ عَلَى ذَكَائِكَ وَفِطْنَتِكَ، أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ «لُؤْلُؤَةَ» هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي زَفَّتْ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ النَّبَأَ السَّعِيدَ، وَأَعْلَنَتْ لَهُمُ السَّاعَةَ الَّتِي يَصِلُ فِيهَا مَلِيكُهُمُ الْمَجِيدُ.

---

[1] سراة الدولة: شرفاؤها وعظماؤها.

[2] أفضى إليهم: حدثهم.

وَمَنْ غَيْرُ «لُؤْلُؤَةَ» الْوَفِيَّةِ، الرَّاضِيَةِ الْمَرْضِيَّةِ، يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ، وَيَلَذُّ لَهُ أَنْ يُسْدِيَ الْمَكْرُمَاتِ، وَيَمْلَأَ الدُّنْيَا أَفْرَاحًا وَسَعَادَاتٍ؟

وَمَا إِنْ أَشْرَفَتِ الْمَرْكَبَةُ الْمُلُوكِيَّةُ عَلَى الشَّعْبِ حَتَّى ارْتَفَعَ هُتَافُهُ، وَدَوَّتْ صَيْحَاتُهُ، وَتَعَالَتْ دَعَوَاتُهُ.

ثُمَّ تَضَاعَفَ السُّرُورُ وَالْبِشْرُ، حِينَ أَشْرَفَتِ الْمَرْكَبَةُ الْمُلُوكِيَّةُ عَلَى سَاحَةِ الْقَصْرِ.

وَكَانَتِ الْمَلِكَةُ «زُبَيْدَةُ» أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ مِنْهَا، وَقَدْ نَاهَزَ[٣] عُمْرُهَا الْخَمْسِينَ؛ وَلَمْ يُؤَثِّرْ فِي جَمَالِهَا مُرُورُ الْأَعْوَامِ وَتَوَالِي السِّنِينَ.

وَقَدْ أَنْسَاهَا الْفَرَحُ بِعَوْدَتِهَا إِلَى وَطَنِهَا كُلَّ مَا لَقِيَتْهُ فِي حَيَاتِهَا، مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَحَدَثَانِهَا.

ثُمَّ نَزَلَ الْمَلِكُ «فَائِقٌ» مُرْتَدِيًا نَفَائِسَ مِنَ الْحُلَلِ الْمُلُوكِيَّةِ، الَّتِي أَهْدَتْهَا لَهُ الْجِنِّيَّةُ؛ فَبَهَرَ حُسْنُهَا وَسَنَاهَا كُلَّ مَنْ رَآهَا.

وَقَدْ شَعَّ لَأْلَاؤُهَا، وَانْبَعَثَتْ أَضْوَاؤُهَا؛ فَلَمْ تَقْوَ عَلَى رُؤْيَتِهَا الْأَنْظَارُ، وَكَادَ بَرِيقُهَا يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ.

وَقَدْ طُرِّزَتْ بِاللَّآلِئِ الْمُثَبَّتَةِ عَلَى أَزْرَارٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَحُلِّيَتْ بِنَفَائِسِ الْحَرِيرِ وَالْقَصَبِ.

وَلَا تَسَلْ عَنْ تَصْفِيقِ الشَّعْبِ وَحَمَاسَتِهِ؛ فَقَدْ رَأَى فِي مَلِيكَتِهِ مِثَالًا رَائِعًا لِلتَّفَانِي فِي الْوُدِّ وَالْإِخْلَاصِ، بَعْدَ أَنْ أَفْضَتْ إِلَيْهِ «لُؤْلُؤَةُ» بِمَا بَذَلَتْهُ «نَرْجِسُ» لِمَلِيكِهِ مِنْ خَالِصِ الْوَفَاءِ، وَصَادِقِ الْفِدَاءِ.

فَانْدَفَعَ الشَّعْبُ إِلَى تَحِيَّتِهَا فِي جُمُوعِهِ الزَّاخِرَةِ، وَحَمَاسَتِهِ النَّادِرَةِ، يُحَيِّيهَا وَيَدْعُو لَهَا، وَلَا يَكُفُّ عَنِ الْهُتَافِ بِاسْمِهَا، وَالتَّنْوِيهِ بِفَضْلِهَا، وَخَالِصِ وَفَائِهَا، وَصَادِقِ فِدَائِهَا.

فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تُحَيِّيهِ شَاكِرَةً، وَقَدْ شَعَّ سَنَاهَا،[٤] وَتَأَلَّقَ نُورُ مُحَيَّاهَا.

وَظَلَّتِ الْجَمَاهِيرُ تَهْتِفُ لِلْأُسْرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ هُتَافًا عَالِيًا.

وَلَمْ يَكُفَّ الشَّعْبُ عَنِ الدُّعَاءِ لَهَا دَعَوَاتٍ صَادِقَاتٍ، خَارِجَاتٍ مِنْ أَعْمَاقِ الْقَلْبِ، مُعَبِّرَاتٍ عَنْ خَالِصِ الْوَلَاءِ، وَصَادِقِ الْحُبِّ.

---

[٣] ناهز: قارب.

[٤] سناها: ضوؤها.

وَلَمْ يَنْقَضِ عَلَى الزَّوَاجِ عَامَانِ؛ حَتَّى كَانَ الِاحْتِفَالُ الْعَظِيمُ بِمَوْلِدِ الْأَمِيرَةِ «كَوْثَرَ».

وَكَانَتْ كَأَبَوَيْهَا الْمَلِكَيْنِ: «فَائِقٍ» وَ«نَرْجِسَ»، طِيبَةَ قَلْبٍ، وَصَفَاءَ نَفْسٍ، وَجَمَالَ صُورَةٍ.

وَقَدْ شَهِدَ كُلُّ مَنْ رَآهَا، أَنَّهَا آيَةُ عَصْرِهَا حُسْنًا وَبَهَاءً، وَفِتْنَةً وَرُوَاءً.[٥]

ثُمَّ تَوَالَتْ أَيَّامُ السَّعَادَةِ مُتَعَاقِبَةً، يَوْمًا فِي إِثْرِ يَوْمٍ، وَعَامًا فِي إِثْرِ عَامٍ؛ حَتَّى أَنْجَبَا ثَمَانِيَةَ صِبْيَانٍ، وَأَرْبَعَ بَنَاتٍ، كُلُّهُمْ آيَةٌ فِي الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ، يَرْعَاهُمُ الْحُبُّ وَيَحُفُّ[٦] بِهِمُ الْهَنَاءُ، وَتَغْمُرُهُمُ السَّعَادَةُ وَيُرَفْرِفُ عَلَيْهِمُ الصَّفَاءُ.

أَمَّا الْمَلِكَةُ «زُبَيْدَةُ»، الَّتِي عَرَفْتَهَا فِيمَا سَبَقَ بِاسْمِ السَّيِّدَةِ الْقَرَوِيَّةِ «مَاجِدَةَ»، فَقَدْ عَاشَتْ مَعَ وَصِيفَتِهَا «حَلِيمَةَ» عِيشَةً رَغِيدَةً.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا — فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِمَا — مَا يَشْغَلُ بَالَهُمَا، فِي حَلِّهِمَا وَتَرْحَالِهِمَا، إِلَّا أَنْ تُوَجِّهَا عِنَايَتَهُمَا إِلَى الْأُمَرَاءِ الْحَفَدَةِ، الْكِرَامِ الْمَجَدَةِ، فَلَمْ تَدَّخِرَا وُسْعًا فِي رِعَايَتِهِمْ، وَالسَّهَرِ عَلَى تَثْقِيفِهِمْ وَتَنْشِئَتِهِمْ، فِي عَهْدِ طُفُولَتِهِمْ وَحَدَاثَتِهِمْ.

وَيَا طَالَمَا[٧] قَصَّتْ عَلَيْهِمْ «زُبَيْدَةُ» وَ«حَلِيمَةُ» طَرَائِفَ مِنَ الْقَصَصِ وَلَطَائِفَ.

وَكَانَ فِيمَا سَمِعَهُ الْحَفَدَةُ الْمَجَدَةُ مِنْ حَوَادِثِ الْأَبْطَالِ، قِصَّةُ أَبِيهِمْ وَأُمِّهِمْ، وَجَدَّتِهِمْ وَمُرَبِّيَتِهِمْ، وَمَا احْتَمَلُوهُ جَمِيعًا مِنْ كَوَارِثَ وَآلَامٍ، وَأَحْدَاثٍ جِسَامٍ، وَمَا تَحَلَّتْ بِهِ نُفُوسُهُمُ الطَّاهِرَةُ، مِنْ مَزَايَا بَاهِرَةٍ، فَصَّلْتُ لَكَ مَوَاقِفَهَا الْمَجِيدَةَ، فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْفَرِيدَةِ.

وَهَكَذَا عَاشَ الْجَمِيعُ فِي هَنَاءٍ وَرَغَادَةٍ، وَابْتِهَاجٍ وَسَعَادَةٍ.

وَلَمْ يَنْسَ الْمَلِكُ «فَائِقٌ» وَزَوْجَتُهُ الْمَلِكَةُ «نَرْجِسُ» فَضْلَ أُمِّهِمَا «زُبَيْدَةَ» وَوَصِيفَتِهَا «حَلِيمَةَ»، وَمَا قَدَّمَتَا لَهُمَا مِنْ أَيَادٍ كَرِيمَةٍ.

وَعَاشَ الْمَلِكَانِ — طُولَ عُمرِهِمَا — يَذْكُرَانِ لَهُمَا مَا كَابَدَتَا فِي سَبِيلِهِمَا مِنْ شَقَاءٍ، وَمَا احْتَمَلَتَا — فِي تَحْقِيقِ سَعَادَتِهِمَا — مِنْ عَنَاءٍ.

أَرَاكَ تَسْأَلُنِي — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — عَمَّا لَقِيَهُ ثَلَاثَةُ الْأَشْقِيَاءِ مِنْ جَزَاءٍ!

---

[٥] رواء: حسن منظر.

[٦] يحف بهم: يحيط بهم.

[٧] ويا طالما: وكثيرًا ما.

فَاعْلَمْ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ، وَسَلِمْتَ مِنْ كُلِّ أَذًى وَضَيْرٍ — أَنَّ «لُؤْلُؤَةَ» أَمِيرَةَ التَّوَابِعِ — الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ لِتَأْدِيبِهِمْ، وَالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ وَتَعْذِيبِهِمْ — لَمْ تُقَصِّرْ فِي مُعَاقَبَتِهِمْ، وَمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَى نَذَالَتِهِمْ وَشَرَاسَتِهِمْ.

وَسُرْعَانَ مَا تَعَرَّضَ أَوَّلُهُمْ «قَسْوَرَةُ» صَاحِبَ الدَّسْكَرَةِ، لِمِيتَةٍ شَنْعَاءَ مُنْكَرَةٍ، بَعْدَ أَنْ كَابَدَ — مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ — مَا لَمْ يَدُرْ لَهُ فِي حِسَابٍ.

فَلَمْ يَكَدْ يَرْجِعُ مِنْ بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَيَهُمُّ بِالْعَوْدَةِ إِلَى دَارِهِ، حَتَّى لَقِيَهُ — عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْهَا — ثَلَاثَةُ كِلَابٍ شَرِسَةٍ ضَارِيَةٍ؛ فَضَيَّقَتْ عَلَيْهِ مَنَافِذَ الطَّرِيقِ وَمَسَالِكَهُ، فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ حَالِكَةٍ.

فَاسْتَخَفَّ «قَسْوَرَةُ» — أَوَّلَ الْأَمْرِ — بِلِقَائِهَا وَلَمْ يُبَالِهَا، وَزَجَرَهَا فَلَمْ تَزْدَجِرْ، وَلَوَّحَ لَهَا بِعَصَاهُ فَلَمْ تَفِرَّ؛ فَصَاحَ بِهَا يُنْذِرُهَا وَيَتَهَدَّدُهَا وَيَتَوَعَّدُهَا.

فَلَمْ تَخْشَ وَعِيدَهُ، وَلَمْ تُبَالِ تَهْدِيدَهُ … وَتَوَاثَبَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ الْكِلَابِ، فَطَرَحَتْهُ أَرْضًا، وَتَعَاوَرَتْهُ نَهْشًا وَعَضًّا … ثُمَّ وَلَغَتْ فِي دِمَائِهِ، وَلَمْ تُبْقِ مِنْهُ غَيْرَ أَشْلَائِهِ.

وَلَم تَتْرُكْهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلَتْهُ عِبْرَةً لِمَنِ اعْتَبَرَ.

أَمَّا «صَعْصَعَةُ» وَكِيلُ الْمَزْرَعَةِ، وَهُوَ — كَمَا عَلِمْتَ — ثَانِيَ الْأَشْقِيَاءِ، فَقَدْ لَقِيَ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنْ بَلَاءٍ.

وَلَمْ يَمُرَّ عَلَى إِسَاءَتِهِ لَيْلَتَانِ، حَتَّى دَهِمَتْهُ الْكَارِثَةُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ.

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ لَدَغَهُ ثُعْبانٌ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْبُسْتَانِ؛ فَلَمْ يُمْهِلْهُ غَيْرَ ثَوَانٍ، وَجَرَى فِي عُرُوقِهِ السَّمُّ؛ فَأَهْلَكَهُ مِنْ فَوْرِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ جَوْرِهِ.[٨]

وَأَمَّا الشَّقِيُّ الثَّالِثُ، فَلَقِي ثَالِثَةَ الْكَوَارِثِ؛ فَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ أُسْبُوعٌ وَاحِدٌ، حَتَّى لَقِي عِقَابَ الْمُتَجَبِّرِ الْجَاحِدِ، وَدَهَمَتْهُ دَاهِيَةٌ دَهْوَاءُ، وَخَتَمَتْ حَيَاتَهُ مِيتَةٌ شَنْعَاءُ.

[٨] جوره: ظلمه.

وَكَانَ ذَلِكَ الْحَدَّادُ قَدْ أَسْرَفَ فِي اللَّجَاجِ وَالْعِنَادِ، وَتَمَادَى[٩] فِي الْإِسَاءَةِ؛ فَلَمْ يَنْجُ — مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ — عَدُوٌّ وَلَا حَبِيبٌ، وَلَمْ يَخْلُصْ مِنْ شَرِّهِ وَعُدْوَانِهِ بَعِيدٌ وَلَا قَرِيبٌ ... فَلَمَّا أَرْهَقَهُمْ ظُلْمُهُ، وَيَئِسَ مِنْ إِصْلَاحِهِ قَوْمُهُ، أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى الِانْتِقَامِ، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا إِحْجَامٍ.

وَسُرْعَانَ مَا تَأَلَّبُوا عَلَيْهِ[١٠] فَأَوْثَقُوهُ،[١١] وَتَمَادَى بِهِمُ الْغَيْظُ فَخَنَقُوهُ ... وَلَمْ يَكْتَفُوا بِكَتْمِ أَنْفَاسِهِ، فَفَصَلُوا جِسْمَهُ عَنْ رَأْسِهِ، ثُمَّ أَلْقَوْا بِجُثَّتِهِ فِي اللَّهَبِ؛ فَالْتَهَمَتْهَا النِّيرَانُ فِي ثَوَانٍ، وَأَصْبَحَ «الْقَابِضُ» فِي خَبَرِ كَانَ.

وَهَكَذَا لَقِيَ الْمُحْسِنُ جَزَاءَ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، كَمَا لَقِيَ الْمُسِيءُ عَاقِبَةَ بَغْيِهِ وَعُدْوَانِهِ. وَلَمْ يُفْلِتْ كِلَاهُمَا مِنْ عَادِلِ الْجَزَاءِ، نَعِيمًا كَانَ أَوْ شَقَاءً.

وَأَدْرَكَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَصِيبَهُ، وَلَا يُضِيعُ اللهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

---

[٩] تمادى: زاد.

[١٠] تألبوا عليه: اجتمعوا عليه.

[١١] أوثقوه: ربطوه.


هنداوي